

# زفاعة رافع لظہر طاوی

فی السوان

بقلم

د. احمد احمد سید احمد

الطبعة الأولى

۱۹۷۳



وَالْبَيْتُ حَيْثُ وَالنَّبِيُّ

رفاعه رافع لطرطاي



في السودان

د. احمد احمد سيد احمد

٦٢٥

٣٠٠

سید مولانا

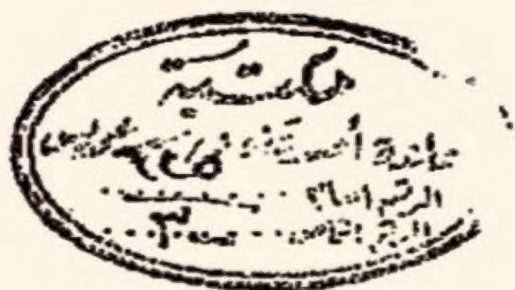
لجنة التأليف والترجمة والنشر

# زفاعة رافع لطرططاوى

في السوان

بقلم

د. احمد احمد سيد احمد



الطبعة الأولى

۱۹۷۳

# زفاو رافع لطرطاوى

في السوان

بقلم

د. احمد احمد سيد احمد



الطبعة الأولى

١٩٧٣





# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة

لعبت مصر المملوكية دورها بجدارة في رد غارات الصليبيين ومن بعدهم التتار عن الشرق الأدنى ، وبذلت في ذلك كل غال وثمين ، وقد ترك الجهد المضاف الذي بذل في هذا السبيل مع أسباب أخرى أثره واضحاً في عصر المماليك الثاني ( ١٣٨٢ - ١٥١٧ م ) ، فتأخرت البلاد فيه - وخاصة في السنوات الأخيرة منه - عن العصر السابق له ، عصر المماليك الأول ( ١٢٥٠ - ١٣٨١ م ) . ولم يكد القرن الخامس عشر بوشك على الانتهاء حتى كان الإعباء قد أخذ من البلاد كل مأخذ ، فلم تستطع أن تقف أمام جيوش العثمانيين وخرت صريعة تحت أقدامهم ، ومن العجب أن يعجز هذا القرن مع ذلك بمجموعة ضخمة من العلماء والمؤرخين والكتاب ، وأعداد كبيرة من التأليف ، وكأنما البلاد بذلك تحاول أن تجمع قواها لاسترداد عافيتها ، أو تلتقط أنفاسها قبل أن يحل بها عصر طويل من الركود ، ولكن العصر كان غير العصر والزمن غير الزمن فكبت وطالت الكبوة .

ففي القرن الخامس عشر ظهرت أسماء لامعة لها أعمالها الكبيرة ، مثل المقرئ وأبو الحسن وابن إياس والسخاوي والسيوطي وغيرهم كثيرون ، وفي الغالب كان هؤلاء جميعاً ممن شغلوا - أو طلبوا - وظائف كبيرة في الدولة المملوكية ، ومن جموعوا إلى ذلك بين فن الكتابة في التاريخ والدراسات والتأليف المتنوعة ، كما كانوا جميعاً يمارسون نظم الشعر في مناسبات شتى .



على أن السيوطى بن الماصرين والمتقدمين جميعاً بممارسة الأدب النثرى كذلك ، كما كانوا شديدي الخصومة والتحاسد ويستشف انقارئ ذلك فى كتبهم فى غير عناء ، وكانوا يقولون فى مقدمات كتبهم إنهم إنما يؤلفون لأنفسهم خاصة أو نزولاً على رغبة صديق لا يريدون من ذلك جزاءً أو استجلاب الرضا عند أمير ، وكانت الأغلبية العظمى من كتب المؤرخين منهم ليست سوى ذبول وتكملات لكتب سبقها زمنياً ، وكان اتجاه بعضهم - كالمقريزى والسيوطى - إلى تأليف الكتب الصغيرة فى موضوعات معينة فضلاً عن جانب انشغالهم بالكتب الكبيرة - وهذه ظاهرة غير متساوية الانطباق على كل منهم ، واتجاه بعضهم الآخر - كأبى المحاسن والسخاوى - إلى اختصار المؤلفات المنسوبة لأسلافهم أو لأنفسهم (١) .

فقدت مصر استقلالها بعد الفتح العثمانى ، وأصاب الحمود جميع نواحي الحياة فيها طوال هذا العهد ، وأهملت مرافق البلاد إهمالاً شائناً توضحه كتابات الرحالة الأوربيين الذين وفدوا على مصر والشام وسائر البلاد العثمانية فى القرن الثامن عشر ، أمثال : سافارى وفولانى وغيرهما ، وأول أسباب هذا الحمود ذلك الحمود الذى أصاب العثمانيين وحال بينهم وبين الاتصال بالحضارات الأجنبية عموماً والأخذ بالحضارة الأوربية على وجه الخصوص ، ومن ذلك أنهم فى صراعهم مع البرتغاليين لم يأخذوا بالمبادرة بمعاكفة دخولهم إلى المحيط الهندى إلا بعد فوات الوقت ، وكان ذلك فى صورة غير مدروسة شملت عملية إبعاد السفن فى السويس بما لا يتناسب مع ظروف القتال فى المحيط الهندى والبحر الأحمر ، وقد دفعت مصر الثمن غالياً ، حيث تضاعفت تجارتها بسبب دخول البرتغاليين إلى المحيط الهندى وسيطرتهم على تجارتها ونقلها إلى أوربا عن طريق المحيط الأطلسى .

(١) الدكتور محمد مصطفى زيادة : المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى

( القرن التاسع المجرى ) ص ٨١ - ٩٢ .

وقد نتجت عن ذلك موجة من التأخر الشديد ، ويصور لنا الشيخ عبد الرحمن الجبرتي مدى ما وصلت إليه الحالة العلمية في مصر في القرن الثامن عشر من تأخر ، فذكر ما وقع بين أحمد باشا الوالي التركي على مصر ( ١١٦٢ - ١١٦٣ هـ = ١٧٤٩ - ١٧٥٠ م ) وبين بعض علماء الأزهر وعلى رأسهم الشيخ عبد الله الشبراوي شيخ الجامع ، وكان هذا الوالي في شوق إلى المجيء إلى مصر لمطالعة علمهم ، إذ كان من أرباب الفضائل وله معرفة بالعلوم الرياضية ، وقد تم اللقاء بينهم ، وباحثهم وناقشهم ، فأنكشف الغطاء عن تخلف علماء الأزهر عن مسايرة تطور العلوم واقتصارهم على علوم الأزهر المعروفة في ذلك الحين .

ويؤكد ما سبق ومصدق له ما رواه الشيخ محمد عبده عن تعلمه بلجال الدين الأفغانى ، بعد ذلك اللقاء بين الوالى التركى ومشايخ الأزهر بقرن وربع قرن من الزمان : « وقد صاحبت من ابتداء شهر المحرم سنة ١٢٨٧ ، وأخذت أنأتى عنه بعض العلوم الرياضية والحكمة ( الفلسفية ) والكلامية ، وأدعوا للناس إلى التأتى عنه كذلك ، وأخذ مشايخ الأزهر والجمهور من طلبته يتقوّلون عليه وعلىنا الأقاويل ، ويزعمون أن تلتى تلك العلوم قد يفضى إلى زعزعة العقائد الصميمة ، وقد يهوى بالنفس فى ضلالات تحرمها خبىرى الدنيا والآخرة . » (١) .

ودامت هذه الحال حتى جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر ، وحن الوقت لفتح الأبواب والنوافذ على الخارج بعد أن كانت مغلقة أشد إغلاق . فمع أن هذه الحملة قد فشلت عسكرياً إلا أنه كانت لها فى مصر آثار كبيرة الأهمية ، فقد بهرت علوم الفرنسيين بعض العلماء ممن اتصلوا بعلماء الحملة وزاروا معاملهم ومطبعاتهم ومكتبتهم ، وهزتهم هزة عنيفة أثرت فى فن

( ١ ) السيد محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ج ١ ص ٢٥ .



كل منهم ، فبعد أن كانت العلوم للدينية واللغوية هي كل ما كانت تدور حوله الدراسات في الأزهر أصبح من بين علماء الأزهر من يعنى بالدراسات الأدبية ويكون له في هذا الميدان مدرسة جديدة ، بل إن كتابات الجبرتي نفسه في تاريخه أصبحت بعد الحملة أدق وأكثر نقداً لسير الحوادث ورجالها مما كانت عليه قبل الحملة (١) .

وبعد خروج الفرنسيين من مصر ومجيء محمد علي ، بدأت سياسة الإصلاح القائمة على الاقتباس من نظم الغرب والنقل من علومه ، فبدأت الدولة بإنشاء المدارس الجديدة على النظام الأوربي وفي إرسال البعث إلى أوروبا وفي استخدام الأجانب - وبخاصة الفرنسيين - في كل الإدارات التي تتطلب خبرة أو فنًا ، وكان هدف محمد علي من ذلك تكوين جهاز من الموظفين والخبراء يقوم عليه صرح دولته .

### مركز علماء الأزهر في ذلك الوقت :

وعلى الرغم من الأوضاع التي مر بها علماء الأزهر فقد كانوا هم الطبقة التي تصدت للعلم واشتدّت الأمور في البلاد ، فكانوا يقومون عند الولاة بالدفاع عن مصالح الشعب ، ويحتجون عليهم حين يجنح بهم الظلم ، أو يقسو الجند في معاملة الأهالي ، ويقفون بين الولاة والشعب حتى ينالوا لهم مطالبهم . ومن ذلك ما ظهر في الحركة الشعبية التي قامت بالقاهرة في منتصف سنة ١٧٩٥ ضد الأميرين المملوكيين إبراهيم بك ومراد بك ، عندما أسرفا في فرض الضرائب على سكان إحدى قرى مديرية الشرقية في ذلك الوقت : وكانت هذه الحركة تنادى بضرورة وضع حد للمظالم ، وقد نزل زعماء المهاليك بعد اجتماع تم بينهم وبين زعماء الشعب من العلماء ومشايخ الأزهر وغيرهم على

(١) الدكتور أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم في مصر عهد علي ص ٢٤ .

مطالب الشعب ، وقرروا في النهاية « أنهم تابوا ورجعوا والتزموا بما شرطه العلماء عليهم » (١) .

وبعد هزيمة مراد بك أمام الفرنسيين في معركة إمبابه عبر النيل بعض علماء الأزهر إلى الجيزة حيث يقيم نابليون ، واتفقوا معه على شروط الصلح ، وبعد دخول نابليون القاهرة بيوم واحد ، وفي ٢٥ يوليو سنة ١٧٩٨ ، صدر قرار بتشكيل ديوان وطفى لمدينة القاهرة ، كان أعضاؤه التسعة كلهم من المشايخ . وعندما تولى محمد علي حكم مصر كان في ذلك مديناً للزعامة الشعبية التي كَوّن العلماء والمشايخ ناصيتها ، وقام السيد عمر مكرم نقيب الأشراف والشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الأزهر وألپساه للكرك والقفطان ، وهما من شارات الحكم وعلامات تولى السلطة في ذلك الوقت . ومحمد علي مدين كذلك للزعامة الشعبية بالتغلب على الأخطار التي واجهته في مستهل حكمه .

جنوح بعض كبار العلماء عن الطريق القويم :

ولكن إذا كان المشايخ العلماء هم درع الشعب عند الحكام كما رأينا ، إلا أن الكثيرين منهم لم يكن ينسون أنفسهم ومصالحهم في كثير من الأحيان وهم وقوف بين أيدي هؤلاء الحكام نواباً عن الشعب ، كما كان بين بعضهم البعض الكثير من التعاسد :

فإذا كان الفرنسيون قد جعلوا الشيخ عبد الله الشرقاوى رئيساً للديوان والشيخ محمد المهدي أمين سره - وهما من مشايخ الأزهر - فإن هناك من يشير إلى أن احتلالهما لهذه المنزلة إنما لأنهما كانا من صنف المشايخ الذي كان أولى به الزهد في الدنيا وزخارفها من أن يكون شرهاً في حب المال

(١) عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ج ٢ ص ٢٥٨ .



والتعلق بمظاهر الحياة الثمينة<sup>(١)</sup>. قال الجبرتي عن الشيخ الشرقاوى ، في وفيات سنة ١٢٢٧ هـ : « فلما حضرت فرنساوية جعلوا المترجم رئيس الديوان ، فانتفع في أيامهم بما يتحصل إليه من المعلوم والمربوب له عن ذلك ، وقضايا وشفاعات ببعض الأجناد المصرية ، وجعالات واستيلاء على تركات وودائع خرجت أربابها في زمن الفرنسيين وهلكوا ، وانسعت عليه الدنيا وزاد طمعه فيها وكبر عمامته . وزوجته بنت الزعفراني هي التي قدبر أمره ، وتحرز كل ما يأتيه ويجمعه ، ولا يروح ولا يغدو إلا عن مشورتها ، واشترت العقارات والحمامات والخوانيس » . وكما رحب الشيخ الشرقاوى بنابليون في مصر ، وكان يلقبه « بسلطاننا بونابرتة أمير الجيوش ذي العدل والإحسان والإصلاح والخير للرعية والممنة الحمدي » . نجده يرحب بالوزير يوسف باشا الذي وصل إلى مصر بعد توقيع الصلح مع الفرنسيين ويلقبه « بالصدر الأعظم والوزير الأفخم والدستور الأكرم ببلغه الله من المرات ما شاء » . ومن الحدير بالذكر أن الشيخين الشرقاوى والمهدي كانا يختصان بتوقيع منشورات نابليون وبلاغاته للمصريين ، كما أن الشرقاوى كان أول من استقبل الأتراك عند رجوعهم إلى مصر ، وألف كتيباً بناءً على طلبهم سماه « تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين » .

أما عن الشيخ محمد المهدي فقد قال فيه الجبرتي ، في وفيات سنة ١٢٣٠ هـ ، إنه كان هو المشار إليه في دولة الفرنسيين مدة إقامتهم في مصر ، والواسطة بينهم وبين الناس في قضاياهم وحوائجهم ، وأوامره نافذة عند ولاية أعمالهم ، وراج أمره في أيامهم وزاد إيراده وجمعه ، وأقاموه وكيلاً عنهم في أشياء كثيرة وبلاد وقرى يجبي خراجها إليهم ، ويأتيه الفلاحون بالهدايا فيفعل بهم ما كان يفعله أرباب الالتزامات من

(١) أحمد حافظ عوض : فتح مصر الحديث ، أو نابليون بونابرت في مصر ،

الحبس والضرب وأخذ المصالح ، وصار له أعوان وخدم وتبع من وجهاء الناس : ومن بين ما قاله الجبرقي عنه : إنه اشترى داراً كبيرة بناحية الموسيقى ، وكانت لبعض عتقى بقايا الأمراء الأقدمين ، ولم يدفع من ثمنها إلا العربون ، وكتب الحجة وسكنها ، وماطل في دفع ثمنها كمادته في دفع الحقوق ، وغاب خمس سنوات متقلاً في البلاد حتى مات في غيبته بعض أصحاب الدار . وكان كلما وجد امرأة من نساء البكوات المماليك ذات يسار وبغير زوج يقترن بها ويسقط مالها ونوالها في بئر عميق : وترك المال الكثير والعقارات الواسعة والأطيان الشاسعة لأولاده وأولاد أولاده .

ومما يعطينا فكرة واضحة عن مصانعة المشايخ العلماء لنابليون ، وما يدل على الغفلة وعلى التهاون في المحافظة على كرامة العلم والعلماء ، وعلى الابتعاد كل البعد عن الغيرة على الإسلام ، نزولهم عند الرأى القائل باعتراف نابليون لدين الإسلام ، بل والدعاية له ، « . . . » وأنه ( أى نابليون ) يحب دين الإسلام ، ويعظم النبي عليه السلام ، ويحترم القرآن ، ويقرأ فيه بإتقان . . . . وعرفنا أن مراده ( أن ) يبني مسجداً عظيماً بمصر لا نظير له في الأقطار ، وأنه يدخل في دين النبي المختار ، عليه أفضل الصلاة وأتم السلام « (١) . وهذا هو بعض ما تضمنه مآشور المشايخ الصادر بعد عودة نابليون من حملته على سورية .

وفي صبيحة وصول السيد عمر مكرم من غزة إلى القاهرة ، وكان قد ارتحل إلى غزة عند دخول نابليون القاهرة ، ذهب إلى نابليون وصحبه في هذه المقابلة الشيخ محمد المهدي أمين سرّ الديوان . ويرى بعض الباحثين بحق أن هذه المصاحبة لم تأت عفواً ، بل إن عمر مكرم لم يذهب إلى

( ١ ) أحد حافظ عرض : المصدر السابق ص ٢٢٢ .

وانظر في نفس المصدر : بحث في رواية إسلام نابليون ص ١١٩ - ١٢٦ .



بونابرت من تلقاء نفسه ، بل دُعى إلى المقابلة عن قصد وأنها كانت تدبيراً مبيتاً بين الفرنسيين وبين الشيخ المهدي ، لأن ماضي الشيخ يدل على أنه كان أكثر العلماء تقرباً للفرنسيين وصاحب حظوة كبيرة لديهم<sup>(١)</sup> ، وقد ردّ نابليون إلى عمر مكرم بعض أمواله التي سبق أن صادرها ، ولكنه لم يعينه عضواً بالديوان ولم يعده إلى منصب نقيب الأشراف الذي كان له ولا إلى الأوقاف التي كان يتولى نظارتها .

وفي ثورة القاهرة الثانية ( ٢٠ مارس سنة ١٨٥٠ ) ، التي برز فيها اسم السيد عمر مكرم منذ اليوم الأول وشاركته في زعامتها أخلاط من الشعب من بينهم بعض العلماء ومشايخ الأزهر ، تكون وفد من المشايخ العلماء للتوسط في تهدئة الموقف ، وكان من بين أعضائه المشايخ : الشرقاوى والمهدي والسرسى والفيومى . وقد ارتضى الوفد شروط صالح مهينة لم يقبلها الجانب المصرى ، إذ لمّا عرض الوفد على زعماء الثورة شروط الفرنسيين أفكروا عليه قبول الوساطة على ضوئها ، « وقاموا (الانكشارية والناس) عليهم وسبوهم وشتموهم ، وضربوا الشرقاوى والسرسى ، ورموا عمائمهم ، وأسمعهم قبيح الكلام ، وصاروا يقولون : هؤلاء المشايخ ارتدوا وعملوا فرنسيس ، ومرادهم خذلان المسلمين ، وأنهم أخذوا دراهم من الفرنسيين »<sup>(٢)</sup> .

### محمد على والزعامة الشعبية :

وقد عمل محمد على على التخلص من الزعامة الشعبية بعد وصوله إلى الحكم في سنة ١٨١٥ . ومن بين العوامل التي ساعدته في بلوغ أربه التدهور

( ١ ) الدكتور عبد العزيز محمد الشناوى : عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية ص ٥٨ .

محمد فريد أبو حديد : سيرة السيد عمر مكرم ص ٦٥ .

( ٢ ) الجبرقى : ج ٣ ص ٩٩ .

الذى أصاب معظم المشايخ والعلماء ؛ فقد تجرد معظمهم من صفات الورع والتقوى ، وانصرفوا عن أمور الدين إلى الدنيا ، وهجروا مدارس العلم ، وتنافسوا على السلطان والتنظر على الأوقاف ، وأصبح اهتمامهم بنيل العطايا من الجماهير في مقابل التوسط بينها وبين السلطات الحاكمة . ويعطى الجبرتي في ذلك الوقت صورة قائمة للتدهور الذى طرأ على حياة الزعماء المشايخ علماء الأزهر والانجراف الخلقى الذى انحدروا إليه .

وفي مقدمة العوامل التى ساعدت محمد على على التخلص من الزعامة الشعبية هذا الانقسام الذى دب بين كبار المشايخ على منصب ناظر الجامع الأزهر ، وهو غير منصب شيخ الأزهر . وقد جرت العادة على عهد العثمانيين أن يكون هذا المنصب - لضخامة ما يدره من إيراد - من نصيب أحد الأمراء المماليك ، فلما ذهب المماليك بمجيء الفرنسيين ألحق هذا المنصب بمشيخة الأزهر ، وأصبح حتماً شيخ الأزهر للشيخ عبد الله الشرفاوى ، ولم يرض هذا بعض المشايخ ، فلما كانت سنة ١٨٠٥ تطلع الشيخ محمد الأمير إلى انتزاعه منه ، وانقسمت هيئة الأزهر إلى فريقين يناصر كل فريق شيخه ، وفشلت وساطة قاضى القضاة العثمانى وغيره فى تنقية الجو بين قادة الإصلاح والعلم فى البلاد .

ومن العوامل الحاسمة فى نجاح محمد على فى إقصاء الزعامة الشعبية من الميدان السياسى ، هذا الحقد الدفين الذى كان يملأ صدور المشايخ على السيد عمر مكرم بسبب التنافس الشعب حوله ، وارتفاعه إلى مركز للصدارة بين زعمائه . ومن بين أكبر هؤلاء الحاقدين من مشايخ الأزهر الشيخ محمد المهدي والشيخ محمد الدواخلى . فقد كان الشيخ المهدي من أكبر الساعين على السيد عمر كشأنه على عهد الفرنسيين ، وكان ممن أوقعوا النفور بين الباشا وبينه ، ونال بذلك أغراضه ، ومُنح النظر على أوقاف كان السيد عمر يحصل منها على أموال جمة ، وأكثر الشيخ المهدي التردد على الباشا وأكابر دولته مثلما

كان يفعل في زمن الفرنسيين ، وعُين شيخاً للجامع الأزهر أياماً قلائل :  
وفي صبيحة اليوم الذي ارتحل فيه عمر مكرم إلى منفاه بدمياط ، ذهب هذا  
الشيخ في غير استحياء إلى محمد علي\* والتمس منه المكافأة على تدبير المؤامرة ،  
ولم يكتف الشيخ بالتنظر على الأوقاف التي كانت تحت يد عمر مكرم والتي  
أنعم بها عليه محمد علي بل طلب مكافأة مالية معجّلة (١) ، أما الشيخ الدواخلي  
فقد تقرب إلى محمد علي\* ، ومارس في ظلال هذه الخطوة نفوذاً استغله في  
النّامر سراً على عمر مكرم مع الشيخ المهدي ، ولما مات الشيخ محمد السادات  
نقيب الأشراف في ذلك الوقت كانت نقابة الأشراف من نصيب  
الشيخ الدواخلي ؟

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فقد اتخذ محمد علي من المشايخ النفعيين  
أدوات مسخرة له ، فقد أمرهم بكتابة عريضة ترسل إلى الباب العالي يبرر  
فيها ما صنع بعمر مكرم ، وجاءت المذكرة حافلة بالاتهامات الباطلة التي  
قالت جهاد عمر مكرم الوطني رأساً على عقب ، ويكفي أنهم اتهموه بالخيانة ،  
إذ سهل للإنجليز احتلال مدينة الإسكندرية أثناء حماة فريزر في سنة ١٨٠٧  
مع أنه هو الذي تصدى لتنظيم المقاومة الشعبية : وإذا كان شيخاً واحداً ،  
هو الشيخ السيد أحمد الطحطاوى مفتي الحنفية ، قد رفض التوقيع على  
العريضة تمسكاً بمبادئ الأخلاق ، فإنه قد نال جزاءه من المشايخ ومحمد علي\*  
إذ لم يمض أسبوعان على ذلك الأمر حتى كان قد تم عزله من الإفتاء .

وبعد ذلك ، وبعد أن تخلص محمد علي من السيد عمر مكرم ، أخذ  
يعيث بكرامة المشايخ ، فقد كان - وقد عرف نفوسهم على حقيقةها -  
لا يحترمهم ، وكان لكل منهم دوره معه : وكان ابنه إبراهيم أيضاً يمتن

---

( ١ ) الدكتور عيد العزيز محمد الشناوى : المصدر السابق ص ٢٥٨ - ٢٥٩ .

كرامتهم ، فقد ذهب إليه المشايخ في ديسمبر سنة ١٨١٩ يهتفونه بسلامة  
العودة من الحجاز بعد انتهاء الحرب الوهابية ، ولكنه لم يقم لهم عندما أدخلوا  
عليه في ديوانه ، ولم يجهم عندما هناؤه بالسلامة ، وانشغل عنهم تماماً بالحديث  
مع شخص كان عنده ، وأخيراً قاموا منصرفين يحيط بهم الخزي والعار  
من كل جانب ،

• • •

وهكذا يتضح أن العصر الذي عاش فيه رفاعة رافع الطهطاوى في مطلع  
حياته ، إذ كان ميلاده في سنة ١٨٠١ ، كان عصرًا معظم العلماء فيه  
فارغون من العلم منصرفون عنه إلى الدنيا والسلطان والجاه ، عصرًا لا تعرف  
فيه الساطة للعلماء احتراماً ، كما كان عصر سيطرة الترك وتأصل الهيبة  
التركية ونفوذها في نفوس القوم<sup>(١)</sup> ، هذا إلى المطامع الاستعمارية في بلاد  
الشرق ؛ فمئذ أن أخفقت إنجلترا في حملة سنة ١٨٠٧ على مصر أخذت  
تترقب الفرصة لتعيد الكرة ، ومن أجل ذلك قام التناقص عليها بينها وبين  
فرنسا ، حتى تمكنت الأخيرة في سنة ١٨٥٤ من نيل امتياز حفر قناة  
السويس ، وقبل ذلك كان احتلالها للجزائر في سنة ١٨٣٠ ، هذا في الوقت  
الذي كانت فيه إنجلترا تعمل على بسط نفوذها في جنوب شبه الجزيرة العربية  
فاحتلت عدن سنة ١٨٣٩ ، ولم ينصف القرن التاسع عشر حتى كان نفوذها  
قد امتد إلى الكثير من جهات شبه الجزيرة العربية .

وهكذا كان الاستبداد الداخلى ، والتأخر والجمود الفكرى ، والغفلة  
الشاملة ، والاستعمار الخارجى - كان كل ذلك يحكى حال الشرق عندما ظهر  
إلى الوجود رفاعة الطهطاوى وشب على الأرض الطيبة .

في هذا الجو نشأ رفاعة وقُدِّر له أن يعمل ، فإذا كان من أمره ، وهذه  
الحدود تحيط به من كل جانب ؟ ، وكيف كان طريقه وسطها ؟ :

(١) راجع : مسألة القضاء الشرعى .

في : أحمد حافظ عوض - المصدر السابق ص ٣٦٢ - ٣٦٨ .



## رفاعة الطهطاوى فى مصر وفرنسا

### رفاعة الأزهرى :

ولد رفاعة الطهطاوى فى طهطا بمديرية سوهاج سنة ١٢١٦ هـ (١٨٠١ م) ، ويرجع بنسبه إلى سيدنا الحسين بن على رضى الله عنه ، ويتصل نسب أمه بالأنصار . وعند ولادته كانت العائلة تشكو عسراً ، فسار به والده إلى ( منشأة النيدة ) بالقرب من مدينة جرجا وأقاما هناك زمناً ، ثم انتقلا إلى قنا ثم إلى فرشوط ، وفى خلال ذلك كان رفاعة يحفظ القرآن ، حتى إذا عاد إلى طهطا كان قد أتم حفظه ، وهناك أخذ يتلقى مبادئ العلوم الفقهية على أحواله وهم بيت علم .

وفى سنة ١٢٣٢ هـ ( ١٨١٧ م ) ، وبعد وفاة والده ، جاء رفاعة إلى القاهرة والتحق بالأزهر ، ونزل عند خاله الشيخ فراج الأنصارى الذى كان يتولى التدريس بالأزهر ، وقد حضر عاينه شرح الرملى فى مذهب الإمام الشافعى : ومكث رفاعة بالأزهر نحو خمس سنوات طالباً متابراً مخلصاً مجتهداً فى المطالعة والدرس ، وكان يستعين على معاشه بإعطاء بعض الدروس الخصوصية : وقد اشتهر أمره فى أثناء تلمذته « حتى قبل أن كثيراً من الطلبة فى زمن حضورهم معه كانوا يرجعون إليه فى حل الغوامض ، وكان أشياخه يثقون بفهمه ، ويركضون إليه لجودة قريحته وسلامة ذوقه » : وكان يتردد فى أثناء ذلك بين حين وآخر على بلدته طهطا ، ويأتى بعض الدروس بجامع جدّه أبى القاسم ، فامتازت دروسه بمجازية كانت تحببه إلى المستمعين وترغبهم فى الاستزادة من علمه .

وعندما بلغ رفاعة الحادية والعشرين من عمره كان قد انتهى من دراسته

بالأزهر ، ولم يلبث أن اجتاز امتحاناً صعباً عندما تصدى للتدريس به ، فلم يكن للأزهر في ذلك الوقت من نظام لتعيين أساتذته غير حكم الطلاب على الأستاذ ، فإن استفادوا منه تكاثروا جمعهم واتسعت حلقته وإن ظهر عجزه انفضوا من حوله ، وقد اجتاز رفاعة هذا الاختبار بنجاح كان أكبر من سببه بكثير ، وأقبل عليه الطلاب وهو لم يزل في بدء حياته العلمية : قال صالح مجدى بك<sup>(١)</sup> في تدرسه « وكان رحمه الله حسن الإلقاء ، بحيث ينتفع بتدرسه كل من أخذ عنه ، وقد اشغل في الجامع الأزهر بتدريس كتب شتى في الحديث والمنطق والبيان والبديع والعروض وغير ذلك ، وكان درسه غاصاً بالجمع الغفير من الطلبة ، وما منهم إلا من استفاد منه ، وبرع في جميع ما أخذ عنه ، لما علمت من أنه كان حسن الأسلوب سهل التعبير ، مدققاً ، محققاً ، قادراً على الإفصاح عن المعنى الواحد بطرق مختلفة ، بحيث يفهم درسه الصغير والكبير بلا مشقة ولا تعب ، ولا كد ولا نصب » .

### رفاعة وأستاذه الشيخ حسن العطار :

ومن أثر في حياة رفاعة وتوجيهه العلمى أستاذه بالأزهر الشيخ حسن العطار ، فقد أحبه هذا الشيخ وقربه إليه ، وكان رفاعة يتردد عليه كثيراً في منزله . ومن حسن حظ رفاعة أن تتلمذ على هذا الشيخ الذى كان يسبق عصره ، فقد كان عالماً بين مشايخ الأزهر في ذلك الوقت ، امتاز بالتضلع في الأدب وفنونه والتقدم في العلوم العصرية ، وكان هذا نادراً بين علماء الأزهر ، وأقبل على كتب التاريخ والجغرافيا والأدب والرياضة والطب وغيرها مما لم يكن يدرس بالأزهر في ذلك الوقت ، وشجع تفرغاً من تلاميذه الممتازين على قراءة هذه الكتب ورغبتهم في هذه العلوم الجديدة

( ١ ) حلية الزمن : نائب خدام الوطن سعادات المرحوم رفاعة بك .

فأقبلوا عليها ، وكان رفاة من بينهم ، وفي ذلك يقول رفاة (١) : « وكان للمرحوم مشاركة في كثير من هذه العلوم حتى في العلوم الجغرافية ، فقد وجدت بخطه هوامش جلية على كتاب تقويم البلدان لإسماعيل أبي الفدا . سلطان حماة المشهور أيضاً بالملك المؤيد ، وللشيخ المذكور هوامش أيضاً وجدت بها أكثر التواريخ وعلى طبقات الأطباء وغيرها ، وكان يطالع دائماً على الكتب المعربة من تواريخ وغيرها ، وكان له ولوع شديد بسائر المعارف البشرية مع غاية الديانة والصيانة ، وله بعض تأليف في الطب وغيره زيادة عن تأليفه المشهورة » .

وعندما نزلت الحملة الفرنسية بمصر اتصل الشيخ حسن ببعض علمائها ، وعرف طريقه إلى دار المجمع وأخذ عن علمائه بعض علومهم ، وكان الشيخ حسن الظن ببلده ، برجوله الرفعة والتقدم ويتوقع أن نصيبه نهضة علمية إذا هو أخذ سهيل أوربا في العلم . وأخيراً ، إن ما وسع من أفق الشيخ أنه كان - كما يقول تلميذه رفاة (٢) « مولعاً بسماع عجائب الأخبار ، والاطلاع على غرائب الأمصار » ، ومن أجل ذلك سافر براً وبحراً ، وساح في الأرض ، وزار الشام وأقام في استانبول سنوات ، فاستفاد من هذه الأسفار فوائد جمة :

### رفاعة المبعوث إلى فرنسا :

بقي رفاة عامين يلقي دروسه في الأزهر ، كان أستاذه أثناءها يشمله برعايته وحسن توجيهه ؟ وفي سنة ١٢٤٠ هـ ( ١٨٢٤ م ) رشحه أستاذه واعظاً وإماماً لإحدى فرق الجيش الجديد الذي بناه محمد علي ، ولا بد أن اتصال رفاة بالحياة العسكرية قد فتح ذهنه لآفاق جديدة من الحياة

( ١ ) مناهج الأنساب المصرية في مباح الآداب المصرية ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .

( ٢ ) تخلص الإبريز في تلخيص باريز ص ٤ .

والفكر ومنزايما النظام ، وفي سنة ١٢٤٢ هـ ( ١٨٢٦ م ) أوفدت أول بعثة كبيرة إلى فرنسا (١) ، فاختاره أستاذه إماماً لها بعد أن طُلب إليه أن ينتخب من بين علماء الأزهر إماماً للبعثة يرى فيه الأهلية واللباقة ، وتقرر له مرتب ( يوزباشي ) ، وكانت الرتب العسكرية مساوية في السلك المدني ، وبالرحلة إلى فرنسا بدأ رفاعة طوراً جديداً من حياته ، فلولاها لمضت به الحياة كما مضت بغيره من علماء الأزهر ، ولولا جدّه ومثابرته لكان شأنه شأن الأئمة الثلاثة الآخرين الذين صحبوه في البعثة فلم يتجاوز أحدهم حدود وظيفته ، ومهما يكن الأمر فقد اعتُبر رفاعة دارساً بالبعثة وهو في باريس ، يعد أن تصحح مسيو جومار رئيس البعثة بضمه إليها بعد أن تأكد من استعداده وموهبته .

عندما ذهب رفاعة يودع أستاذه دعاه إلى العناية منذ اللحظة الأولى بتسجيل مشاهداته أثناء الرحلة ، ليكون ( ذلك ) نافعا في كشف القناع عن حيا هذه البقاع التي يُقال فيها : إنها عرائس الأقطار ، وليبقى دليلاً يهتدى به إلى السفر إليها طلاب الأسفار ، خصوصاً وأنه من أول الزمن إلى الآن لم يظهر باللغة العربية — على حسب ظني ( أي ظن الشيخ العطار ) — شيء في تاريخ مدينة باريس ، كرسى مملكة الفرنسيين ، ولا في تعريف أحوالها وأحوال أهلها ، وهذا ما بدأ فيه رفاعة فعلاً ، ثم غادر الإسكندرية ، وكان نتاج قلمه رحلته ( تخليص الإبريز في تلخيص باريز ) .

(١) هذه البعثة هي الثالثة في ترتيب البعثات المصرية في الواقع ، ولكنها كانت حتى وقتها أكبر البعثات من ناحية عدد المبعوثين . فقد أرسلت البعثة الأولى سنة ١٨١٣ إلى إيطاليا ولا يعرف عدد طلبتها ، كما لم يعرف من أشخاصهم سوى واحد فقط . وأرسلت البعثة الثانية سنة ١٨١٨ إلى فرنسا ، ولم يعرف من طلبتها غير واحد أيضاً . أما البعثة التي كان رفاعة أحد طلبتها فقد كان عدد الطلبة بها أول ما أرسلت اثنين وأربعين طالباً ثم لحق بهم غيرهم : الأمير عمر طوسون : البعثات العلمية في عهد محمد علي ثم في عهد عباس الأول وصديقه ١٠ - ١٢ .

## رفاعة \* باريس :

في اليوم الرابع والعشرين من شهر أبريل ١٨٢٦ أبحرت السفينة من الإسكندرية تحمل رفاعة وزملاءه إلى فرنسا ، وفي اليوم السادس عشر من شهر مايو وصلت السفينة إلى مرسيليا ، ومن مرسيليا انتقل أفراد البعثة إلى باريس ، وقد أمضى رفاعة وكل زملائه نحو ستة مقبمين في منزل واحد ومتركين معاً في دراسة مواد واحدة ، ثم تم توزيعهم بعد ذلك على مكاتب مع أولاد الفرنسيين أو عند معلمين خصوصيين ، وكانت أجازتهم في أيام الآحاد وبعد ظهر أيام الخميس وفي الأعياد الفرنسية ، وكان رفاعة أكثر الطلبة انهماكاً في الدرس ، أكب على العلوم يغترف من مناهلها ، وكان يشتري من ماله الخاص كتباً جديدة غير الكتب التي تشتري له على حساب البعثة ، بل لقد اتخذ لنفسه معلماً خاصاً على نفقته أكثر من ستة حتى أتم تعلم اللغة الفرنسية في ثلاث سنوات . ولقد أضعف السهر عينه اليسرى ، ونصححه الطبيب بالكف عن المطالعة ليلاً ، ولكنه لم ينفذ النصيحة « الخوف من عويق تقدمه (١) » .

كانت قراءات رفاعة في باريس مع أساتذته وبمفرده في مختلف العلوم ، وإن كان ميله أكثر إلى التاريخ والجغرافيا ، فكانت ثقافته موسوعية ، وقد عدد رفاعة في كتاب رحلته العلوم والفنون التي قرأ فيها ، وعين الكتب التي طالعها والتي ترجمها أو بدأ في ترجمتها وهو في باريس ، فوجدته قد قرأ في الفلسفة والآداب الفرنسية ، وقرأ مؤلفات فولتير ومونتسكيو وجان جاك روسو وراسين ، بل لقد تناولت قراءاته إلى علم المعادن وفن العسكرية والرياضيات وغير ذلك كثير . ونجده قد ترجم وهو في باريس نحو اثنتي



عشرة رسالة ، معظمها رسالات صغيرة أو فصول من كتب كبيرة ، في نواح شتى من العلوم والفنون : في التاريخ والجغرافيا والسياسة والأخلاق والفنون العسكرية والهندسة وعلم المعادن وعلم الصحة .

وقد أفاد رفاة أكبر فائدة من أساتذته ، وممن تعرف بهم وهو في باريس ، وعلى رأسهم مدير البعثة العالم المسيو جومار الذى ساعده مساعدات بحة في هذه البلاد ، وتعهده أيما تعهد بالتوجيه والإرشاد ، كما اتصل رفاة بالعالمين المستشرقين البارون سلفستردى سامى وكوسان دى برسيغال .

قضى رفاة سنة في باريس عُمِد بعدها له ولزملائه امتحان اجتازه رفاة بتفوق ، وبعد مسنة أخرى كان هناك امتحان آخر اجتازه رفاة كذلك ، بل لقد نال في الامتحانين جائزة التفوق ، وكانت الجائزة في الامتحان الأول كتاباً ثميناً ، وفي الامتحان الثانى كتابين للمستشرق دى سامى . وبعد ثلاث سنوات أخرى عُمِد لرفاة الامتحان النهائى أمام لجنة كوئنها مدير البعثة لهذا الغرض « لمعرفة قوة التفقى فى صناعة الترجمة التى اشتغلت بها مدة مكثى فى فرنسا (١) ، فتقدم إلى الامتحان بخلاصة جهوده فى الترجمة ، وكانت تضم الاثنى عشرة رسالة التى سبقت الإشارة إليها ، علاوة على مخطوطة الرحنة ، فقد كانت فيها أجزاء كثيرة مترجمة فى نواحى العلوم المختلفة ، وكذلك بعض الأشعار الفرنسية . كما لجأت اللجنة لاختباره شفويا إلى بعض الكتب العربية المطبوعة فى مطبعة بولاق وكذلك نسخة من جريدة ( الوقائع المصرية ) ، وطلبت منه نقل بعض الفقرات بها إلى الفرنسية . وقد وُفق رفاة فى الامتحان ، وإن كانت اللجنة قد أخذت عليه أنه « ربما أحوجه اصطلاح اللغة العربية أن يضع مجازاً بديل مجاز آخر ، من غير خال فى المعنى المراد » ،

وأنه ليست هناك مطابقة تامة في بعض الأحيان بين المترجم والمترجم عنه ،  
وأنه ربما كرر ، وربما ترجم الجملة بحمل والكلمة بجملة (١) .

### تلخيص الإبريز في تلخيص باريز :

رجع رفاعة من باريس ، وفي يده إجازة الترجمة ، وفي يده الأخرى  
ترجمانه و ( تلخيص الإبريز في تلخيص باريز أو الدبوان النفيس بإيوان  
باريس ) الذي قصد به تعريف الناس بباريس وأحوال أهلها ، « وليبقى  
دليلاً يهتدى به إلى السفر إليها طلاب الأسفار » ، ولتحقق رغبة أستاذه  
حسن العطار في تقييد كل ما رآه وسمعه هناك ، وكان المستشرقان العالمان  
البارون سلفستر دى سامى وكوسمان دى برسيغال قد طالعا مخطوطة الرحلة  
ورفاعة لا يزال في باريس فأعجبا بها ، وأرسل كل منهما إلى مدير البعثة  
خطاباً فيه الثناء والتقدير لرفاعة ومخطوطته ، وقد تضمن كتاب الرحلة بعض  
الرسائل التي تبودلت بينه وبينهما ، ومما يذكر أن دى سامى بعد مطالعة  
المخطوطة ردّ على ملاحظة أبدأها رفاعة خاصة بأن الفرنسيين لا يعيئون  
بالدين ، كما أنه طلب من رفاعة لإصلاح أخطاء اللغة والنحو في المخطوطة .

وعندما طولعت مخطوطة الرحلة على محمد على حازت إعجابه ، وأمر  
بطبعها وقراءتها في قصوره وتوزيعها على الدواوين والمواظبة على تلاوتها  
والانتفاع بها في المدارس المصرية ، وقد طبع الكتاب في مطبعة بولاق سنة  
١٨٣٤ ، ثم طبع مرة ثانية سنة ١٨٤٨ .

وصف رفاعة في ( تلخيص الإبريز ) هذه الفترة من حياته التي أمضاها  
في باريس ، وسجل فيه مشاهداته لإبان الرحلة ، فوصف الحياة الاجتماعية

في البلاد وصفاً شائعاً بديعاً ، قدح في الفرنسيين نظافة بيوتهم وتحدث عن  
التقاليد المتبعة في الطعام والشراب والمنام ، وأعجب بفن التمثيل ومشاركة  
النساء فيه ، وحفلات الرقص والموسيقى ، ولم يفته أن يصف لنا ( الكرنفال ) ،  
وتحدث عن وسائل المواصلات والبريد والصحافة والمكتبات والمصارف ،  
كما رسم صوراً لمعاصمة البلاد أوضح فيها الكثير من أحوالها .

ولكن لما كان رفاعة في الواقع لم ير غير باريس ومارسليا التي نزل بها  
عند أول وصوله إلى أرض فرنسا ؛ وذلك لضيق وقته الذي صرفه عن  
التجوال في فرنسا ، فقد ظلت رؤياه قاصرة عن الإلمام بحياة الفرنسيين ،  
وظل هو نفسه على ما يُظن بعيداً عن الاندماج في الحياة الباريسية . ومن  
هنا كانت نظراته بعيدة عن العمق ، ومشاهداته أقرب إلى التعميم منها إلى  
التخصيص ، فيصف ما يقع عليه بصره وما يصادفه من سلوك عام وكأنه  
يضع دليلاً للسياحة ، مغفلاً عن التحدث عن مشاعره وإحساساته إلا من  
خطرات عابرة يصل فيها بين ما يرى من تقدم في باريس وبين ما تعانيه  
بلاد الإسلام من تخلف يعتذر عنه بسبق المسلمين في ميدان الحضارة ، فإذا  
عرض لمصر أشاد بفضل الوالي : وتكتمل صورة الكتاب بما يحوى من  
قراءات ومعارف أدركها رفاعة في الأزهر فيستشهد بأحداث التاريخ الإسلامي  
ومأثور الشعر السائد في عصره ، وقراءات ومعارف قرأها واطلع عليها في  
باريس ، فيستعرض ما عرفه من تاريخ الأمم الأوروبية وعاداتها ونظم الحكم  
الفرنسي يزيدها إيضاحاً بما يترجمه منها . وبالجمل لا يفوت رفاعة في سائر  
فصول الكتاب أن يتناول ألواناً من المعارف قد تبدو غريبة على منهج الكتاب  
وغايبته ، ولكنه يرى فيها فائدة تعود على قومه بالنفع كإدراجه « نبذة من  
فن قانون الصحة وتدبير البدن » حتى تتم فائدة الرحلة (١) .

(١) راجع - الدكتور حسين فوزي النجار : رفاعة الطهطاوى ص ٧٣ - ٧٥ ، ٩٨ .

تحدث رفاة في (تخليص الإبريز) عن عالم الفرنسيين ووقف عنده  
طويلاً ، فباريس عنده بما فيها من حكمة وعلم « من أحكم بلاد الدنيا وديار  
العلوم البرائية » ، وإن يكن قد وجد في بعض العلوم ما شذَّ عن تفكيره  
كالتخصص الشديد في بعض علوم السوق كالطباعة والفلسفة التي يراها  
ضلالات .

وقف رفاة طويلاً في (تخليص الإبريز) عند المرأة الفرنسية ، وأبدى  
لإعجابها الصريح بها ، ولكنه أنكر عليها ما يلتقي مع الدين والأخلاق العامة .  
فإذا كان يعجب بسفورها إلا أنه ينكر عليها تبرُّجها وخلاعة ملبسها ،  
وكشفها عما يجب في نظره أن يُستر ، وإذا كان الحزام الذي ترتديه يستوقفه  
فيفيض في الغزل في الحصر النحيل ، إلا أن ذلك لم يمنعه من الإشارة إلى  
ما وراء استخدام هذا الحزام من حيل « فهن يشبكن بالحزام قضيباً من  
الاصفيح ، من البطن إلى آخر الصدر ، حتى يكون قوامهن دائماً معتدلاً »  
لا عوجاج به ، وينكر رفاة أشد الإنكار على الزوجات في العائلات الكبيرة  
والصغيرة فجورهن ، بينما هن في الطبقة المتوسطة ثقيات شريعات ، ويعجبه  
في المرأة الفرنسية علم إرخاء شعرها ، ومشاركتها الرجل في ميدان العمل ،  
وسفرها بمفردها ، ولكنه لا يرضى بأن يكون الرجال « عندهم عبيد النساء  
وتحت أمرهن سواء أكن جميلات أم لا ، قال بعضهم : إن النساء عند  
الحمل معدات للذبح ، وعند بلاد الشرق كأمتعة البيوت ، وعند الإفرنج  
كالصغار المدللين » (١) ، وهو يثنى على ربة البيت المهذبة ، فهي « التي  
تحي الضيوف ، أصالة ، وزوجها يحبهم بالتبعية » ، ويعرف للمرأة  
في المجتمع الفرنسي منزلتها وفضلها على الأدب : « فإن للنساء تأليف  
عظيمة ، ومنهن مترجمات للكتب من لغة إلى أخرى ، مع حسن العبارة

وسببها وجودتها ، ومنهن من يُتمثل بإنشائها ومراسلاتها : « وأخيراً ،  
فقد لاحظ رفاة من الطباع العربية الأصيلة أن الفرنسيين لا يغشون الغلمان  
ولا يتغزلون فيهم (١) »

ضمن رفاة رحلته الحديث عن نظام الحكم في فرنسا ، وكان ذلك  
طبيعياً ، فقد درس هذا الموضوع في أثناء إقامته في باريس ، وعرب في  
كتاب رحلته دستور سنة ١٨١٤ الذي ظل معمولاً به حتى سنة ١٨٣٠ ،  
وما تضمنه من نظام المجلسين واختيار أعضائهما وحقوق الأمة أفراداً  
وجماعات ، ثم تحدث عن تعديل الدستور الذي أعقب ثورة سنة ١٨٣٠ ،  
وفصل الكلام عن تلك الثورة التي شهداها وهو في باريس ، ويتضح حديثه  
عنها بالعطف على القائمين بها ، ومن حديث رفاة عن دستور سنة ١٨١٤  
« إن ملك فرنسا ليس مطلق التصرف ، وأن السياسة الفرنسية هي  
قانون مقيد بحيث أن الحاكم هو الملك بشرط أن يعمل بما هو مذكور في  
القوانين التي يرضى بها أهل الدواوين ( البرلمان ) ، وأن ديوان البير ( يعني  
مجلس الشيوخ ) يمانع عن الملك ، وديوان رسل العملات ( يعني مجلس  
النواب ) يحامي عن الرعية ، والقانون الذي يمشى عليه الفرنسيون الآن  
( سنة ١٨٢٧ ) ويتخلونه أساساً لسياساتهم هو القانون الذي ألفه لهم  
ملكهم لويز الثامن عشر ، ولا زال متبعاً عندهم ومرضياً لهم ، وفيه أمور  
لا ينكر ذوو العقول أنها من باب العدل (٢) »

ومن تعليق رفاة على المادة الخامسة عشرة من الدستور ( التي تنص على  
أن السلطة يتولاها الملك ومجلسا النواب والشيوخ ) : « ، ، ، ، وحينما كانت رسل

---

(١) راجع - الدكتورة سحر القماوى : المرأة في مؤلفات رفاة الطباطبائي

ص ٤٧ - ٨٩ من : مهرجان رفاة الطباطبائي .

(٢) تخلص الإبريز ص ٢٢ .



العمالات (يعنى مجلس النواب) قائمة مقام الرعية ومتكاملة على لسانها كانت الرعية كأنها حاكمة نفسها ، وعلى كل إحال فإنها مانعة للظلم عن نفسها بنفسها ، وهى آمنة بالكلية . ومما قاله رفاة تعاقباً على المادة الأولى وبرهاناً على أن سائر الفرنسيين متساوون أمام القانون « أن الدعوى الشرعية تُقام على الملك ، وينفذ عليه الحكم كغيره . . . . . وهى من الأدلة الواضحة على وصول العدل عندهم إلى درجة عالية وتقدمهم فى الآداب الحضارية » (١) . وفى مسألة المساواة فى الضرائب ، وهى موضوع المادة الثانية من الدستور ، يقرر رفاة أنه طوال مدة إقامته فى باريس لم يسمع أحداً يشكو من المكوس والفيرد (٢) والجبايات أبداً ، « وأن الفيرد ونحوها لو كانت مرتبة فى بلاد الإسلام كما هى فى تلك البلاد لطابت النفس » . وامتدح رفاة المادة الثامنة الخاصة بحرية الرأى والنشر ، وامتدح الصحافة ، وهو يسمي الصحف ( الورقات اليومية المسماة بالجرنالات والكازيطات ) . وأحكام المادة التاسعة الخاصة بحرية الأملاك عنده « واجبة لضبط جور الأقوياء على الضعاف » . وقد ظل رفاة بعد عودته إلى مصر متأثراً بالتعاليم الدستورية التى تلقاها فى باريس ، ويكفى دليلاً على ذلك أنه عدّ أكبر عمل للخبير إسماعيل إنشاءه مجلس شورى النواب سنة ١٨٦٦ (٣) .

لقد كان رفاة معجباً بما رأى وطالع فى باريس ، وكان يتمنى فى كل عبارة فى ( تخليص الإبريز ) أن ينتقل إلى ضفاف النيل ما أعجبه على ضفاف ( السين ) : ومن ذلك — مثلاً — أنه كان يرى لكل إنسان فى باريس خزائنه كتب على قدر حاله ، فيتمنى أن يرى مثل ذلك فى مصر ، وأنه كان يرى اتجاه الفرنسيين نحو الاقتصاد فينفق الإسراف عندنا .

( ١ ) تخليص الإبريز ص ٨٠ .

( ٢ ) الفرد جمع فردة ، وهى الضريبة .

( ٣ ) رفاة الطهطاوى : مناهج الألباب ص ٣٢٣ .

وأخيراً ، يجب أن نقرر أن رفاعة بعد عودته إلى وطنه لم يكن قد تغير فيه السلوك ولا الأخلاق ، وإنما كان الذي تغير فيه هو عقله وتفكيره . فلو لا الرحلة لكان يمكن أن يكون اتجاهه العلمي في التفكير والتأليف كاتجاه غيره من علماء الأزهر ، فيؤلف متناً أو شرحاً أو حاشية ، ولكن سنوات باريس الخمس فتحت أمامه أبواب العلم على مصراعها : فنهل منه على قدر ما تطبق نفسه ، وأمعن في أثنائها النظر في أحوال الشعوب الأوروبية وأسباب نهضتها ، ويظهر أثر ذلك واضحاً في كتاباته التي ألفها فيما بعد .

### رفاعة المترجم :

ما إن رجع رفاعة إلى مصر حتى بدأ في إخلاص وإيثار عظيمين يرد لوطنه الغالي بعض دينه عليه ، ولبثت الدولة تنقله من عمل إلى عمل تريد أن تستفيد به في كل الأعمال . ولكن أخطر أثر للرحلة يبدو في اتجاه رفاعة إلى الترجمة ، فقد عرف وهو في باريس أهمية نقل علوم الغرب إلى العربية ، وكان نتاجها الأول في نفسه وعقله تأكده من أن النهضة العلمية في مصر في حاجة ملحة إلى أن يكون هذا النقل من أسسها ، وكالت جهود رفاعة في الترجمة - في الواقع - هي اتصال لما بدأه في باريس ، فقد ترجم بنفسه أو تلاميذه تحت إشرافه عدداً كبيراً من الكتب التي عرفها وطالعها في أثناء البعثة .

وكان أول عمل لرفاعة بعد العودة عمله مترجماً في مدرسة الطب ، وكان معظم عمله في السنتين اللتين قضاهما في تلك المدرسة مراجعة الكتب التي ترجمها غيره ، وقد برز في ذلك الأمر زملاؤه السوريون ، وإلى جانب هذا العمل فقد أنيط إليه الإشراف على المدرسة التجهيزية للطب التي غرقت بمدرسة ( المارستان ) ، وكانت تعد الطلاب للالتحاق بمدرسة الطب ومدة الدراسة

بها ثلاث سنوات . وقد طبع له في ذلك الوقت ( سنة ١٢٤٨ هـ = ١٨٣٢ -  
١٨٣٣ م ) كتاب ( المعادن النافعة ) تأليف فزارد ، وكان قد ترجمه وهو  
في باريس . وفي السنة التالية طبع له كتاب آخر كان قد ترجمه وهو في  
باريس كذلك ، وهو ( قلائد المفاتيح في غريب عوائد الأوائل والأواخر )  
تأليف ديهنج ، ويقال إنه ترجم خلال تلك الفترة كذلك رسالة في الطب ، أ  
ولكنه - في الواقع - لم يتم بغير مراجعة كتاب في الطب البيطري هو  
( التوضيح لألفاظ التشرح في الطب البيطري ) الذي ترجمه يوسف فرعون ،  
هذا علاوة على ما هو معروف من ترجمته لرسالة صغيرة في الطب ضمنها  
كتاب رحلته .

ثم انتقل رفاعة إلى مدرسة الطوبجية بطره ، وهناك قام بترجمة بعض  
الكتب في الهندسة وفي الجغرافيا ، ومن هذه الكتب في الجغرافيا كتاب  
( التعريفات الشافية لمريد الجغرافية ) وقد طبع في سنة ١٢٥٠ هـ ( ١٨٣٤ -  
١٨٣٥ م ) ، وهو يضم عدة موضوعات في هذا العلم مترجمة عن اللغة  
الفرنسية من كتب مختلفة ، وهي عبارة عن أصول دروسه التي كان يلقيها  
على تلاميذه الذين يدرسون مادة الجغرافيا بفصل مخصوص ملحق بمدرسة  
الطوبجية . وفي هذه السنة أيضاً أكمل رفاعة ترجمة المجلد الأول من  
( جغرافية ملطرون ) ، وكان قد بدأ في ترجمته وهو في باريس وترجم  
منه صفحات هناك ، وقد أكمل هذه الترجمة في نحو ستة شهور أمضاها في  
بلدته طهطا حين ظهر مرض الطاعون في مصر .

وفي سنة ١٨٣٥ افتتحت مدرسة الألسن ، وتولّى رفاعة نظارتها ، وقام  
بنفسه باختيار تلامذتها من مكاتب الأقاليم ، وكان يشترط أن يكون التلميذ  
صحيح البنية ، عارفاً للقراءة والكتابة ، وسنه بين الرابعة عشرة والثامنة عشرة ،  
وكانت مدة الدراسة بالمدرسة خمس سنوات قد تطول إلى ست ، وكانت

علوم التاريخ والجغرافيا والهندسة والبحر واللغات العربية والفرنسية والإيطالية  
والفارسية والتركية تدرس بها ، وإن لقيت اللغة الأخيرة اهتماماً ضئيلاً ،  
وقد بدأت المدرسة بخمسين تلميذاً ، وزاد العدد في بعض السنين إلى مائة  
وخمسين ، وكان على المدرسة إلى جانب إعداد المترجمين أن تيسر المدارس  
الخصوصية بحاجتها من التلاميذ العارفين بالفرنسية ، حتى إذا تخرجوا منها  
كانوا قادرين على ترجمة الكتب في العلوم المختلفة ، إلا أن المدرسة مضت في  
تفريج طبقة من المترجمين غير القادرين على ترجمة المواد العلمية والرياضية ،  
وإن كانوا قادرين على ترجمة العلوم الإنسانية والاجتماعية ، فرُئي إعادة  
المدرسة التجهيزية - وكانت قد ألغيت - وألحق بمدرسة الألسن لإعداد  
تلاميذ للمدراس الخصوصية قادرين على الترجمة في التخصصات المختلفة ،  
وكان ذلك في سنة ١٨٤١ ، وكانت أول دفعة قد تخرجت من مدرسة  
الألسن قبل ذلك بسنتين ( ١٨٣٩ ) .

وفي سنة ١٨٤١ تم إنشاء قلم الترجمة وألحق بمدرسة الألسن ، وقد  
جاء في تقرير اللجنة التي شكلت لتنظيم التعليم في هذه السنة - والتي قررت  
إنشاء هذا القلم - أنه مما لا شك فيه ، أن الواجب يقضى بأن تكون  
الترجمات مبسطة مستوفية حقها من الصحة سليمة من الخطأ ، فلهذا  
والكون ترجمة العلوم والفنون ليست مقصورة على معرفة اللغة فحسب ،  
بل متوقفة أيضاً على الإلمام بالعلم أو الفن المترجم كتابةً ، فقد أنشأت اللجنة  
غرفة الترجمة الخاصة بالمترجمين (١) .

وكان قلم الترجمة عند أول إنشائه يضم أربعة أقسام : القسم الأول لترجمة  
العلوم الاجتماعية ، والثاني لترجمة التركية ، والثالث للعلوم الطبية والطبيعية ،

---

(١) الدكتور محمد فؤاد شكري ، عبد المقصود العناني ، سيد محمد خليل : بناء دولة

والرابع لترجمة الرياضيات : ثم ضمت لمدرسة الآسن في السنوات التالية أقسام جديدة هي : قسم دراسة الإدارة الملكية - لإعداد الموظفين اللازمين للإدارة الحكومية ( ١٨٤٤ ) ، وقسم لدراسة الإدارة الزراعية الخصوصية ( ١٨٤٦ ) ، وقسم لدراسة العلوم الفقهية لإعداد القضاة ( ١٨٤٧ ) ، كما ضمت إليها مدرسة للمحاسبة ، وهكذا كانت مدرسة الآسن وملحقاتها أشبه بجامعة للكليات النظرية : وفي سنة ١٨٤٧ أعيد تنظيم قلم الترجمة في قسمين فقط : الأول للترجمة العربية تحت إشراف رفاعه ، والثاني للترجمة التركية ويشرف عليه كيباني بك .

وقد ظل رفاعه خمسة عشر عاماً ناظراً لمدرسة الآسن ومدرسا بها ، ومشرفاً على قلم الترجمة ، ومصححاً لجميع الكتب التي ترجمها تلاميذه من خريجي المدرسة حتى وقت إلغاء المدرسة في نوفمبر سنة ١٨٤٩ ، وسفره إلى السودان بعد ذلك ، وفي ذلك يقول أحمد عبيد الطهطاوى (١) : « بعد أن رأى ( رفاعه ) في التعليم حسن حالي واجتهادي في نيل المعالي بين أمثالي اقتضى رأيه المؤيد وحزمه المعضد أن أترجم كتاباً من كتب التاريخ ، فاختار تاريخ ملوك من ملوك الإفرنج تعاونته بينهم على المرنج ، وهو تاريخ بطرس الأكبر الذي فضله على ممالك أوروبا أشهر من أن يذكر ، فأخذت أمره بالطاعة والانقياد ، وشمرت عن ساعد الجهد والاجتهاد ، وشرعت في نقله من الفرنسية إلى العربية ، مع إعانتته لي في حل مشكلاته وما عسر علي من غوامضه ومعضلاته . . . » .

وغير ذلك كان المترجمون من أعضاء البعثات في المدارس الخصوصية غير مدرسة الآسن يلجئون إلى رفاعه لمراجعة ما يترجمون من كتب .

---

(١) في مقدمة الترجمة العربية للكتاب : الروض الأزهر في تاريخ بطرس الأكبر مؤلفه .



وفي سنة ١٨٤٧ أتم رفاعة ترجمة مجلد آخر من جغرافية ملطبرون وهو المجلد الثالث ، وأنعم عليه برتبة أمير آلاى مكافأة له على هذا العمل الكبير ، وفي أثناء وجود رفاعة في السودان ( ١٨٥٠ - ١٨٥٤ ) لم ينس العمل الذى أحبه - وهو الترجمة - فترجم هناك ( مواقع الأفلاك في وقائع تليماك ) .

وبعد رجوع رفاعة من السودان استمر في إشرافه على الترجمة في البلاد ، ومن ذلك قيامه مع بعض تلاميذه بترجمة مجموعة القوانين الفرنسية ، ذلك أن الحكومة عندما فكرت في إصلاح النظام القضائى في عهد إسماعيل استعانت في ذلك بالقانون الفرنسى المعروف ( بقانون نابليون ) ( Code Napoleon ) ، فقام رفاعة وتلاميذه بما لهم من إلمام بأسرار اللغتين العربية والفرنسية بترجمة هذا القانون بنواحيه المختلفة : القانون المدنى ، وقانون تحقيق الجنايات ، وقانون العقوبات ، وقانون المرافعات ، وهى القوانين التى بُنى على أساسها نظامنا القضائى الحديث .

ولقد عدد رفاعة في إحدى قصائده أشهر مترجماته ، فقال فيها :

|                        |                          |
|------------------------|--------------------------|
| على عدد النواتر معربا  | تنبى هفنون سلم أو جهاد   |
| وملطبرون يشهد وهو عدل  | ومنتسكيو يقرر بلا تمادى  |
| ومغترفو قراح فرات درمى | قد اقترحوا سقاية كل صادى |
| ولاح لسان باريس كشمس   | بقاهرة المعز على عمادى   |

ومن هذه الأبيات يظهر أن رفاعة قد ترجم عن ( مونتيكيو ) ، ولكن ما عثر عليه من مترجمات من كتب هذا الفيلسوف لا يعدو كتاب ( برهان البيان وبيان البرهان في استكمال واختلال دولة الرومان ) الذى ترجمه أحد تلاميذ رفاعة تحت إشرافه ، وقد تكون هناك بعض

الترجمات عن ( مونتسكيو ) لم تَرَ النور بعد : ونفس الأمر محتمل عن ( ملطبرون ) ؛ إذ المعروف أن رفاة لم يترجم عنه غير المجلدين الأول والثالث .

ومما يجدر ذكره أن بعض المترجمين والمصححين في ذلك العهد قد عنوا إلى إلحاق معاجم وقواميس صغيرة بالكتب التي نقلوها إلى العربية ، لتوضيح بعض الألفاظ الغريبة وتفسير المصطلحات العلمية كما فعل رفاة عند ترجمة كتبه : ( قلائد الفاخر ) و ( مبادئ الهندسة ) و ( التعريبات الشافية ) .

### رفاة المؤرخ :

أما عن رفاة المؤلف المؤرخ ، فقد ظهرت رغبة التأليف عند رفاة مبكرة ، إذ كان طالباً في الأزهر ، فقد نظم في ذلك الوقت أرجوزة في علم الكلام ، وأمضى حياته في التأليف ، ومعه الترجمة بالطبع ، في موسوعة من العلوم متباعدة الميادين ، وهناك مؤلفات نسبت إلى رفاة ولكن لم يُعثر عليها ، ومن ذلك ما أشار إليه صالح مجدى في ( حلية الزمن ) .

وكان لرفاة منهجه في التأليف ، ولما كان محباً للأدب بحكم نشأته الأولى في الأزهر ، وحافظاً لكثير من الشعر ومأثور القول كان كثير الاستشهاد بهما في كتابته ، كما كان يعيل إلى الاستطراد كلما دعا المقام إليه .

وإذا كان رفاة عندما كان طالباً في الأزهر قد أخذ عن أستاذه الشيخ حسن العطار ميله إلى العلوم العصرية إلا أن اهتمامه الأول كان متجهاً إلى التاريخ والجغرافيا ، واستمر شغفه بدراسة هذين العلمين في أثناء وجوده في باريس ، ونجد هذا الشغف واضحاً في قوله في خاتمة كتاب رحلته : « وإن شاء الله تعالى : . . . يصير التاريخ على اختلافه منقولاً من الفرنسية إلى العربية » .

إلى لغتنا : : فقد تكفلنا بترجمة علمي التاريخ والجغرافيا بمصر السعيدة بمشيئة الله (١) .

وكانت جهود رفاعة موجهة في النصف الأول من القرن التاسع عشر إلى ترجمة الكتب التاريخية بشكل يغطي بها تاريخ العالم بقدر الإمكان ، وإن حظى تاريخ فرنسا منه بعناية خاصة :

وأول كتاب قام تلاميذ رفاعة في مدرسة الألسن بترجمته في التاريخ هو (بداية القدماء وهداية الحكماء) ، وهو كتاب في تاريخ العالم القديم ، وبعد ذلك قام أحد تلاميذه بترجمة كتاب (قرة النفوس والعيون بسير ما توسط من القرون) ، وهو في تاريخ العصور الوسطى ، أما في تاريخ العصور الحديثة فقد كثرت الكتب ، ففي سنة ١٨٤١ تمت ترجمة وطبع (نظم اللآلئ في السلوك فيمن حكم فرنسا من الملوك) ، كما تمت ترجمة وطبع كتاب (مطالع شمس السير في وقائع كارلوس الثاني عشر) ، وهو في تاريخ مملكة السويد : وفي سنة ١٨٤٨ تمت ترجمة وطبع كتاب ثان في تاريخ فرنسا من تأليف المؤرخ الفرنسي (مونيفورس) . وفي سنة ١٨٥٠ تمت ترجمة وطبع (الروض الأزهر في تاريخ بطرس الأكبر إمبراطور الموسقو) في تاريخ روسيا .

وعندما أنشئ قلم الترجمة الجديد في سنة ١٨٦٣ بعد إلغائه أيام عباس كان رفاعة ناظراً له ، ولكن عناية رفاعة منذئذ كانت متجهة إلى التأليف في علم التاريخ أكثر من عنايته بالترجمة فيه ، فقد كان التأليف لا الترجمة هدف رفاعة في هذه المرحلة ، وكانت خطة رفاعة في التأليف التاريخي ترمي إلى إخراج مؤلف كبير من عدة أجزاء في تاريخ مصر من العصور القديمة حتى العصر الحديث : وكان (أنوار توفيق الجليل في أخبار مصر وتوثيق

بنى إسماعيل ) هو أول كتاب في هذه السلسلة ، وقد طبع في سنة ١٢٨٥ هـ ( ١٨٦٨ - ١٨٦٩ م ) ، وهو يتناول تاريخ مصر القديم منذ أقدم العصور حتى الفتح العربى . وهنا يختلف رفاة عن سائر المؤرخين المصريين في العصر الإسلامى ، فهم يبدءون تواريخهم بالفتح العربى أو ببدء الخليقة ، كما كانوا يجهلون حقائق التاريخ المصرى القديم ولا يعرفون عنه إلا خليطاً من الخرافات والأباطيل ، أما رفاة فكان أول مؤرخ مصرى يكتب هذا التاريخ طبقاً للأصول العلمية ، معتمداً في ذلك على الكشوف الأثرية والمراجع الأجنبية ، بعد أن يخضع مادتها للتجريح والنقد والفحص والمقارنة مع غيرها من المصادر . هذا علاوة على أنه كان ينظر إلى تاريخ مصر نظرة شاملة ويدرك أنه تاريخ مستمر ، ويفهم الحضارة المصرية كسلسلة متصلة الحلقات على العكس من بعض الحضارات القديمة الأخرى (١) ، وهو الأمر الذى لم يصل إلى حدوده المؤرخون المصريون السابقون له .

أما الجزء الثانى في سلسلة تاريخ مصر فقد كان ( نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز ) الذى تم طبعه في سنة ١٨٧٤ ، وهو في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد بدأ بنشره على حلقات في مجلة ( روضة المدارس ) في سنتها الثالثة ، ولكنه مات قبل أن يتم طبعه في مجلد مستقل ، وقد أشرف على هذا الأمر ابنه على فهمى ، والجديد في هذا الكتاب هو الفصل الأخير الذى أفرده رفاة للتحديث عن حكومة النبى صلى الله عليه وسلم ونظم الحكم الإسلامية بوجه عام كما وضعت في زمنه .

وبوفاة رفاة لم تكمل الأجزاء الباقية من تاريخ مصر . وغير هذين

( ١ ) الدكتور جمال الدين الشيال : التاريخ والمؤرخون في مصر في القرن التاسع عشر

الكتابين نجد موضوعات تاريخية قيمة متناثرة في كتب رفاة الأخرى ،  
وبخاصة في ( تخلص الإبريز ) و ( مناهج الألباب ) و ( المرشد الأمين ) .

### رفاعة المرنى :

ولرفاعة جهده في ميدان التربية والتعليم ، فقد كان - بشخصيته الأزهرية  
التي صقلتها الثقافة الغربية الحديثة - له أثره الواضح في إصلاح تعاليم اللغة  
العربية بالبلاد ، واختيار أساتذتها بعد إجراء الامتحانات لهم ، وتأليف  
الكتب المناسبة للتلاميذ ، فقد وضع كتاب ( التحفة المكتبية في القواعد  
والأحكام والأصول النحوية بطريقة مرضية ) بسط فيه قواعد النحو  
وخلصها من التعقيدات ليعفى التلاميذ من كتب النحو القديمة ذات الأسلوب  
العتيق ، كما وضع للمطالعة كتاب ( مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب  
العصرية ) ، وهو في الواقع تخطيط للإصلاحات الحديثة طبق فيه  
ما استخلصه في رحلته إلى فرنسا من دروس عن كل ما يساعد على  
تقدم البلاد .

وكان رفاعة يقدر مهنة التعليم والقائمين عليها ، وجعل منها رسالة آمن  
بها ونهض بها « لتحسين حال الوطن الذي حبه من شعب الإيمان » ، ودعا  
إلى أخذ الشباب بما يعرف اليوم بالتدريب العسكري ، وإلى تعليمهم  
( مبادئ العلوم الملكية السياسية ) أو ما يعرف اليوم بالتربية القومية . ونادى  
بإدخال دراسة العلوم الحديثة ، ولا سيما العلوم التجريبية ، بالأزهر وسماها  
( العلوم الحكيمة العملية ) ، وأشار إلى أنها في الأصل علوم إسلامية نقلها  
الأجانب إلى بلادهم من أصولها العربية ، فكان أسبق من الشيخ محمد عبده  
إلى هذه الدعوة .

وقد شارك رفاعة في النهوض بالتعليم الأوّل الابتدائي أكبر مشاركة ،  
فكان يطوف بالأقاليم يزور المكاتب الابتدائية ويتمخّر أفضل تلامذتها

ليأخذهم معه إلى القاهرة الالتحاق بالمدرسة التجهيزية . وقد أجابت الحكومة كثيراً من مقترحاته لرفع المستوى الصحى والغذائى لتلاميذ هذه المرحلة ، فقررت لهم أسرة ينامون عليها بعد أن كانوا يفرشون الأرض ، وأنت لهم بالخضر واللحم بعد أن كان طعامهم فى أكثر الأيام العدس والبقول ، وزادت لهم من كساوى الشتاء ، ورفعت مرتبات المعلمين تشجيعاً لهم ؛ ذلك أن رفاعة كان يقدر ضرورة نشر التعليم الابتدائى فى البلاد ، وهذه الغاية وضع أول مشروع لنشر هذا النوع من التعليم فى سنة ١٨٥٤ ، وهو المشروع الذى سيتخذ على باشا مبارك بعد ذلك أساساً لمشروعه المعروف عندما يتولى شئون المعارف - هذا المشروع الذى تضمنته لائحة رجب ١٢٨٤ هـ ، وقد استعان على مبارك فى ذلك برفاة فعينه عضواً (بقومسيون المعارف) ، وكان بمثابة المجلس الأعلى لشئون التعليم ، ثم رئيساً لمجلس تنظيم المكاتب الأهلية (١) .

وكان رفاعة يقسم مراحل التعليم إلى ثلاث مراحل : التعليم الابتدائى . وكان يرى وجوب تعميمه بين أبناء الأهالى ، والتعليم الثانوى وكان يرى وجوب نشره بين القابليين له الراغبين فيه ، والتعليم العالى وكان يرى الاقتصاد فيه لأنه معد لتكوين أرباب السياسات والرئاسات وأهل الحل والعقد فى البلاد ؛ فقد كان يعتقد اعتقاداً راسخاً فى أن التفرقة بين أفراد الأمة واجبة ، ذلك أن قوماً خلقوا للحكمة وآخرين خلقوا للمهنة ، ولا يصلح هؤلاء لهذه ولا هؤلاء لتلك (٢) .

---

( ١ ) الدكتور أحمد عزت عبد الكريم : رفاعة المربى ص ١٨٥ - ١٨٦ من :

مهرجان رفاعة رافع الطهطاوى .

( ٢ ) رفاعة الطهطاوى - المرشد الأمين للبنات والبنين ص ٥٧ .



## رفاعة والمرأة المصرية :

كان رفاعة أول ما دعا إلى النهوض بالمرأة في مصر الحديثة . ويحوى كتابه ( المرشد الأمين للبنات والبنين ) كثيراً من آرائه في المرأة ، كما يستوحى فيه النظام الديموقراطى الذى عرفه في فرنسا ويسير على نهج الكتب التى قرأها هناك - كتب روسو ، ومونتسكيو ، وبورلاماكي ، ويذكر رفاعة في مقدمة الكتاب أنه قام بتأليفه بعد أن « صدر له أمر شفاهى من ديوان المدارس بعمل كتاب في الآداب والتربية يصلح لتعليم البنين والبنات على السوية » ؛ لذلك كان على رفاعة أن يرسم في الكتاب الصورة المثلى لتربيتهم ، ولم يكن الكتاب فيما هو واضح من مادته موجهاً للبنين والبنات أنفسهم ، وإنما هو ( مرشد ) لمن يتصدى لهذه المهمة ، هو نوع من الكتب التى تكتب للأساتذة ليسترشدوا به في أداء مهمتهم (١) .

وقد يُقال أن ( للمرشد ) أثراً في فتح مدارس البنات في مصر ، والواقع أنه قبل صدور هذا الكتاب كان قد ظهر واضحاً الاتجاه إلى فتحها ، فلإن ( المرشد ) لم يطبع إلا في سنة ١٨٧٢ ، وافتتحت أول مدرسة البنات بالسيوفية بالقاهرة في سنة ١٨٧٣ ، وهى السنة التى توفى فيها رفاعة ، بعد أن بقيت فكرة تعليم البنات قاصرة لفترة طويلة على البيوت .

وهناك ما يؤخذ على رفاعة في ( المرشد ) . فبينما نجد رفاعة في ( تلخيص الإبريز ) متفتح العين والنفس يرى ويحسّ تراه في ( المرشد ) كثير السجع كثير النقل من غيره ، وفيما عدا ما كان يعتمد فيه الاستفادة بالنقل في ( تلخيص الإبريز ) كان طليقاً في ملاحظاته حراً في رسم صورته ، أما في

( ١ ) الدكتورة - مهيرو القماوى : المصدر السابق ص ٦٦ من : مهرجان رفاعة رافع الطهطاوى .

( المرشد ) فهو مقيد عجوز . وعلاوة على ذلك فلقد انتقل رفاة في ( المرشد ) إلى جو الماضي ، وما فيه من أحاديث أكثرها ضعيف السند ، وحكمة جافة وبعض معلومات من التاريخ غريبة ، ونكاد نحس أن نفس رفاة قد تفتحت إلا في فصل أو فصلين حيث يتحدث عما يجب أن يكون عليه بيت الزوجية من الوفاق بين الزوجين ؛ ونضيف إلى ذلك ، وهو ما عدته الدكتورة سهير القلماوى عيباً حقاً (١) ، أن رفاة لا يكاد يذكر تجاربه ومشاهداته في الرحلة فيما يختص بالمرأة الفرنسية في كتابه الثاني ( المرشد ) إلا نادراً : كأن يذكرها عندما يقول إن أمم أوروبا تعلم بناتها ، فيذكر فرنسا ضمن سائر الأمم ويقول إنها درجت على تعليم بناتها في أديار الرهبان . أو كأن يذكر موضوع الاختلاط فإنه يذكر هذه الظاهرة بنفس ألفاظها تقريباً التي رصدها بها في الرحلة . أما ما كان ينتظر من وقفات للمقارنة ، التي عبر عليها أو وقف عندها في رحلته ، فلا نجد شيئاً ، وكأنما مؤلف المرشد لم يذهب إلى فرنسا ولم يرصد من ملاحظات غاية في الدقة في شأن المرأة وحياتها وتربيتها ؟

ولكن هل كان رفاة بكتابته عن المرأة الفرنسية يقوم بدور المصلح يريد أن يحمل إلى زميلاتها المصرية ما يراه من وجوه الإصلاح ؟ . إن الدكتورة سهير القلماوى (٢) ترى أن الاعتقاد في هذا يميل إلى الشطط ميلاً واضحاً ، فقد كان رفاة في رحلته واصفاً معجباً ، بل واصفاً مؤدياً رسالة المبعوث الذي يريد أن يسجل انطباعات الرحلة التي ستقبل من ولى النعم بالتقدير ، ومن أهل البلد من بعده بالإعجاب أيضاً ، فقد كان رفاة يعيش في جو يذكره أبداً أن ولى النعم ينفق أموالاً طائلة على البعثة فلا بد

( ١ ) الدكتورة سهير القلماوى : المصدر السابق ص ٥٥ - ٥٦ .

( ٢ ) نفس المصدر ص ٦٤ .

من البرهنة على أن هذه الأموال لا تنفق سدى ، بالاجتهاد فى العلم أولا ، وبكتابة التقارير الوافية كل شهر ثانياً . ولم تكن الرحلة إلا من باب التقارير هذه . كل ما فى الأمر أن رفاعة أراد أن ينقل مدينة ، أما موضوع المرأة فلم يكن من الطبيعى أن يشغل رفاعة نفسه به فى هذا الوقت .

فلإذا رجعنا إلى ( المرشد ) نجد رفاعة فى دعوته إلى النهوض بالمرأة المصرية يقف عند حد تحريرها من ربة الجهل بتعليمها . والأدب هو العلم الذى يحذ رفاعة أن تتعلمه المرأة ، ويسبقه فى الأهمية الدين الذى يتشبه رفاعة بأن تعرف المرأة أموره جيداً . أما الحجاب فهو يؤمن به ويتمسك . أما اختلاطها بالرجال فهو يبيحه للضرورة فقط عندما تضطر للنزول إلى ميدان العمل كالرجال — وإن لم يأت ذكر ذلك صراحة فى ( المرشد ) ؛ فإن روح رفاعة تقصر مهنتها فى الحياة على الزوجية والأمومة ، فلذا عملت المرأة مع ذلك ، وتحت هذه الظروف ، فلا يمكن أن تتولى الإمامة والقضاء ، فهى ممنوعة منهما تماماً .

لقد كان رفاعة فى الحق أسبق من قاسم أمين فى دعوته إلى النهوض بالمرأة وتحريرها ، والطريق لم يُفتح أمام رفاعة لهذا العمل إلا بعد عصر عباس وسعيد ( ١٨٤٩ — ١٨٦٣ ) ، وهو عصر لم يكن لقضية المرأة فيه نصيب . والسنوات الخمسون أو تزيد التى تفصل بين رفاعة وقاسم أمين شاهدت أحداثاً وتطورات كبيرة فى البلاد فكرية واجتماعية ، منها : سرعة دوران المطابع على الكتب والصحف ، وإنشاء المدارس بأنواعها للبنين والبنات ، وعودة الكثير من المبعوثين من الأقطار المختلفة ، وتزايد عدد الخريجين والمتعلمين من المدارس المصرية ، وازدياد الشعور الوطنى وارتفاع حرارته ، وظهور أول مجلس لشورى النواب ، ولعان زمرة كبيرة من الزعماء والخطباء والكتاب فى السياسة والوطنية والاجتماع ، وتجمع المستنيرين

من الوطنيين في اتحادات وجمعيات وندوات : . . كل ذلك كان تمهيداً طيباً للطريق الذى اختطه قاسم لدعوته في قضية المرأة وجعلها دعوة واسعة كبرى . وفي الوقت الذى كان يقف فيه رفاعة وهو يكاد يقف وحيداً نرى قاسماً كانت تحيط به كوكبة من جلة الدعاة الكبار والمؤمنين بحرية المرأة ، من أمثال : محمد عبده وسعد زغلول وفتحى زغلول ولطفى السيد وحافظ إبراهيم وأحمد شوقي وخليل مطران . وزاد الدعوة حرارة وأكسبها حيوية ونشاطاً أنه كان هناك معارضون لها من أمثال : محمد فريد وجدى وطلعت حرب ومحمد رشيد رضا : على تفاوت في المعارضة واختلاف في أساليبها وعناصرها (١) .

### رفاعة الصحفي :

ولرفاعة جهده في ميدان الصحافة : وثبتت الدراسات المقارنة أن إقامته في فرنسا قد أفادته في هذا الميدان ، فقد أخرج جريدة ( الوقائع المصرية ) على منوال الـ *Moniteur* الفرنسية (٢) . وقد وُكل إلى رفاعة تنظيم ( الوقائع ) بعد أن صدر قرار مجلس الشورى في يناير سنة ١٨٤٢ بوضع خطة سديدة « تضمن صدور الوقائع على الوجه الأكمل كما هو الحال في الممالك الأخرى » . وقد عمل رفاعة على رفع مستوى التحرير بالجريدة ، واستعان في ذلك بالمحررين والمترجمين والمصححين الممتازين ومنهم نخبة من تلاميذه بمدرسة الألسن من أهمهم أحمد فارس الشدياق والسيد شهاب الدين ، كما عين لها المندوبين الذين يجمعون لها الأخبار في دواوين الحكومة : وكان رفاعة يمدّ الجريدة بمقالات من إنتاجه : وجعل أصول المادة باللغة العربية ثم الترجمة للغة التركية ، وليس العكس كما كان الحال قبل تعيينه رئيساً

( ١ ) الدكتور محمد محمود الدش : رفاعة الطهطاوى ص ٦٢ - من مجلة العربى عدد

٩٣ ( أغسطس ١٩٦٦ ) .

( ٢ ) الدكتور أنور لوقا : رفاعة بين القاهرة وباريس ص ١٤١ - من مهرجان

رفاعة رافع الطهطاوى .

للتحرير ، وأصبحت اللغة العربية ناحية اليمين ، واللغة التركية ناحية اليسار ، على عكس ما كان قائماً من قبل . وعنى بالأخبار المصرية وقدمها على الأخبار الخارجية . ويرجع الفضل لرفاعة في أن الموضوعات الهامة — كالحديث عن السياسة ونظم الحكم — قد أخذت طريقها إلى صفحات الجريدة بعد أن لم يكن بها غير الأخبار النافهة والعبارات المخوفاء ومديح الوالى : كما ضمن رفاعة أعداد الجريدة قطعاً أدبية أخذت من الكتب العربية القديمة : ومن الجدير بالذكر أن الجريدة شهدت على يدى رفاعة أول محاولة لكتابة المقال فى الصحافة المصرية (١) .

وفى الواقع إن هذا التغيير فى تحرير ( الوقائع ) لم يزد عن عدة أعداد عادت الجريدة بعدها إلى ما كانت عليه بعد أن أمر محمد على بذلك ، فاختفت منها المقالات السياسية والاقتصادية والأخبار الخارجية ، وعادت تنحصر فى بعض القرارات الرسمية وأخبار العزل والنصب وحفر الترع وإقامة الجسور والقناطر : وربما كان ذلك نتيجة من نتائج الأزمة المصرية سنة ١٨٤٠ التى انتهت بتحديد استقلال مصر وحرمانها من مكانتها الأولى المعروفة لها من قبل ، فأصبح من المعتذر على الحكومة المصرية أن تجيز لصحيفتها نشر أخبار أوروبا السياسية والتعليق عليها بما قد يسىء إلى أية دولة من دولها — وإن أباحت نشر أخبار تلك الدول مجردة لا رأى لها فيها . كما يمكن إرجاع هذه الردة فى تحرير الوقائع إلى إرادة الوالى الذى لا يرضى عن نشر تلك الموضوعات التى تنبه الجاهل إلى استبداد الحاكم (٢) .

وفى عهد إسماعيل قام رفاعة بالإشراف على مجلة ( روضة المدارس ) التى كان يحورها ابنه على فهمى ، وكان قد نيتف على السبعين ومع ذلك كان

---

( ١ ) الدكتور عبد اللطيف حمزة : رفاعة الصالح من ١١٢ - ١١٣ من : مهرجان رفاعة رافع الطهطاوى .

( ٢ ) الدكتور حسين فوزى النجار : المصدر السابق ص ١٢١ .

يتحف القراء بنفثات من قامه بين الحين والحين . وثبتت الدراسات المقارنة أن رفاة نشر هذه المجلة على نمط المجلتين الأوربيتين : *Journal Asiatique* و *Revue Encyclopedique* ، وكان رفاة ياتهم أعدادها التهاماً وهو في باريس<sup>(١)</sup> : وقد صدر العدد الأول من المجلة في ١٥ محرم ١٢٨٧ هـ (١٧ أبريل ١٨٧٠ م) : وكانت المجلة مجلة ثقافية علمية أدبية بعيدة عن الخوض في السياسة أو في أعمال الحكومة ، وتصدر مرتين في كل شهر للنهوض باللغة العربية ونشر المعارف الإنسانية . وكانت تضم أخبار الطلبة وامتحاناتهم ، وما يُقال في كل امتحان من الكلمات الافتتاحية والكلمات الختامية بما تتضمنه من منظومات شعرية في مدح الخديو لافتتاحه المدارس : وكانت تقسح من صفحاتها لطلاب المدارس الذين برز من بينهم أحد طلاب (مدرسة الإدارة) ، وهو الطالب إسماعيل أفندي صبرى (الشاعر إسماعيل باشا صبرى فيما بعد) . كما كانت المجلة تضم أشتات من العلوم والمعارف المختلفة على شكل ملازم اختصت كل ملزمة بكتاب قام على تأليفه أو ترجمته متخصص ، وكانت تستعين بالرسوم والصور لتوضيح ما تكتب ، مثل الأجهزة العلمية وما إلى ذلك : وهكذا تهيأ للمجلة أبرز علماء العصر والمفكرين في مصر كل منهم يصول ويجول في فنه ومجال بحثه . وقد استمر صدور المجلة ثماني سنوات قضى منها رفاة ثلاث سنوات وشهرين .

• • •

ها هو ذا رفاة في مصر وفرنسا ، أول رائد النهضة الفكرية في مصر الحديثة ، عملاقاً وبطلاً رفيع المنزلة بين أبطال النهضة : ترجمة وتأليفاً وتعليماً وتربية : لم تفتنه الحضارة الأوربية ، بل نقل أسمى ما فيها إلى العربية ، وتعنى لو أخذنا بكل أطايبها : عاش طول حياته وفياً لوطنه ودينه ، وكان أصيلاً في حبه لها . فقد كان حب الوطن عنده « من الإيمان

ومن طبع الأحرار إحرار الحنين إلى الأوطان . أما ( وطنه الخصوصي )  
طهطا ، فلإن بريق القاهرة وأضواء باريس لم تشغله يوماً من الأيام عنه ، فقد  
كان دائم الحنين إليه ، وفي ذلك يقول : « وإلى إن ألبستني المحروسة نعماء ،  
ورفعت لي بين أمثالي علماً ، وكانت أم الوطن العام ، وولية الآلاء والإنعام ،  
وأحبها حباً جماً ، لأنها ولية النعمى :

وقضيت فيها الأربعين مجاوراً كرام السجايا والبحور الطواميا .

فلا زلت أنشوق إلى وطني الخصوصي ، وأنشوف وأنطلع إلى أخباره  
السارة وأتعرف ، ولا أساوى بطهطا الخصيبة سواها في القيام بالحقوق  
ولا كرام مشواها .

ما هو ذا رفاعة في مصر وفرنسا ، فماذا كان في السودان ؟

إنها فترة شهدت إبعاده عن مسرح جدّه واجتهاده في القاهرة ؛ فلنش  
معه هذه الفترة مطالعين قصة بعثته هناك ، ولتقدم لها بالتعرف على أحوال  
السودان عند وصوله إليه ، فإنه مما لاشك فيه أنه كان لهذه الأحوال بأبعادها  
المختلفة أثرها على رفاعة وهو هناك .





رفاعة رافع الطهطاوى

فى  
السودان



## عصر رفاعة في السودان

سلطنة الفنج في السودان :

قامت سلطنة الفنج في السودان فيما بين العقد الأخير من القرن الخامس عشر والرابع الأول من القرن السادس عشر ، وكانت تمتد أيام ازدهارها إلى الجندل الثالث شمالاً ، وإلى فازوغلي على النيل الأزرق جنوباً ، وإلى ساحل البحر الأحمر شرقاً ، وإلى حدود مملكة دارفور غرباً ؛ وكانت السلطنة تتكون من مشيخات مستقلة ، لكل منها رئيس يُدعى شيخاً أو ملكاً ، يعتمد السلطان تعيينه بعد اختياره من بين أفراد عائلة خاصة هي صاحبة السلطة . وكانت السلطنة - في الواقع - ضرباً من الحلف بين هذه المشيخات والقبائل تقوم بتنظيمات الإدارة فيها في نطاق يكفل تأمين المصلحة التجارية فقط ؛ فقد كان الاهتمام جدّ كبير بالتجارة الخارجية التي كان يحتملها السلاطين والمشايخ ، والتي كان لهم - من أجل العناية بها - وكلاء في القاهرة وأسيوط وبعض المدن المصرية الأخرى . ولم تحاول السلطنة - فيما عدا ذلك - تنظيم جهاز حكومي يثبت من أركانها ، بل تركت كل شيء يكيف نفسه وفق ظروفه الخاصة ، الأمر الذي أدى إلى انشغال السلاطين بأمورهم الخاصة عن مصالح الرعية :

وقد سار السلطان بادى أبو شلوخ ( ١٧٢٥ - ١٧٦٢ ) في الحكم سيرة سيئته ، فثار عليه الجيش بقيادة الشيخ محمد أبو اللكيلك - الذي كان من جماعة الحمق - وعزله ، وكان ذلك بداية عصر الوزراء العظام الذين أصبح يبدعهم الأمر دون السلاطين . وعمل هؤلاء الوزراء على التأسيس لأنفسهم ، فلجئوا إلى مطاردة وقتل المنافسين ومن يخافون على سلطانهم ،

وقد أدى ذلك إلى انتشار الفوضى في البلاد ، وخروج المشيخات عن سلطة السلطان ، ووقوع كثير من الحروب فيها نتيجة للتنافس على السلطان. وهذا مما يوضح حالة السلاطنة في السنوات الستين الأخيرة من عمرها ، ففيما بين عزل السلطة أبو شلوخ في سنة ١٧٦٢ والفتح المصري سنة ١٨٢١ كانت السمات الواضحة في الدواة هي قصر مدد حكم السلاطين ، والحروب المستمرة بين أركان السلطة في البلاد : من الوزراء والسلاطين والمشايخ ، بل إنه في السنوات القليلة التي سبقت الفتح المصري عظم الاضطراب وامت الفوضى ، حتى لقد اختفى السلطان نفسه من ميدان الصراع ، وانحصر النضال في سبيل الاستحواذ على السلطة بين اثنين من الزعماء هما الوزير عدلان ومنافسه حسن رجب ، لكل منهما أنصار وخصوم ، مما نتج عنه ظهور أحزاب متنافرة أدى الحصار بينها إلى سفك الدماء وتفاقم الأمور .

ونتيجة لذلك حرمت البلاد من الاستقرار ، وهو الأساس الأول لاستمرار تجارتها الخارجية . وأدى هذا إلى تلمس كثير من القبائل الأمن خارج البلاد ، وقصد بعض المشايخ إلى مصر واتقوا بمحمد علي وبسطوا له حقيقة الحال في الجنوب وطلبوا منه وضع حد لهذه الحال .

### امتداد الإدارة المصرية إلى السودان :

امتدت الإدارة المصرية في السودان بعد ضمّه إلى جنوبي مدينة الخرطوم بقليل وإلى كردفان في الغرب : وبعد ذلك - وعلى عهد محمد علي - ضمّ إقليم الناكه ( كسلا ) ، وهكذا كانت حدود الإدارة المصرية طوال حكم عباس وسعيد :

أصبحت مدينة الخرطوم بعد ضم السودان إلى مصر عاصمة للإدارة التي كان على رأسها حاكم عام يلقب بالحكمدار ، وكانت مهمة الحكمدارين

الأول إتمام الضم وقمع الفتن والاضطرابات ، حتى إذا تسلم على خورشيد ( ١٨٢٦ - ١٨٣٨ ) زمام الأمور بدأ عهد الاستقرار والعمران في البلاد ، فعنى بتوطيد أركان الحكومة الجديدة وتنظيم إدارة البلاد : وكان ذلك أمراً عسيراً ؛ فقد كان عليه لكي يبلغ هذا الأمر أن يسمح عن الأهالي ما خلفته فيهم فترة ( الفتح ) من آثار عنيفة — وهو الأمر الذي أمضى فيه خورشيد السنوات الأربع الأولى من حكمه — حتى يرجعوا إلى أوطانهم بعد أن هرب الكثير منهم إلى حدود الحبشة ، وكان من وسائل ذلك سماحه لكبارهم عن الضرائب المفروضة على أراضيهم الزراعية .

وكان التقسيم الإداري في السودان مثله في مصر ، وإن شابهته البساطة ، فكانت البلاد تنقسم إلى عدد من المديريات على رأس كل منها مدير ، وكانت كل مديرية تنقسم بدورها إلى أقسام ، على رأس كل منها ناظر ، كما كان كل قسم ينقسم إلى أخطاط على رأس كل منها حاكم . أما البدو فقد ضموا في كل مديرية إليها ، وكان يحكمهم مشايخهم المسئولون أمام المدير :

وكان الحكماء يتمتع بكامل السلطتين المدنية والعسكرية في البلاد ، وهو ممثل والى مصر فيها والممثل الأول أمامه عن كل ما يتعلق بالبلاد ، وله هيئة من معاونين على رأسهم وكيل الحكماء وقائد عام الجند ورؤساء المصالح المالية والقضائية وغيرها . ولم يكن هناك حجاب بينه وبين الأهالي ، فقد كان من اليسور على كل شاك أن يقابله ويستلمه شكواه بدأ بيد ، وكان يقضى فيها بسرعة بعد التحري عن موضوعها بدقة وأخذ رأى الموظفين المختصين ،

ومن المسائل التي اهتمت بها الإدارة بعد الفتح مسألة تنظيم الضرائب . ولم يكن هذا بالأمر السهل ؛ فقد كان الأهالي يعملون بالرعى ولم يكونوا يدفعون شيئاً من الضرائب قبل الحكم المصري ، لذلك سبب فرض الضرائب

استياء عاماً بين الأهالي ساعد عليه وقوع كثير من حوادث العنف على أيدي جامعي الضرائب ، الأمر الذي أدى بكثير من الأهالي إلى هجر قراهم والحرب إلى الجبال ، وقد فرضت الضرائب بشكل إجباري على القبائل ، وترك لرؤسائها أمر جمعها ، ومن هذه الضرائب كانت تخص مصاريف الإدارة ، وأهمها مرتبات رجال الجيش والإدارة ، فلذا حدث وتأخر دفع المرتبات كان الجند يثورون ، ولذا وكل إليهم أمر جمع الضرائب كي يكونوا على بينة من صحة جمعها (١) ،

### الإصلاحات المصرية في السودان على عهد محمد علي :

وقد حاول محمد علي إصلاح المساويء التي يشكو منها الأهالي ، وعمل الكثير في سبيل ذلك عند زيارته للسودان ( ١٨٣٨ - ١٨٣٩ ) ، ومن ذلك تقييده سلطة الحكام وعزله الفاسدين منهم : وفي الواقع لقد عمل محمد علي الكثير لتنظيم البلاد وجعلها امتداداً لمصر ، وذلك لتحقيق هدفه الخاص بجعل مصر خالصة له ، ومن أجل ذلك كان لابد من القيام بعدة مشروعات من أجل تحقيق هذا الهدف .

وكان الاهتمام بالزراعة على رأس هذه المشروعات ، فقد كانت مع عظم أهميتها في أسوأ حال ، وخاصة بعد أن شُغل أصحاب الأمر على عهد سلطنة الفنج بالانطاحن فيما بينهم وأشركوا الأهالي في حروبهم ؛ إذ كانوا ينتزعون الرجال عنوة من القرى والديساكر والحقول ملء صفوف الجيش ، فكثرت المجاعات التي أودت بحياة مئات الألوف في سنار وكردفان خاصة ، ومن أجل ذلك وضعت بعد ضم السودان أسس الإصلاح الزراعي التي شجعت الأهالي على الاستقرار وعلى احترام الزراعة بشتى الطرق ، وأرسل إلى

( ١ ) الدكتور زاهر رياض : السودان المعاصر منذ الفتح المصري حتى الاستقلال



السودان الكثير من الفلاحين والصناع والمهندسين ، وحُفرت الآبار وشقت  
الترع ، ووزعت الأراضي وأدخلت زراعات جديدة ، ونقل إلى البلاد كثير  
من صنوف الحيوان الأليف ، وتمّ التوسع في زراعة قصب السكر ، وكان  
لذلك كله أثره في عمران البلاد إلى حدّ استرعى انتباه الرحالة الذين زاروا  
لسودان على عهد محمد علي .

وقد عني محمد علي منذ توليه حكم مصر بإعادة العلاقات التجارية بين  
السودان ومصر إلى سابق عهدهما والعمل على دعمها وتوثيق أواصرها . فقد  
كان من أثر اختلال الأمن في ربوع السودان في السنوات الأخيرة من عهد  
الفتح ، وما كان يلاقيه التجار من مخاطر في أثناء اجتيازهم طرق القوافل  
الداهية إلى خارج البلاد أن صاروا يؤثرون الخروج بمتاجرهم صوب البحر  
الأحمر فراراً من أعمال السلب والنهب التي كانت تتعرض لها القوافل ، فقل  
وصول القوافل إلى مصر عن ذي قبل لدرجة كبيرة وحرمت مصر أرباحاً  
طائلة كانت تجنيها من هذه التجارة .

وتحت الحكم المصري فُتحت أركان بعيدة في البلاد للتجارة ، وعمرت  
أسواقها ، وانتظمت المواصلات بها ، وعُرِفَت النقود في جهات لم تكن  
تعرف عنها وعن فائدتها شيئاً ، وشقت متاجر جديدة طريقها - لأول مرة -  
إلى قائمة صادرات وواردات البلاد ، وتدفق عليها تجار من الأجانب لم  
ترهم من قبل ، وساد الأمن كل جهاتها .

وكان من أثر احتكاك تجار السودان بأفراد المجتمع الكبير في الخرطوم  
وغيرها من المدن التجارية في البلاد ، وبخاصة المصريين والترك والأجانب ،  
اختصار كثير من العملات والموازين والمكاييل والمقاييس بعد أن ظلت فترة  
طويلة بعد الفتح تحت الاختبار ، وكان من نتيجة ذلك أن أصبحت أسواق  
هذه المدن لا تعتبر من هذه المقاييس جميعاً إلا ذوات القيمة المحددة ، هذا

في الوقت الذي كانت فيه جهات أخرى عديدة في البلاد تعتمد  
مقاييس أخرى ؟

وإذا كان من أول لنتائج الحكم المصري قيام العاصمة الخرطوم فإن هذا  
قد غير بدوره من أهمية المراكز التجارية في البلاد ، فبينما قلت أهمية بعضها  
ازدادت أهمية البعض الآخر ، كما قامت مراكز أخرى جديدة لم تكن  
موجودة من قبل ، كل ذلك في الوقت الذي أصبحت فيه الخرطوم السوق  
التجاري الأول في البلاد من حيث التسويق والتوزيع والاستيراد ، بل سوق  
كل المنطقة الممتدة بين وسط أفريقية وبحيرة تشاد والبحر الأحمر . أما أسواق  
السودان القديمة ذات الشهرة الكبيرة على عهد سلطنة الفنج - مثل بربر  
وشندي ومنار فقد أصبحت تدور في فلك النشاط التجاري لسوق الخرطوم  
وتقوم على خدمته ، وأصبحت مجرد محطات على طول خطوط القوافل الممتدة  
بين الخرطوم وجهات البلاد المختلفة ؟

وإذا كان الاحتكار على رأس سياسة محمد علي التجارية فلأن الحركة  
التجارية في البلاد - مع ذلك - لم تتأثر كثيراً بهذه السياسة ؟ والسبب في ذلك  
أن القيم التي حددتها الحكومة لمعظم السلع التجارية التي تم احتكارها في كردفان  
- مثلاً - كانت تقل بقدر طفيف عنها فيما لو بيعت تلك السلع حرة في سوق  
الأيض ، وهذا مما أدى إلى تدفق متاجر كردفان إلى مصر والخرطوم .

ولم تكن هناك على عهد سلطنة الفنج تجارة بالمعنى المعروف بين شمال  
السودان وجنوبه ، ولا شك أن تأخر المواصلات المائية في السودان الشمالي  
كان له أثره في تأخر علاقاته مع الجنوب ، وليس في التاريخ ما يشير إلى  
أن السلطنة كانت تملك قوة بحرية تساعد على حماية حدودها من غارات  
جيرانها الزنوج من الدينكا والشلوك الذين كانوا دائمي الإغارة عليها في سرعا  
ومرونة كبيرتين ؟ فلما حلت الإدارة المصرية بالبلاد كانت مسألة الكشف

عن منابع النيل الأبيض من المسائل الهامة التي اهتمت بها ، خاصة وأن مجهودات جيمس بروس اقتصرت على كشف منابع النيل الأزرق . ومن أجل ذلك خرجت البعث الحكومية وغير الحكومية منذ سنة ١٨٢٤ من الخرطوم لسبر غور النيل الأبيض ، وأقصى ما وصلت إليه في تقدمها في الجنوب الخط العاشر من خطوط العرض ، فلما كانت زيارة محمد علي للسودان ( ١٨٣٨ - ١٨٣٩ ) تحركت في نفسه مسألة الكشف عن منابع النيل ، وتحت هذه الظروف قام البكباشي المصري سليم قبطان برحلات ثلاث في النيل الأبيض بين نوفمبر ١٨٣٩ ومارس ١٨٤٢ ، وأقصى ما وصلت إليه خط عرض ٢٤° شمالاً . ومع أن هذه الرحلات لم تصل إلى هدفها الخاص بالكشف إلا أنها نجحت في مسألة أخرى هامة ، وهي فتح طريق الملاحة والتجارة إلى أعالي هذا النيل ، وهكذا تمهأت الظروف لفتح باب التجارة على مصراعيه بين السودان الجنوبي والعام الخارجي .

### فتح أبواب السودان للأجانب:

وعندما تولى عباس الأول مقاليد الحكم ألغى احتكار الحكومة لمعظم المتاجر ، وكان ذلك نتيجة طبيعية لانصراف الحكومة عن احتكار التجارة في مصر في ذلك الوقت . وقد ترتب على ذلك اتجاه كثير من التجار الأوروبيين والسوريين إلى الجنوب لجمع العاج والاتجار فيه ، ثم لقمص العبيد عندما نصبت موارد العاج وقل الربح فيه ، محتمين في ذلك بما كانوا يتمتعون به من امتيازات أجنبية ، حتى لقد شاركهم القناصل في هذه التجارة لقاء بسط حمايتهم عليهم ، وأصبحت الخرطوم سرباً مركز التجمع لكل التجار الأوروبيين ، وكذلك المخاطرين والمبشرين الآتين من خارج البلاد .

ولقد صيحب مجيء هؤلاء الأجانب نقص ملحوظ في حقوق السيادة

ولقد كان مما أثار إعجاب الرحالة لېسيوس (١) الذى وصل إلى الخرطوم في شهر فبراير سنة ١٨٤٤ ذلك النشاط الظاهر في بلدة الكاملين المنشأة حديثاً . فقد تحدث عن المصانع بها ، فحدث عن مصنع للصابون والحمور بديره ألماني ، ومصنع للسكر ، ومصنع للنيلة يديره أحد المواطنين . وهو يقرر أن إدارة هذه المصانع على أحسن ما يكون من النظام ، وأن النظافة فيها فائقة — وهو أمر غير مألوف في البلاد .

وجملة القول أنه نتيجة للحكم المصري في السودان قامت الحكومة المستقرة في الخرطوم ، وانبسط رواق الأمن والطمأنينة في ربوع البلاد ، وارتفع ذكر بعض المدن القديمة وأنشئت مدن جديدة ، واستثمرت الموارد الطبيعية ، وجرى التنقيب عن المعادن ، وقضى على بعض العادات الحمجية : إذ اعتاد أهل فازوغلي — مثلاً — التخلص من الطاعنين في السن والعجزة والمرضى والضعاف بدفنهم أحياء . كما بذلت الحكومة الجديدة كل جهودها لتأمين الحدود ورد المغيرين عليها وبخاصة من ناحية الحبشة ، ولعجم عود قبائل البدو الجائعة وجعلها تآلف الخضوع للقانون وأولى الأمر في البلاد .

ومن الجدير بالذكر أن الحكم المصري في السودان كان يعتمد على ولاء السودانيين في حكم البلاد ، فلم يكن لمصر بالسودان سوى قوة نظامية صغيرة ، وأصبحت سياسة إشراك العناصر الوطنية في الحكم والإدارة — وهو ما انتهجته الإدارة المصرية منذ الفتح — أساساً للحكم في البلاد . ويتضح هذا ، على سبيل المثال ، في ذلك المركز الكبير الذي شغله الشيخ عبدالقادر ردا الزين أيام محو بك ( مايو ١٨٢٥ — يناير ١٨٢٦ ) وطوال الحكم

المصري بعد ذلك حتى وفاته ، فقد قلد وظيفة معاون الحكمدارية ومشيخة مشايخ عموم الجزيرة ، وقد استمرت هذه السيامة نافذة المفعول أيام عباس ، فكان المشايخ والزعماء يلقون كل حظوة لدى الحكمدارين ، كما أن عباس عين الشيخ علي جلافي والشيخ محمد نور ضيف الله بمجلس الدعاوى - وهو بمثابة محكمة عليا ، وكما عين الشيخ إبراهيم عبد الدافع مفتيا للمحكمة .

### الثقافة العربية في السودان

أدى فتح العثمانيين لمصر والشام والعراق إلى تحرك موجات من الهجرة من هذه الأقطار إلى السودان وسلاطينه من الفنج . وكان من بين المهاجرين جماعات من العلماء لقوا من هؤلاء السلاطين كل إكرام وترحيب ، منهم الشيخ إدريس بن محمد أحمد والشيخ حسن ود حسونه الأندلسي ، فكان هذا سبباً في انتشار ثقافات عربية مختلفة في البلاد كانت أقواها أثراً الثقافة المصرية . وكان من نتائج ذلك أن ارتحل كثير من السودانيين إلى مصر في طلب العلم في الأزهر بعد أن هدأت الأحوال فيها في ظل الحكم العثماني الجديد ، وبعد أن لمسوا النفوذ الكبير الذي يكتسبه الأزهريون السودانيون بين مواطنيهم بعد عودتهم من مصر وعند سلاطين الفنج .

ومع ذلك فإن الأثر الأكبر في البلاد كان لأصحاب الطرق الصوفية ، ويرجع ذلك إلى الظروف التي مرت بها البلاد في زمن سابق لعصر الفنج ، فقد أورت اشتداد الانقسامات الداخلية في البلاد في ذلك الوقت واشتعال العصبية القبلية التي كانت تعمل على تمزيق البلاد كل ممزق في نفوس السودانيين رغبة شديدة في حياة بعيدة عن مزلق السياسة والعصبية ، فما أن وجدوا في عصر الفنج فقراء زاهدين في الدنيا ومشايخ يدعون إلى الانتظام في سلك العبادة حتى لبثوا سرعاء في ترحاب شديد وحاسم بالغ ، وهكذا

كانت الحالة في السودان قبيل عصر الفنج أقوى عامل على انتشار الطرق الصوفية في البلاد وخير تمهيد للدخول فيها والإقبال عليها (١) .

فلما كان عصر الفونج أصبح يشارك المكوك أو المناجل - رؤساء المشيخات - في الشرف رهطاً من ( الفقراء ) - أو ( الفُقَرَا ) عند السودانيين ، وهم الزاهدون في الدنيا ، والواحد منهم يدعى ( الفقير ) أو ( الفسكى ) ، واللفظ الأخير أكثر شهرة وهو محرف عن ( الفقيه ) ، وقد صار ( الفسكى ) منذ أواسط دولة الفنج معلم الطريق ومدرس القرآن ومرشد العامة في كثير من أمور دينهم ودنياهم . وما أن مضت أجيال على قيام دولة الفنج حتى كانت في سائر القبائل أسر دينية تلزم سميت الفقير والصالح وتأخذ بنيتها بتعلم القرآن والتدين ، والناس يكبرونها ويحلوونها لإجلالهم جدها الصالح الأول واعتقادهم أن البركة حلت في أفرادها بالوراثة (٢) .

وقد كان العلماء والصالحون في مبدأ أمرهم طبقين تتنافسان تنافساً شديداً : العلماء أهل الفقه يرون لأنفسهم فضلاً على الصالحين - وهم المتصوفة أهل الطريق ، وهؤلاء بدورهم يرون لأنفسهم فضلاً على العلماء أهل الظاهر والشرعية الخائب عنهم علم الباطن والحقيقة .

وقد شجعت سلطنة الفنج هؤلاء الرجال جميعاً . ويروى أن الشيخ عجيب ابن عبد الله بن جماع شيخ مشيخة العبد اللاب ( ١٥٧٠ - ١٦١١ ) هو أول من حرص على العلماء ، وأكرم مشواهم وأقطعهم الضياع الواسعة ودر

---

(١) عبد المجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية في السودان منذ نشأتها إلى العصر

الحديث ص ٦٢ - ٦٣ .

(٢) الدكتور عبد الله الطيب : محاضرات في الاجتماعات الحديثة في النثر العربي في السودان

ص ٤ . ومن أقوال السودانيين : البركة ما يتبع في التراب ، والبركة ما نزلت واطه .

عليهم أسباب الرزق . ولم يمض زمن طويل على السلطنة حتى نشأت طبقة من العلماء والصالحين تدعى لنفسها شرفاً سماوياً موروثاً تناهض به الشرف الأرضي الذي كان يزهو به السلاطين والمكوك . ومن هؤلاء العلماء والصالحين من ادعوا لأنفسهم مجداً سابقاً لسلطنة الفنج ، فتهربوا بهذا ونحوه . من أن يكون هؤلاء جميعاً أدنى فضل عليهم (١) .

وقد ظهر في بعض القبائل العربية بالسودان فقهاء كبار كان لتقواهم وورعهم وإفاداتهم خلوات العلم تأثير كبير في تعمير الجهات التي أقاموا فيها . وكان المحس — على هذا الشكل — المركز الأول في تعمير منطقة النقاء النيلين الأبيض والأزرق حيث تقوم مدينة الخرطوم ، وقد بقيت لهم طوال العهد المصري ( ١٨٢٠ — ١٨٨٥ ) حرفة كفتها ومعلمين وأصحاب خلاوى ومعجزات ، وهذا مما أدى إلى رفع شأنهم عند ملوك الفنج والقبائل التي تخضع لهم واعتقاد الناس فيهم وفي شفاعاتهم ، ولهذا كثيراً ما منح هؤلاء الملوك مشايخهم الأراضى — الأمر الذي انتهت كثير من الوثائق . فن العررد قاب . نجد الفكي المشهور إدريس ود الأرباب الذي أسس والده مدينة العبيدقون التي اتسعت على أيام ولده بعد أن أقام فيها وجذب كثيراً من المحس إليها ، ومن الخوجلاب الشيخ خوجلى عبد الرحمن الذي تنسب إليه حلة خوجلى (٢) . واشتهر البنداناب بتأسيس برى المحس (٣) . أما نسل زيد بن عجم فقد عمروا منطقة شمبات (٤) وما حولها ، ويرجع الفضل إلى العوتاب في تعمير منطقة

( ١ ) الدكتور عبد الله الطيب : المصدر السابق ص ٢ .

( ٢ ) الحلة تطلق على المكان الذى يقوم فيه مائة منزل أو أكثر . وتقع حلة خوجلى

على الضفة الشمالية أو الشرقية للنيل الأزرق في مواجهة الخرطوم .

( ٣ ) تقع حلة برى المحس شرق الخرطوم على مسافة غير بعيدة عن الضفة النيل الأزرق .

الجنوبية أو الغربية .

( ٤ ) تقع حلة شمبات على الضفة الشرقية للنيل الأبيض شمال الخرطوم في مواجهة شمالي

مدينة أم درمان .



البشاررة (١) ، وقد ظهر فيهم الشيخ الكبير أرباب بن عون « الذي شئت  
إليه الرجال في علم التوحيد والتصوف ، وبلغ عدد طلبته ألف طالب ونيف  
من دار الفونج إلى دار برنؤوا : تلامذته وتلامذة تلامذته » (٢) .

والفقراء الصالحون أهل الطريق والدرأويش أهل الطرق الصوفية طبقة  
كبيرة العدد ، وأصوات طبوهم تبدد سكون الليل في السودان كله ، وكان  
عدهم في الخرطوم سنة ١٨٥٠ - عند وصول رفاعة إلى المدينة - يوازي  
عدد المصريين والأوربيين معاً ، وهم يقومون - علاوة على دورهم الديني -  
بمعالجة الأمراض المستعصية ، وبخاصة الحمى والعقم والرمم ، والقمام  
المشترك في وسائل العلاج عندهم هو تسجيل عدة آيات من القرآن على صفحة  
صغيرة من الورق أو الصفي ليغسلها المريض بالماء ثم يشربه ، أو تُلف  
الورقة في حجاب من الجلد ، كما كانوا يقومون بإعطاء اليهود للأهالي  
فيعاهدونهم - مثلاً - على الامتناع عن التدخين وتناول المسكرات وفعل أي  
منكر مدى الحياة ، وهم أيضاً يسدون لهم النصح في المشروعات الهامة قبل  
الإقبال عليها : كالسفر والصفقات التجارية والزواج وغير ذلك .

وعدد الدراويش ، أهل الطرق الصوفية ، أكبر من عدد الفقراء أهل  
الطريق ، وقد جاء معظمهم من خارج السودان ، وبخاصة من السودان  
الأوسط ومراكش وتونس وليبيا وشبه الجزيرة العربية وإيران ، وهم يمثلون  
كل عقائد العالم الإسلامي ، وينتمون إلى أكثر من أربع وأربعين طريقة  
دينية . ولما كانوا من أجناس مختلفة فقد تباينت ملابسهم وأغطية رؤوسهم

---

( ١ ) البشاررة اسم لحائنين على ضفتي النيل الأزرق على مسافة غير بعيدة من جنوب  
الخرطوم .

( ٢ ) محمد ضيف الله : كتاب الطبقات في خصوص الأرباب والصالحين والعلماء والشعراء

وما إلى ذلك ، ولهم حرفهم التي يتعيشون منها ، فنجد من بينهم بحارة  
ومتعهدي نقل بالقوافل ونجاراً ومعلمين للأطفال .

### التعليم الديني أو الأهلي في السودان :

كان لمعاهد التعليم الديني أو الأهلي في السودان ، والتي كانت معروفة  
ومنشرة في معظم القرى الكبيرة في شمال البلاد قبل الحكم المصري ، أسماء  
مختلفة ، ومن هذه الأسماء المسجد ( أو المسيد ) والجامع والمدرسة والمكتب  
والخلوة ، ولكن الاسم الأخير كان أكثرها شيوعاً . والغالب أن المسجد  
أو الخلوة كان عبارة عن سور من القصب وفروع الشجر أو الطين يضم  
مربعاً أو مستطيلاً به حجرات جانبية من القصب والأغصان أيضاً وراكوبات  
هي خلوات الحبران والفقهاء (١) .

وكان التعليم في الخلوة مجانياً ، وينفق على الحبران من دخل الشيخ  
وماله والهبات والندور التي تقدم إليه . وصاحب الخلوة رجل من حفظة  
القرآن ينشئها في بيته ويدرس فيها بنفسه وينفق عليها من عنده لوجه الله  
تعالى ، أو رجل من أهل اليسار — فقيهاً أو غير فقيه — فيؤجر فقيهاً براتب  
معلوم وينفق عليه وعلى تلاميذه ، وكثير من المشايخ كانوا أغنياء بما كون  
البهايم والأراضي الزراعية . وأحياناً يشترك في إقامة الخلوة والإنفاق عليها  
أهل البلدة جميعاً فيختصونها بغرفة تلصق بالجامع . وإذا ازدهت الخلوة  
بالحبران ولم يعد بها مكان للطلبة الغرباء فلن سكان الحيلة يقتسمونهم  
فيما بينهم ويقيمونهم في منازلهم ساكنين طاعمين .

---

( ١ ) الدكتور عبد العزيز أمين عبد المجيد : التربية في السودان الجزء الأول .  
والراكوبة هي السقفة تبني من القصب ليجلس تحتها التلاميذ أمام حجرة من حجرات الخلوة ،  
والحبران هم التلاميذ .

وكان الحيران يخدمون شيوخهم في الخلوة وخارجها بفلاحة الأرض وجمع الحطب ورعى الماشية وأحياناً إعداد الطعام ، على أنه لما كان نظام الرقيق سائداً فإن ذلك جعل من السهل إعداد الطعام للحيران . وكان الحيران يقدمون لمشايخهم شيئاً مادياً من حين لآخر على سبيل المساعدة والاعتراف بالفضل : ومن ذلك ما هو معروف باسم ( الشرافة ) ، وهى جعل من المال — عيئاً أو نوعاً — يُقدم إلى الشيخ بمناسبة وصول المتعلم إلى سورة خاصة من سور القرآن ، فإذا ما أتقن التاميز قسمياً من أقسام القرآن زوّق لوحه وكتب عليه الآية الأولى من القسم التالى وحمله إلى أهله دلالة على أنه حفظ قسمياً من القرآن فيرسلون معه إلى الفسكى ( الشرافة ) . ومن ذلك ما هو معروف ( بحق الأربعاء ) ، وهو قدر من المال أو الحبوب أو الطعام يُقدم إلى الشيخ في يوم الأربعاء من كل أسبوع ، وفي العادة يحمل كل تلميذ معه إلى المختلوة في هذا اليوم قليلاً من الذرة فيسلقونها بالماء ويأكلونها مع الفسكى ، وتسمى هذه الأكلة ( كرامة الأربعاء ) ، ويحمل الفسكى معه إلى البيت قليلاً منها على سبيل البركة ، وقد يأخذ كل ما يُقدم إليه إلى منزله (١) . وعلاوة على ذلك كانت تُقدم الهدايا إلى الشيخ في المناسبات : كأيام الأعياد ، وعند ما يفرغ التاميز من التعليم .

وكانت طريقة التلقين والإملاء واستعمال اللوح الخشبي هى المألوفة في الخلوى . وكان الشيخ يجلس للدرس على العنقريش (٢) أو الأرض فوق

(١) نعيم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ج ١ ص ١٤٠ .

عبد المجيد عابدين : المصدر السابق ص ٨٥ - ٨٦ .

(٢) العنقريش عبارة عن إطار مستطيل من الخشب المنتج محلياً والمقام فوق أربعة أرجل ، ثم يملأ الإطار بشرائع رقيقة متشابكة من جلد الثور الرطب ، فإذا ما جف الجلد كان متيناً ومرناً في نفس الوقت ، هذا ويملا فراغ الإطارات في العنقريشات الرخيدة بحبال الليف . وهذا النوع من العنقريشات لا ترتفع أرجله عن سطح الأرض إلا قليلاً .

الفروة أو البرش ، والتلاميذ يلتفون حوله في حلقه على الأرض مفروشة أو غير مفروشة ، والفككى يحلى عليهم من الذاكرة عادة ، فيكتبون على ألواح ومعهم محارهم وفي أيديهم أقلام من البوص ، حتى إذا استظهروا جزءاً محوه وكتبوا غيره مما يليه .

ومن المساجد والخلاوى ما يدرس فيها القرآن فقط أو العلم فقط ، وأغلبها كان لتدريسهما معاً . ولم تعرف في هذه المعاهد مراحل التعليم بمعناها الفنى المعروف ، وكان التعليم يبدأ عادة بحفظ القرآن وقراءة بعض أحكامه ، ثم رحل من حفظه إلى مسجد أو خلوة العلم أو يبقى في نفس المسجد - إذا كان العلم يدرس به - حيث يتلقى علوم الدين . على أن كثيراً ممن شرعوا في حفظ القرآن قد يتركون الخشاعة قبل إتمامه . ومدة الدراسة في الخلوة قد تصل إلى سبع سنوات .

والدراسة في المسجد أرق مستوى من الدراسة في الخشاعة : وقد جهد العرب في السودان في الفصل بين المرحلة الأولية التي كان مكانها في الخشاعة عادة وبين المرحلة العالية التي كان مقرها في المسجد . وربما أطلقوا على تلاميذ الخشاعة ( فقراء القرآن ) ، وتلاميذ المسجد ( فقراء العلم ) (١) .

والعادة أن تعمل الخشاعة من شروق الشمس حتى غروبها ، ولكن كان ناك من الخلاوى ما يعمل أربع فترات في اليوم : الفترة الأولى من الساعة لاربعة صباحاً حتى شروق الشمس ، والثانية من الثامنة صباحاً حتى التاسعة والنصف والثالثة من الساعة الواحدة بعد الظهر حتى الثالثة ، والرابعة من الغروب حتى الساعة الثامنة مساءً .

ومن أهم الخلاوى بمدينة الخرطوم خاوة ( صباحي ) ، وهو أحد

الفتية حجاب من سكان المدينة ، واخلتوة الفسكى على ود إدريس ه وهو  
محسى من جزيرة توتى ، والخلتوة الملاحقة بمسجد أرباب العقائد (١) .

والخلتوة إلى جانب أنها مكان للتدريس كانت مكاناً للتعبد والذكر  
والصلاة وهداية المريدين إلى طريق الصوفية - وهى الوظيفة الأولى التى  
اقتربت بها منذ ظهورها فى البلاد ، كما كانت منزلاً ومحطاً للمارة والعابرين  
والطالبين للطعام والشراب والمنام .

عناية مصر بالتعليم الدينى أو الأهلى فى السودان على عهدى  
محمد على وعباسى :

بعد ضم السودان إلى مصر كان الترك يدركون شيئاً من طبيعة النفوذ القبلى  
الذى كان يمثل المشايخ أو المكيوك ، فعكفوا على إخضاعهم بكافة الوسائل.  
والأساليب التى يلجأ إليها الفاتحون : كما كانوا يدركون بدرجة أقل طبيعة  
النفوذ الدينى ، فحرصوا على إكرام رجال الدين ، وربما اعتقدوا الصلاح  
فى بعضهم فصاروا لهم من جملة المحبين .

ومن أجل ذلك كانت العناية بالتعليم الأهلى فى السودان على عهد محمد على ،  
فرُتبت المرتبات للفقراء حتى يتمكنوا من الإشراف على المساجد والخلاوى  
والقيام بتكليفها والعناية بمن يؤمها من الحيران والفقراء وأبناء السبيل ،  
وحتى ينفرغوا لرسالتهم السامية دون أن يحسوا ضيقاً فى العيش أو حاجة  
إلى السؤال تلهمهم عن جادة العمل : ومن ذلك أن الفقيه إبراهيم عيسى  
شيخ مسجد كُشترانج بمديرية الخرطوم تقدم إلى الحكومة بشكوى من أن  
« الفقراء أخذت تتكاثر ، فلم يعد المرتب الذى تصرفه له الحكومة يكتفى

---

( ١ ) فى رواية لإبراهيم صديق - ناشر طبقات ود ضيف الله - وعبد الرحمن جميل الله  
وأحمد حل الإحياء من حملة خوجل : الزيارة فى شهرى أبريل ومايو ١٩٥٨ .

لمصروفات ذلك المسجد ، وأنه يريد علاوة شيء على ذلك المرتب<sup>(١)</sup> ، وقد قام المسئولون في الخرطوم بالتحريات اللازمة ، وثبت لهم أن عدد الفقراء المتجمعين بالمسجد يبلغ واحداً وثمانين فقيراً ، وأن مرتباً قدره مائة وخمسون قرشاً مقيد من القديم باسم الشيخ . ونتيجة لذلك صدر أمر القاهرة « بإبقاء إبراهيم الفقى ناظراً بنفس المرتب مقيداً باسمه ، وأن يُسرح أولئك المسنون والكبار الذين تجمعوا في المسجد ، ويُقام بدلاً منهم نحو خمسين صديقاً ، على أن يُعطى لكل واحد منهم قرشان وربعتان من الدرة شهرياً : . . . ويقوم الشيخ إبراهيم بتعليم الصبيان القراءة والكتابة بكل نظر وتدقيق باذلاً جهده في ذلك »<sup>(٢)</sup> .

وعندما رأى حاكم دار السودان أن هذا المسجد في حاجة إلى التجديد كتب إلى القاهرة « بطلب بناء عشر حجرات لسكنى الفقراء وإقامة سور للجامع من اللبن ، وأنه إذا أبدل الآجر باللبن يكون البناء أقوى وأمتن ، وأن تكاليف ذلك تبلغ ثمانية آلاف قرش »<sup>(٣)</sup> ، فكان رد القاهرة هو تنفيذ العملية في الحال ، وبالأجر لا باللبن .

وعند وفاة الشيخ إبراهيم عيسى طلب الشيخ أحمد ابنه أن يخلفه في وظيفته ، فقام حاكم دار السودان « بسؤال قاضى بلاد السودان وعلمائها عن مقدار معلومات مقدم العريضة ، وعن أهليته وكفاءته ، فشهدوا بلياقته وكفاءته للقيام بخدمة المسجد المذكور في محل أبيه المتوفى » ، ولما كان لأبيه في حياته

- 
- |   |                              |
|---|------------------------------|
| ( ١ ) دفتر رقم ٣٧٩ صادر ديوان المعية بتاريخ ١٤ ذى القعدة ١٢٦٠                 | وثيقة رقم ٣٤٣٢               |
| ( ٢ ) دفتر رقم ٩٩٧ صادر ديوان المالية لمختلف الجهات بتاريخ ١٠ ربيع الأول ١٢٦٢ | وثيقة رقم ٧٦٧                |
| ( ٣ ) دفتر رقم ٤٠٨ صادر المعية بتاريخ ٨ ربيع الأول ١٢٦٣                       | الإرادة التركية رقم ١١١٠     |
|   | إرادة إلى حاكم دار السودان . |

مرتّب قدره مائة وخمسون قرشاً في كل شهر ، علاوة على خمس عشرة جندة في السنة ، وكل جندة قيمتها عشرون قرشاً (١) ، وكان أمر إحالة هذا المرتّب وتلك الجندعات إلى ولده وتخصيصها له منوطاً بالقاهرة ، فقد كان أمر القاهرة الصادر إلى حاكم السودان فحواه : « أنه ما دام الفسكى أحمد يسدّ مسدّ أبيه ، وأن القاضي والعلماء يشهدون بذلك ، فعليكم أن تقيدوا باسمه ما كان مرتباً لوالده . » وهو أمر لا بد من إجرائه على وجه الاستحسان (٢) .

وقد استمرّ التعليم الدينى الأهلّى هو التعليم الوحيد في البلاد على عهد محمد على ، ولو أنه سافرت من السودان إلى مصر في ذلك العهد بعثة ضمت ستة أشخاص من أبناء وجهاء تلك البلاد ، فصدرت الأوامر بإلحاقهم بالمدرسة التجهيزية توطئة لدراسة علم الزراعة ومعاملاتهم معاملة ممتازة نوعاً من التلاميذ الآخرين ، « نظراً لحبيبتهم من بلاد بعيدة » (٣) . ونحن لا نعرف شيئاً عن هؤلاء الطلبة إلا ما قال به رفاة الطهطاوى (٤) من أنهم « نُقلوا إلى مكتب الزراعة ثم إلى مدرسة الألسن . وكان القصد من ذلك أن يذوقوا طعم المعارف المدنية لينشروها في بلادهم » . كما شاهد رفاة بعض أفراد هذه البعثة — بعد رجوعها إلى السودان — يعملون كتبة بمديرية الخرطوم . وقد دام اهتمام مصر بالتعليم الدينى في السودان بعد وفاة محمد على ،

( ١ ) الجندة مساحة من الأرض قدرها خمسة أفدنة . وقد أقرّ الشيخ من الضرائب المستحقة عن الأرض الزراعية التي في حيازته ، والضريبة هنا عشرون قرشاً لكل جندة .

( ٢ ) دفتر رقم ٤٥٥ صادر المقية  
المكاتب التركية رقم ٢١٧  
بتاريخ ٢٥ شعبان ١٢٦٤ إلى حاكم السودان .

( ٣ ) دفتر رقم ٣٠٦ صادر ديوان المعاونة — جهادية الوثيقة رقم ٩١٢  
بتاريخ ٩ جمادى الآخرة ١٢٦٥ — من قلم الملكية في الإسكندرية إلى مدير المدارس .  
( ٤ ) مناهج الألباب ص ٢٦٣ .

علم تضمن في عهد عباس الأول على مساجد العلم وبيوت الله بالإصلاح  
مبالتعمير ، بل والإنشاء ، وكانت تبذل للمتعلمين السودانيين في الأزهر نفقة  
الانتقال من مصر إلى السودان ، وتوصى الحكام الذين سيملكون بهم بحسن  
ملاقاتهم وتسهيل سفرهم ، كما كانت لا تضمن على الناهيين من أهل السودان  
بالوظائف مما كان له أثره في تشجيع العلم والمتعلمين (١) .

---

( ١ ) الدكتور عبد العزيز أمين عبد الحميد : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٤ - ٢٥ .  
( ٥ - رفاعة )



## بعثة رفاعة إلى السودان

مدرسة الألسن في أخريات أيامها :

لم يزل رفاعة ناظراً لمدرسة الألسن وقلم الترجمة ، يقود في مهمة لا تعرف الكلل هو وتلاميذه الحركة العلمية في مصر - أمر عباس باشا بإغلاق المدرسة وإرسال رفاعة ناظراً لمدرسة تقرر إنشاؤها في الخرطوم .

وقد بدأت عملية إغلاق مدرسة الألسن بإلغاء قسم الفقه بها وفصل أستاذته وتحويل تلامذته إلى تعلم المحاسبة . وتلا ذلك ( فرز ) عدد كبير من طلبة المدرسة وفصلهم منها . وفي الشهر الأخير من سنة ١٢٦٥ هـ ( أكتوبر ١٨٤٩ م ) صدر الأمر بنقل المدرسة إلى مكان مدرسة المبتديان بالناصرية ، وبذلك حرمت المدرسة من مكانها الذي عاشت فيه أربعة عشر عاماً ، وكان محل فندق ( شبرد ) القديم أمام حديقة الأزبكية . وقد ضاق بها مكانها الجديد حتى اضطروا إلى نقل ( المكتبة الخزانة الأفرنجية ) ( والانتيكات ) إلى المهندسخانة ببولاق . ولم تمض أيام على ذلك حتى أغلقت المدرسة - وكان ذلك في شهر المحرم سنة ١٢٦٦ هـ ( نوفمبر ١٨٤٩ م ) ، وضم تلامذتها إلى المدرسة التجهيزية قبيل إلغائها ، واقتصر عمل رفاعة على نظارة قلم الترجمة حتى صدر الأمر برحيله إلى الخرطوم (١) .

صدور الأمر بإنشاء مدرسة الخرطوم وناظرها رفاعة :

في اليوم السادس من شهر رجب سنة ١٢٦٦ هـ ( مايو ١٨٥٠ م ) أرسل المجلس الخصوصي إلى مدير المدارس بخبره بأنه يبحث موضوع إنشاء مدرسة بالخرطوم ، وأنه استحسن أن يؤاىى عليها أمير الآلاى رفاعة بلك الموظف

بديوان المدارس ؛ حيث أن المدرسة المطلوب لإنشائها ستكون « تابعة لأصول المدارس المصرية ونظامها المرغوب ، ولا سيما المبتديان والتجهيزية » ، هذا علاوة على أن رفاعة بك « ملم بأصول المدارس وتنسيقها كما ينبغي وتنظيمها نظاماً حسناً » ، وأن « له الخبرة في اصطفااء المدرسين الذين تحتاج إليهم تلك المدرسة ، وبيان مصاريفها الشهرية والسنوية من المأكولات والملبوسات على النسق المتبع في المدارس المصرية » . وبعد أسبوع واحد ( يوم ١٣ رجب ) أخبر مدير المدارس المجلس الخصوصي باتصاله برفاعة الذي قام بالمطابو من انتخا من المدرسين من بين رجال أكفاء ، ووضع بياناً عن سائر الموظفين والملبوسات والفرش والجرايات والرواقب والتكاليف الإجمالية لذلك كله ، فبلغت ٣٣٨٠٣٣ قرشاً و ٣٩ بارة سنوياً طبقاً لأسعار القاهرة . ونتيجة لذلك صدر قرار المجلس الخصوصي بإنشاء المدرسة في اليوم الخامس عشر من رجب ، وبعد ذلك بيومين أصدر عباس أمره إلى ديوان المدارس بالمبادرة إلى تنفيذ قرار المجلس الخصوصي بكل اهتمام ؛ حيث أنه اطلع عليه ووافق على العمل بموجبه ووقعه ، « وحيث أن الأقاليم السودانية ديار واسعة ، ولم تُنشأ بها مع عظم مساحتها أية مدرسة » (١) .

وكان إنشاء المدرسة من أجل أبناء سكان البلاد الأصا من مشايخ وأهلين ، وأولاد وأحفاد الأتراك الذين استوطنوا تلك الديار منذ سنين ، لإنقاذهم جميعاً « من حضيض الجهل وإعدادهم لاكتساب المعارف » ، على أن يقيد بها نحو مائتين وخمسين طفلاً ينحصر كل منهم ستة قروش شهرياً .

وكان على حكامدار السودان أن يساعد في تنسيق المدرسة وتنظيمها ، وأن

(١) محفظة رقم ٤ أوامر لديوان المدارس الوثيقة التركيبية رقم ١٧ أصل

بتاريخ ١٧ رجب ١٢٦٦ من الخديو عباس إلى مدير ديوان المدارس  
دفتر رقم ٥٩٧ ديوان الكتفدا المكاتبه رقم ١٦٩٦  
بتاريخ ٦ رجب ١٢٦٦ إلى ديوان المدارس .

يقيم رواتب هيئة التدريس وما كولاتهم وما بوساتهم وغير ذلك من حاجاتهم ،  
ابتداءً من تاريخ قدومهم ، ويصرفها لهم عند حاول مواعيد صرفها طبقاً  
للكشف المرسل إليه من مدير المدارس ، وأن يخصص مكاناً مناسباً للمدرسة ،  
وأن يدبر باقي الموظفين « والخدمة من كاتب ووزان ووكيل خرج وغسّال  
وسقاء وطاه » ويختارهم من أهل البلاد :

وكان على رفاة أن يسارع عند إبلاغه بالقرار إلى الانطلاق إلى محل  
مهمته مستصحباً الأحد عشر مدرساً والطبيب ، والآلة ينقطع عن مراقبتهم  
وتذكيرهم دائماً بمهمتهم ، وأن يحمل التلاميذ دائماً على السعي والاجتهاد  
وقد ضمت قائمة رفاق رفاة الأسماء الآتية :

- ١ - القائمة - محمد بيومي أفندي
- ٢ - الصاغقول أغاسي أحمد طائل أفندي
- ٣ - الملازم أول علي محمد أفندي
- ٤ - الملازم ثان علي عثمان أفندي
- ٥ - إبراهيم محمد أفندي
- ٦ - محمد مرسي أفندي
- ٧ - أمين أفندي
- ٨ - الشيخ رجب
- ٩ - مكاوي - وكان الشيخ رجب وهذا الشيخ عالمين بالأزهر
- ١٠ - إسماعيل فرغلي
- ١١ - أحمد ( الواعظ ) ، وقد اختفى عن عيون الإدارة على أثر  
تعيينه فعين بدله الشيخ محمد المكاوي .
- ١٢ - الطبيب سليمان السيوطي أفندي

وهكذا أصبحت بعثة رفاعة إلى الخرطوم حقيقة واقعة ، وبقي أن ترى  
المدرسة النور .

هل اتخذ إنشاء المدرسة ذريعة لإبعاد رفاعة إلى السودان ؟ :  
والآن ، كيف تتفق نزعة عباس في إغلاقه المدارس في مصر مع قراره  
بإنشاء مدرسة في الخرطوم ؟ :

يكاد يجمع كل من تصدى لترجمة حياة رفاعة على أن مدرسة الخرطوم  
قد خلقت خلقة لإبعاد رفاعة إلى السودان ، فإن عباساً - عندهم - كان  
يكره العلم والمتعلمين ، ولقد طالما ضاقت بالعلماء - أمثال رفاعة - صدور  
الحكومات الفاسدة والرجال الجلهة (١) . كما أن الحاكم الطاغية يحب أن يسود  
الجهل بين رعيته لتسهيل قيادتهم ، فيركن إلى إغلاق معاهد العلم وينبذ  
أساتذتها .

ولكن الدكتور محمد فوزي شكري (٢) يرى أن إغلاق المدارس على عهد  
عباس يتفق مع اتجاهه في التعليم - هذا الاتجاه القائم على أساس إقامة مدرسة  
واحدة في القاهرة ( المفروزة ) ، وهي مدرسة تجهيزية حربية ) ، وإقامة أخرى  
مشيلة لها في الخرطوم ، والذي كان جزءاً من البرنامج التعليمي الذي اتبعه في  
مصر ذاتها ، والذي انبرى بعض كبار الباحثين من علماء الإفرنج لتوضيح  
أغراضه بصورة لا تدع مجالاً للشك في أن عباساً لا يمكن أن يعتمد على إلغاء  
معاهد العلم بجرة قلم دون تقدير للعواقب . ومعنى ذلك أنه إذا كانت  
( المفروزة ) قد افتتحت بالقاهرة سنة ١٨٤٩ فالخطة - على هذا الأساس -  
أن تفتتح زميلة لها في الخرطوم سنة ١٨٥٠ .

( ١ ) محمد الصادق حسين : السياسة الأسبوعية السنة الثانية العدد ٦٤ ص ٢٠ .

( ٢ ) الحاكم المصري في السودان ص ٤٩ - ٥٠ .

وقد يتضح مع هذا القول ويفسره أن إغلاق المدارس أيام عباس يرتبط أكثر ما يرتبط بواقع الأحوال في الأعوام الأخيرة من عهد محمد علي . فقد كان افتتاح المدارس في ذلك العهد وإرسال البعثات إلى الخارج وإنشاء المصانع والاستعانة بالأساتذة والفنيين الأجانب بعد اقتباس النظم الأوربية في إدارة هذه المدارس والمصانع — كان كل ذلك في الدرجة الأولى وقبل كل شيء من أجل الجيش وبناءه وتطويره ، ومن أجل إدارة البلاد بعد ذلك . فلما نقص عدد الجيش في أواخر أيام محمد علي كان طبيعياً أن تغلق المدارس والمصانع التي لم تعد هناك حاجة إليها — وخاصة وقد انتهت الحروب مع السلطان وضممت الدول الأوربية الحدود بين كل من أملاك محمد علي وأملاك السلطان .

لقد كانت المدارس الابتدائية في مصر قبل سنة ١٨٣٦ سبعة وستين مدرسة ، وفي سنة ١٨٣٦ — وطبقاً لللائحة المدارس الابتدائية الصادرة في شهر ذى القعدة من سنة ١٢٥١ هـ — أصبحت خمسين مدرسة ، ثم انقصت بعد ذلك إلى اثنتين وأربعين مدرسة فقط . وبعد أزمة الحكم الكبرى ( ١٨٣٩ — ١٨٤٠ ) حين استقرت الأمور ، وبدأ نشاط محمد علي العسكري ، وخفض عدد الجيش ، وصارت وظائف الحكومة والإدارة لا تتسع لهذا العدد الضخم الذي أتم تعليمه في المدارس ، وساءت الحالة الاقتصادية بما ترتب عليها من ضرورة الاقتصاد في النفقات — بعد هذه الأزمة تفاقمت أزمة التعليم ، مما اضطر الباشا إلى معاودة البحث في نظام التعليم على ضوء جديد . لذلك تألفت برئاسة إبراهيم باشا لجنة اتخذت عدة قرارات وافق عليها الباشا في ١١ أكتوبر سنة ١٨٤١ ( ٢٤ شعبان ١٢٥٧ هـ ) ، وألغيت بمقتضاها كل مكاتب المبتدیان أي المدارس الابتدائية ، كما ألغيت المدرسة التجهيزية بالقاهرة ومدرسة الموسيقى .

وهكذا أصيبت المدارس الابتدائية من جراء هذا التنظيم ( المعروف بترتيب ١٢٥٧ هـ ) بأكثر مما أصيب سواها . ولكن لما كانت المدارس الابتدائية والمدرسة التجهيزية المملوكة هي الأساس الذي تقوم عليه المدارس الخصوصية فقد عُمِد إلى لجنة جديدة لإعادة النظر في أمر المدارس المملوكة حتى يُعاد منها ما تمس الحاجة إليه مع ملاحظة سياسة الاقتصاد ، وقررت هذه اللجنة إنقاص عدد التلاميذ بمعظم المدارس وإلغاء بعض الأقسام بها والاكتفاء بخمسة مدارس ابتدائية ، ولم يتغير هذا العدد حتى نهاية عصر محمد علي<sup>(١)</sup> . والجدير بالذكر أن رفاعة كان عضواً في معظم هذه اللجان .

كان عهد عباس في ناحية التعليم إذن امتداداً للفترة الأخيرة من عهد محمد علي<sup>(٢)</sup> . كما كان علي عباس أن يحل مشكلاتٍ عسيرة الحل يدون مال ؛ فقد كان عليه أن يرسل الهدايا إلى السلطان كواحدة من الوسائل ليحمله على التراجع عن تنفيذ سياسته في نزع امتيازات مصر كما ظهرت في محاولة تطبيق ( التنظيمات الخيرية العثمانية )<sup>(٣)</sup> تطبيقاً كاملاً على مصر . وعلاوة على ذلك كان عباس في حاجة ملحة إلى المال ليحل به مشاكله في السودان — وهي مشاكل تراكت في فترة شيخوخة محمد علي<sup>(٤)</sup> .

---

( ١ ) الدكتور محمد نؤاد شكرى ، عهد المقصود العتاني ، سيد محمد خليل : المصدر

السابق ص ٩٩ .

( ٢ ) صدرت ( التنظيمات ) ، وتعرف ( بخط شريف كاخانه ) في نوفمبر سنة ١٨٣٩ هـ وهي عبارة عن القوانين والأنظمة التي تكفل أمن رعاية الدولة العثمانية على أموالهم وأعراضهم وأرواحهم . وقد أثار الباب العالي أزمة ( التنظيمات ) بعد وفاة محمد علي عندما أراد تطبيق القوانين الإدارية للدولة العثمانية تطبيقاً كاملاً على مصر ( وممتلكاتها ) ، وفي هذا فرض رقابة دقيقة تحت إشراف حكومة الآستانة على كل شؤون الحكم والإدارة في البلاد وعودة بالبلاد — إذا ما نجح السلطان في تطبيق التنظيمات فيها — إلى ما كانت عليه قبل إصدار فرمانات الوراثة بين سنتي ١٨٤٠ ، ١٨٤١ ، فتفقد البلاد بذلك وضعها الممتاز بين أقاليم الإمبراطورية العثمانية وتصح مجرد مقاطعة من مقاطعاتها .

كان السودان يقاسى منذ وفاة الحكمدار أحمد أبو ودان (أبريل ١٨٣٨ - أكتوبر ١٨٤٣) الكثير من المخاطر التي أجتبها تحول حكم البلاد إلى النظام المركزي على عهد خليفته الحكمدار أحمد باشا المنكلى (أكتوبر ١٨٤٣ - ديسمبر ١٨٤٥) ، فقد ترتب على هذا التحول فقدان الحكمدار الجديد لسلطة الإشراف والمراقبة على مديرى الأقاليم فى السودان بعد أن أصبح كل مدير مرتبطاً ارتباطاً مباشراً بالقاهرة . ولقد زادت الحكمدارية ضعفاً بضعف الحكمدار خالد باشا (ديسمبر ١٨٤٥ - أكتوبر ١٨٤٩) الذى عجز - كما عجز الحكمدار الذى سبقه - عن الكشف عن حقيقة الحالة فى البلاد للوالى فى مصر ، فبقيت الحال نفس الحال حتى عهد عباس حين بدأ الحكمدارون - والناهبون منهم بصفة خاصة - يفيضون فى وصف الصعاب التى تواجه البلاد ، ومن هذه الصعاب انبثقت مسألة وكأنها بذت الساعة ، وإن كانت فى الواقع ترجع إلى ما قبل ذلك ، وهذه المسألة خاصة بما تقاسيه البلاد من نقص فى الموظفين ، وهى ما حملت الحكمدار أحمد المنكلى على التوصية بضم مديرية سنار إلى مديرية فازوغلى ، وكذلك حالت دون تنفيذ وصيته الخاصة بتقسيم مديرية دنقلة الواسعة إلى مديريتين ( دنقلة وبربر )<sup>(١)</sup> ، وهى نفس وصية الحكمدار عبد الطيف باشا (أكتوبر ١٨٤٩ - ديسمبر ١٨٥١) .

وقد استمرت المطالبة بالأمداد من الجند والموظفين طوال عهد عباس ، ووصلت حدّة الحاجة إليهم فى عهد الحكمدار إسماعيل أبو جبل (يونيو ١٨٥٢ - أبريل ١٨٥٣) ، مع الشعور باستبعاد سدّة هذه الحاجة وعجز الدولة عنه ، إلى درجة ذيل معها هذا الحكمدار أحد تقاريره التى دبّجها بهذا الخصوص بهذه العبارات : « . . . » . ولقد قيدت عريضتى هذه فى سجل

خاص ، فلم أطلع عليها أحداً ولا سجلتها في سجلات الحكمادارية ، فإذا اشتملت الأمور التي أشرت إليها موافقتكم السامية حصل المطلوب ، وإن لم تلاق الموافقة فإني مضطر إلى كنتم إرادتكم السامية التي ستصدر سداً لباب اللغظ الذي سيحدث في هذه الديار (١) .

ومنذ عهد الحكمدار خالد باشا ( ديسمبر ١٨٤٥ — أكتوبر ١٨٤٩ ) ، حين عادت البلاد إلى نظام اللامركزية في الحكم — وهو النظام الذي أثبتته التجارب الإدارية حتى ذلك الوقت أن فيه تقدم البلاد واستقرارها وسرورها في طريق الحكم الصحيح — كان نجاح هذا النظام ومصير البلاد الإداري يرتبطان بما يمكن أن توفره القاهرة من الجند والموظفين لكفائتهما وضمان التقدم والاستقرار في البلاد . وكان من وسائل عباس لحل الأزمة إثراء العنصر الوطني في تدبير شئون الإدارة ، واختيار الأكفاء من الموظفين ما أمكنه الاختيار لمناصب الإدارة (٢) . وأخيراً ، كان من وسائل عباس — بالإضافة إلى ذلك — في حل هذه الأزمة افتتاح مدرسة بالخرطوم يمكنها أن تمد الإدارة المدنية في البلاد بالكتابة بعد ثلاث أو أربع سنوات ، وكذلك القوة العسكرية بكتبتها ( بلوك الأمناء ) ، فإذا مضت أربع سنوات أخرى وتخرج تلاميذ القسم التجهيزي أصبح إمداد الإدارات المختلفة بمجموعات طيبة من الموظفين أمراً محققاً .

وهكذا تبدو أهمية قيام مدرسة بالخرطوم على عهد عباس لتسهم في حل أزمة الإدارة في البلاد — هذه الأزمة التي بدا حلها حتى ذلك الوقت غير ممكن بغير الاستعانة بخريجي هذه المدرسة . وهكذا نجد أنه بقدر ما في

( ١ ) مخطوطة رقم ١٨ بحر إرا الوثيقة رقم ١١٨

بتاريخ ٧ ذي الحجة ١٢٦٨ إلى أيلغاب العالم .

( ٢ ) راجع الصفحات الأخيرة من هذا الفصل .



رأى القائلين « بأن عباساً — الذى أغلق المدارس فى مصر — إنما أسس مدرسة الخرطوم لينتخلص من رفاة » من وجهة نجد أن عدم التسليم بهذا رأى ، بل ورفضه بشكل قاطع ، ليس فيه مجانبة للصواب . وإذا لم يقبل تفسيرنا بأن تأسيس المدرسة قائم على الحاجة إليها لأهميتها فى حل أزمة الإدارة فى البلاد ، فبم نفسر اهتمام عباس بافتتاح المدرسة بعد وصول رفاة إلى الخرطوم كما سيظهر من الوثائق الرسمية ، فى حين أنه كان يمكنه ، وقد حقق قصده بوصول رفاة فعلاً إلى الخرطوم على ما يقول القائلون ، أن يكتفى بذلك ولا يعبأ بالمدرسة بعد ذلك فتحت أم لم تفتح ؟ . وإذا أجب على هذا بأن الباشا قد انقلب فقط إلى العناية بافتتاح المدرسة بعد وصول رفاة إلى الخرطوم وصرف اهتمامه إليها — وكان الأصل فى تأسيسها هو إبعاد رفاة كما يقول القائلون — يرد على ذلك بأن تعبئة الجهود لتأسيس المدرسة ، وسيرها سيراً طيباً يحنى الغرض الملح من إقامتها كانا على درجة عالية من أول الأمر . وتوضح صحة ما نقول به فى أن قرار إنشاء المدرسة كان جامعاً لكل صغيرة وكبيرة عنها ، كما توضح هذه الصفحة إذا قارنا ما كانت عليه هيئة التدريس فى مدرسة الخرطوم بمثيلاتها فى المدرسة الابتدائية فى مصر ، فهمى فى المدرسة الأخيرة ذات المائة تلميذ تتكون من ناظر ووكيل ومدرسين<sup>(١)</sup> ، وهى فى مدرسة الخرطوم ذات المائتين والخمسين تلميذاً — كما هو مقرر لها قرار إنشائها — تتكون من ناظر واحد وعشر مدرسا . وأخيراً ، هل يمكن أن نتصور أن عباساً يضحى بعدة ألوف من الجنيهات هى ميزانية المدرسة فى السنة — مع تصور قيمة الجنيه فى ذلك الوقت ، نكفى تكون ثمناً لإبعاد رجل واحد إلى السودان ، حتى ولو كان هذا الرجل رفاة الطهطاوى ؟ ، وبعد ذلك كله ، إذا لم نقبل الإقرار باهتمام عباس بالتعليم لتوفير الموظفين

(١) الدكتور محمد فؤاد شكرى ، عبد المقصود العناني ، سيد محمد خليل : المصدر

اللازمين للسودان والاهتمام بإنشاء مدرسة بالخرطوم من أجل هذا الغرض ،  
فهم نفسر الاستمرار في إرسال البعث إلى أوروبا في عهد عباس (١) ؟ .

لماذا كان اختيار رفاعة بالذات ناظراً للمدرسة ؟

ولكن كيف نقبل أن تكون هيئة المدرسة جماعة من أركان النهضة العلمية  
في مصر وعلى رأسهم رفاعة الطهطاوي زعيم هذه النهضة ، ومعهم بيومي  
أفندي (٢) من قدامى أساتذة مدرسة المهندسخانة ورئيس قسم ترجمة كتب  
العلوم والرياضة بقلم الترجمة الملحق بمدرسة الألسن ، وأحمد طائل أفندي  
تلميذ بيومي وزميله والمدرس بالمهندسخانة والمتخصص في ترجمة كتب هذين  
الفرعين ، وسليمان السبوح أفندي الطبيب ذو الكفاءة العالية التي تبرز معارف  
زملائه الأوروبيين في الحالات المرضية المستعصية (٣) . وكل ذلك في الوقت  
الذي لن يتيسر فيه لتلاميذ المدرسة الاستفادة من هؤلاء العلماء وهم لا يزالون  
يحبون على أول مدارج العلم ؟ .

قد يقال إن المدرسة أراد إقامتها كانت مدرسة ابتدائية ، ولكن يجب  
أن نقول إن المرسوم لها أن تستمر الدراسة فيها لمن أتم الدراسة الابتدائية  
بنجاح لتكون مدرسة ابتدائية تجهيزية . ويمكن لأهميتها أنها مدرسة واحدة

---

(١) راجع : الأمير عمر طرسون : المصدر السابق ص ٤١٦ - ٤٨٧ .

(٢) ذكر أمين سامي في تقويم النيل ( الجزء الثاني : ص ٤٣٤ - هامش ١ ) أن حكومة  
فرنسا أرسلت في سنة ١٨٥٠ ( ١٢٦٦ هـ ) أحد أقران بيومي أفندي بمدرسة الهندسة التي كان  
بها في فرنسا لزيارته في الخرطوم ، وبعد زيارته طبع كتاباً عنوانه : بيومي أفندي في منفاه  
١٨٥٠ .

ويشير الدكتور جمال الدين الشيال في « تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي »  
( ص ١١٢ - هامش ٤ ) أنه بحث كثيراً عن هذا الكتاب ولكنه لم يوفق في العثور عليه .

(٣) Hamilton, J. : Sinai, The Hedjaz and Soudan, p. 344 (٣)

في طول البلاد وعرضها ، وليس لها في مصر - الدولة الأم - إلا مثيلة واحدة : وتنظيم مدرسة تجهيزية في ذلك الوقت ليس بالأمر السهل الذي يقدر عليه كل الرجال . « والمطلوب أن تكون المدرسة تابعة لأصول المدارس المصرية ونظامها المرغوب ، ولا سيما على نسق المبتدیان والتجهيزية » (١) ، وما أخرى رفاعة وجل التربية والتعليم بالقيام على إخراج المطلوب على أحسن وجه ، وخاصة بعد أن أصبحت الحاجة إليه في القاهرة أقل مما كانت عليه قبل إغلاق مدرسة الألسن ومعاهد التعليم المختلفة وركود حركة الترجمة من الفرنسية التي كان رفاعة وتلاميذه روادها .

ولكن إذا كان رفاعة ليس الخبير الوحيد في البلاد بمثل المهمة التي أسندت إليه فلماذا اختير هو بالذات لرئاسة بعثة الخرطوم ؟ . يشير رفاعة إلى جواب هذا السؤال فيقول : لأنه أبعد « يسعى بعض الأمراء بضمير مستتر » (٢) ، كما يردد نفس الجواب عند قوله (٣) :

وما خلت العزيز يريد ذلتي ولا يصغى لأخصام الداد  
قياس مدارسى قالوا : عقيم بمصر ، فما النتيجة في بعاى  
والآن ، من يا ترى هؤلاء الوشاة الذين حملوا عبأ على إبعاد رفاعة إلى  
الخرطوم ؟ . ولماذا كان لهم هذا الدور ؟ . إن المؤرخين المعاصرين لا يحدوثنا  
بالجواب الشافى عن هذين السؤالين (٤) .

- 
- ١ : أصل  
(١) محفظة رقم ٤ أوامر لديوان المدارس الوثيقة التركيبية رقم ١٧ مسلسل  
من الخديوي عباس إلى مدير ديوان المدارس .. بتاريخ ١٧ رجب ١٢٦٦  
(٢) مشاهير الأكتاب : ص ٢٦٥ .  
(٣) نفس المصدر : ص ٢٦٨ .  
(٤) انظر - السيد صالح مجدى : حلية الزمن بمناقب خدام الوطن سعادته المرحوم رفاعة بك .. على باشا مبارك : الخطل الجديدة التوفيقية لمصر القاهرة ومدينها وقراها ج ١٣ ص ٥٥ .  
جرجى زيدان : مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر ج ٢ ص ٢١ .  
تاريخ آداب اللغة العربية ج ٤ ص ٢٦٨ - ٢٦٩ .

قد يكون هؤلاء الوشاة من الحاقدين على رفاة الدين رأوا في بعض كتاباته وآرائه ما لا يتفق مع طبيعة الحكم الاستبدادى فى مصر ، إذ لا يخفى أن كتابه ( تخليص الأبريز ) طبع للمرة الثانية سنة ١٢٦٥ هـ أى فى أوائل عهد عباس ، والكتاب يحوى مبادئ وآراء لا يرغب فيها الحاكم المستبد ، فلا بد أن الوشاة قد لفتوا نظره إلى ما فى الكتاب مما لا يروق له ، فرأى أن يبعده وأمثاله إلى الخرطوم ليبعد أفكارهم وثقافتهم عن مصر<sup>(١)</sup> .

ومن المحتمل أن يكون رفاة قد أتى معارضة بعض المشايخ المتعصبين للدين ربما عدوه متطغلا على ميادانهم فى دراسة الشريعة والفقه ، ومن هنا نجتمع الحقد عليه والكيد له ولمدرسته ( مدرسة الألسن ) ، فانتفى الأمر بغلق هذه المدرسة أولا ثم إبعاده إلى السودان بعد ذلك<sup>(٢)</sup> .

ويضيف الدكتور أحمد عزت عبد الكريم<sup>(٣)</sup> إلى ذلك أن بعض الباحثين يرون أصبح على مبارك - الذى عاد من أوروبا مليئاً بالأطباع وكان بنفس على رفاة ما أصاب من مكانة - فيما شاع من سوء التفاهم بين عباس ورفاعة ، وقد يكون فى على مبارك - علاوة على ذلك - ما قرّبه إلى نفس عباس ، إذ لم يكن مزاجه ثورياً بحكم منشته وتربيته ، وكان مبدؤه للطاعة التامة لولى الأمر مهما كان<sup>(٤)</sup> .

---

( ١ ) عبد الرحمن الرافى بك : تاريخ الحركة القومية ونظور نظام الحكم فى مصر

ج ٣ ص ٤٨٩ - ٤٩٠ .

( ٢ ) الدكتور أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى مصر ج ١ ص ٥٨ .

( ٣ ) نفس المصدر : ص ٥٧ - ٥٨ .

( ٤ ) أحمد أمين : زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ص ١٩٩ .

وراجع أيضاً : أحمد عرابى : مذكرات عرابى الجزء الأول كتاب الحلال العدد ٢٣ ص ١٩٦ - ١٩٨ . ويشير الزعيم أحمد عرابى فى مذكراته إلى مراوغة على باشا مبارك فى تنفيذ قرارات المؤتمر العام الذى عقد فى القاهرة فى ٢٢ يوليو سنة ١٨٨٢ أثناء الثورة الدرابية ، وكان - وهو أحد أعضاء هذا المؤتمر - المكلف بحمل هذه القرارات إلى الخديو بالإسكندرية

ومصدقا لأهمية الدور الذي قام به الوشاة لإبعاد رفاعة إلى السودان  
يقرر الدكتور على رفاعة الأنصارى (١) - وهو من عائلة رفاعة - أن المتواتر  
في العائلة أن رفاعة تعجب عند تولية عباس أنه من سخرية القدر أن يتولى  
أمر البلاد من يدمن تعاطى الأفيون ، فما أن ثقات هذه الوشاية إلى الوالى حتى  
أصدر الأمر بإبعاده تحت سنار إنشاء مدرسة بالخرطوم .

وقد أشار بيومى أفندى زميل رفاعة في السودان عند مقابلة الرحالة  
الإنجليزى ج . مللى في الخرطوم أنه يلقى اللوم كله في موضوع إبعاده إلى  
السودان على المحيطين بالباشا وعلى النمامين - ومن بينهم تلاميذ من تلامذته :  
ويقرر ج . مللى بعد هذه المقابلة أن قصة بيومى وأمثاله تتأخص في عمل<sup>(٢)</sup>  
هؤلاء النمامين على التخلص منهم ليحل محالهم تلامذتهم الذين سوف لا يتدخلون  
في أعمال الباشا (٣) .

وقد يرجع إبعاد رفاعة إلى هذا الانشقاق المعروف في البيت الحاكم في  
ذلك الوقت : إذا تقرب أحد إلى بعض غضب عليه البعض الآخر ، يرضى  
محمد على وإبراهيم باشا عن الشيخ رفاعة فإذا جاء عباس غضب عليه  
وأخرجه من إدارة مدرسة الألسن وعينته ناظراً للمدرسة ابتدائية تنشأ في  
الخرطوم ، ويرضى عباس عن على مبارك ويقربه إليه ويعهد إليه في تنفيذ  
أمور كثيرة ، فإذا جاء سعيد باشا غضب على على مبارك وأعاد الشيخ رفاعة<sup>(٤)</sup>  
وقربه إليه . . . . . وهكذا (٥) .

ويسير في هذا الطريق وعلى هذا الدرب الرحالة الأجانب ممن قابلوا

---

( ١ ) في زيارة لسيادته في اليوم الأول من شهر يوليو سنة ١٩٧٢ .

Melly, G. : Khartoum and the Blue and White Nilles, ( ٢ )

Vol. II, p. 100

( ٣ ) أحمد أمين : المصدر السابق ص ١٩١ .

وقال على باشا مبارك في خطبته « إنه كان سعيد ميللى إلى المترجم » - أى إلى رفاعة ، ج ١٣ ص ٥٥ .

رفاعة في الخرطوم ، ففتح لهم قلبه وأفضى إليهم بسريرة نفسه . وهؤلاء الرحالة هم الرحالة الإنجليز : ج. هاماتن ، جورج مللي ، أندريه مللي ، والرحالة الأمريكي بايارد تيلور<sup>(١)</sup> . ويجمع هؤلاء الرحالة على أن رفاعة بك وزميله بيومي أفندي من رجال محمد علي الذين خدسوه بكل طاقتهم . وبعضهم كان يرتبط بمحمد علي وأسرته بأكثر من ذلك ، مثل طبيب البعثة الذي كان طبيباً خاصاً لعائلة إبراهيم بن محمد علي<sup>(٢)</sup> . ويقرر أندريه مللي<sup>(٣)</sup> أن علاقة رفاعة وبيومي كانت وثيقة للغاية برجالات محمد علي أمثال : لينان بك وكلوت بك ولبير بك وحكيكيان بك<sup>(٤)</sup> ، وأن الزمن قد عفا عليهم جميعاً وأبعدوا إلى الأقاليم البعيدة بذهاب محمد علي .

وفي الحقيقة لقد كان رفاعة معجباً بكل الإعجاب بمحمد علي : فهو عنده وحيد زمانه في جميع أوصافه ، وفريد أوانه في عدله وإنصافه<sup>(٥)</sup> .

( ١ ) دأى ذى كتب رحلات هؤلاء الرحالة :

a ) Hamilton J. : Sinai, the Hedjaz, and Soudan, London, 1857.

b ) Melly, G. : Khartoum and the Blue and White Niles, 2 Vols. London, 1851.

c ) Melly, A. : Lettres d'Egypte et de Nubie, London, 1852.

d ) Taylor, B. : A Journey to Central Africa . New York, 1854.

Hamilton, J. ; op. cit. p. 344. ( ٢ )

Melly, André ; Lettres d'Egypte et de Nubie, p.130. ( ٣ )

Linant Bey, Clot Bey, Lambert Bey, Ekiklan Bey ( ٤ )

ولينان بك هو المهندس الفرنسي الشهير الذي خدم مصر أيام محمد علي . وكلوت بك هو مؤسس كلية الطب وكبير أساتذتها ، ولبير بك هو مدير المهندسخانة حتى نهاية عهد محمد علي . وحكيكيان بك عمل في أول الأمر مديراً للمهندسخانة ، ثم تولى عدة وظائف هامة منها نظارة مدرسة العمليات ، وقد تولى رئاسة ( الجمعية المصرية ) أكثر من مرة - وهي جمعية علمية أسست في مصر سنة ١٨٣٥ . وقد اشغل الثلاثة الأخيرون بالنواحي التعليمية ، وكانوا أعضاء في لجان التعليم المختلفة . ومن الجدير بالذكر أن حكيكيان بك كان ذا أثر بارز في لفت أنظار محمد علي إلى موضوع تعليم البنات :

الدكتور محمد فوز شكري ، عبد المقصود العناني ، سيد محمد خليل : انصدر السابق

ص ٦٦٦ .

( ٥ ) . مناهج الأدياب : ص ٢٠٨ .

أما مصر فقد أدركت مرامها به ، « وأولا أن رزقت به لدُرسَت رسومها بالكلية » (١) ؛ أما ما يجب أن يكون عليه الرجال الذين يخدمون رجلا لمحمد عليّ فيرى رفاة أن محمد عليّ « لوحظ في أوائل توليته برجال يتصفون بالسياسة والرياسة وذكاء العقول لكان أعظم أبطال الدنيا » (٢) ، ورفاعة في ذلك يحسن بينه وبين نفسه بالفخر والإكبار ؛ إذ يعمل في خدمة هذا الرجل وأنه أهل لهذا العمل .

ويكاد يُجمع الرحالة الذين قابلوا رفاعة ويومي في الخرطوم (٣) على أن النقطة الحساسة الفعالة في نفور عباس وكرهه لكثير من كبار الأتراك والمصريين هي أنهم كانوا لا يؤيدون مشروعه الخاص بوراثنة العرش ، والقاضي بأن يخلفه ابنه إلهام باشا من بعده بدلا من أرشد أفراد العائلة ؛ وهو سعيد باشا بن محمد عليّ ، كما يقضى بذلك نظام وراثنة العرش . ومن هنا لجأ عباس — بما عرف عنه من غرابة الأطوار وكثرة التطير وميله إلى القسوة — إلى نفى كل من استشعر أنه يقف حجر عثرة في سبيل تنفيذ خطته لوراثنة العرش ، وكان النفي دائما إلى مدينة الخرطوم ، فإذا استبد سوء الظن بالباشا كان النفي إلى أعالي النيل الأزرق حيث يربص الموت بالمنفيين من كل جانب ، وكان يتخذ لنفيهم إلى هناك صورة ظاهرة وهي الاشتراك في إقامة القلعة الكائنة بمديرية فازو غلي (٤) . وكان بعض المنفيين يفتونون

( ١ ) مناهج الأبواب : ص ٢٢٧ .

( ٢ ) نفس المصدر : ص ٢٢٢ .

( ٣ ) انظر على سبيل المثال : Hamilton, J. ; op. cit. p. 343 & p. 401 ,

Taylor, B. ; A Journey to Central Africa. p. 292,

( ٤ ) دفتر رقم ٦٦٣ ديوان الكتبخدا الوثيقة رقم ٤٢

بتاريخ ٢٢ محرم ١٢٧١ من الجنب العالي إلى الكتبخدا .

كشفت هذه الوثيقة عن قصة هذه القلعة بوضوح ، كما تتضمن أمر سعيد باشا بعد تواليه

العرش مباشرة بإبطال العمل فيها .

على عباس ما أراده لهم ، بالنقي إلى السودان فكانوا يهربون بعد وصولهم إلى هناك إلى سواكن أو مصوع التابعين للسلطان في ذلك الوقت (١) ، ولكن قليلا من المنفيين من كانت تسعهم إمكانياتهم لتنفيذ هذه المحاولة ،

ولقد كان رفاعة يرى وجوب المحافظة على قوانين الدولة ، وبخاصة ما ارتبط منها بسياساتها العليا وقواعد الحكم فيها ، كما كان يرى في انظام وراثه العرش القائم نظاماً يضمن استقرار الأحوال في البلاد ، ونحن نحسن ذلك بحرارة عند ما يتحدث عن إبراهيم باشا أرشد أفراد العائلة وخليفة والده فهو يرى فيه خير خلف لخير سلف (٢) ، وقوانين وراثه العرش عنده على رأس ما يجب المحافظة عليه ، فقد اقتضت قاعدة كون دره المناسد مقدماً على جلب المصالح اختيار التوارث في الأبناء وولاية العهد على حسب أصول كل مملكة بما تقرر عندها ، فكان العمل بهذه الرسوم الملوكية ضامناً لحسن انتظام الممالك (٣) ، وفي هذه العبارات إفصاح ما بعده إفصاح عن مشاعر رفاعة نحو محاولة عباس لإحلال ابنه في العرش من بعده دون أرشد أفراد عائلة محمد علي وصاحب الحق في العرش .

ويجب ألا نقول من كرهه عباس لمحمد علي وأبنائه ورجاله ، فلقد ملأ هذا الكره قلبه وملاك عليه حياته : فكُرهه عباس بدأ من كرهه نظام وراثه العرش الذي يمنع ابنه من أن يخلفه ، إلى كرهه محمد علي وولده سعيد باشا ولي العهد ، إلى كرهه كل ما يجب سعيد ومنه السلاح البحري الذي كان سعيد قائداً له في عهد والده ، إلى كرهه كل من خدم محمد علي .

(١) مخطوطة رقم ٢٠٠٤ ، الوثيقة رقم ٥٤٠ بدون تاريخ ، من حكايات السودان .

(٢) مناهج الألباب : ص ٢١٣ .

(٣) نفس المصدر : ص ٢٥٤ .



من رجال وكل المحافظين على النظام القائم عموماً — ومنهم رفاة الذى كان  
يقدم النظام ومارسه بجدّ في كل أعماله بمصر وفرنسا :

وعلاوة على ذلك يكاد يجمع الرّحالة الذين قابلوا رفاة وبيومى في  
الخرطوم على أنهما كانا على صلة بالسلطان : فهامتن<sup>(١)</sup> يقرر أن السلطان  
كان قد دعا رفاة ليلاً وظيفه شاغرة في جامعة استانبول الجديدة ، ولكن  
الخديو عباس حال دون هذا الاستدعاء . ولقد وصل الأمر بـ جـ . ملى<sup>(٢)</sup> -  
إلى أن يقرر أن اتصال رفاة وبيومى بالسلطان لم يكن لمجرد تقديم الخدمات  
والخبرة فيما برزا فيه من علوم وفنون ، بل إنه كان هناك احتمال لتقبل  
الرواتب منه لأنهما كانا يؤازران سياسته تجاه مصر — هذه السياسة التي كان  
هدفها سلب الامتيازات التي تمكن محمد على من نزعها من السلطان بعد  
جهده جهيد : ولقد كان مما أسرّ به رفاة وبيومى إلى أندريه ملى<sup>(٣)</sup> ، وهما  
يجاران بالشكوى من عباس وينزلان عليه اللعنات ، أنهما يتعنيان لو يقضى  
أو يحدث بينه وبين السلطان ما يؤدى إلى عزله وإحلال سعيد باشا محله .

ومهما يكن الأمر ، يجب ألا نأخذ أقوال الرّحالة الأجانب هذه على  
أنها قضايا مسلم بها ، فإن ما قادم إلى هذا الرأى إلا ما كان بين السلطان وعباس  
من خلاف شديد بسبب محاولات السلطان الاعنداء على حقوق مصر ،  
واعتقادهم أنه كان على رجال مصر أن يأخذوا إما جانب السلطان أو جانب  
عباس ، ومن الطبيعي — عندهم — أن رفاة كان في جانب السلطان ما دام  
قد أبعد عباس إلى السودان .

إننا نميل إلى أن تكون مسألة وراثة العرش في مصر ، بحكم علاقات

op. cit. p. 344. (١)

op. cit. p. 101. (٢)

op. cit. p. 131. (٣)

رفاعة ومشاعره تجاه محمد علي ورجاله ، على رأس أسباب النفور بين رفاعة وعباس . ومن هنا كان في إرسال رفاعة إلى السودان إصـابة لعصفورين بحجر واحد : إبعاده عن مصر فهو من حزب سعيد باشا بدون أدنى شك ، وقيامه على إنشاء مدرسة بالخرطوم تسهم في حل مشاكل الإدارة في السودان .

وهكذا قامت العمدة التي امتد عليها صرح النفور بين رفاعة وعباس الذي زاد من صلابته أن رفاعة كان كبيراً في وطنه ، وأن لكلمته دويلاً وسط طلبته وزملائه . ويتضح هذا النفور في الإجراءات السريعة لإرسال رفاعة إلى السودان ، فلم تحضر أكثر من عشرة أيام بين بدء البحث في إنشاء مدرسة بالخرطوم (يوم ٦ رجب) وبين صدور قرار المجلس الخصوصي بإنشائها (يوم ١٥ رجب) ومطالبة ديوان المدارس بتنفيذ هذا القرار (يوم ١٧ رجب) . وهكذا تم إبعاد رفاعة إلى السودان بعد أن نفخ في خطره أعداؤه الذين يفيدون من هذا الإبعاد ، وهم ما قصدهم رفاعة عند قوله إن سفره إلى السودان كان « بسعي بعض الأمراء بضمير مستتر » .

هل كان المقصود من نقل الموظف المصري إلى السودان هو نفيه ؟ :

وعلى هامش إبعاد رفاعة إلى السودان يجب أن نقرر حقيقة : فقد جهد كثير من الكتاب الأجانب للربط بين سعي الموظفين المصريين بالسودان في الرجوع إلى مصر وبين مشاعرهم نحو السودان البعيد عن مصر ، وانتهوا إلى أن المراد من نقل الموظف المصري إلى السودان كان إطلاقاً نفيه فيه ، وليس بمستغرب أن يكون تفكير الكتاب الأجانب على هذا النحو ، فقد تضمنت كتب بعض الموظفين المصريين في الخرطوم ما يفيد تبرمهم بالحياة فيها وشكواهم من الإبعاد إليها ، وبعض هؤلاء الموظفين ممن تيسر لهم مقابلة الرحالة الأجانب في الخرطوم هم المسئولون الأول عن ذبوع اعتقاد النـو ووطنينه في عقول هؤلاء الكتاب .

وقد نبئت فكرة النفي هذه أيام عباس باشا عندما كان يرسل إلى السودان بعض الموظفين المعاقين والجند العاطلين والمجرمين ، وكذلك بعض كبار الترك والمصريين لأمر لا يتعلق بالعمل وما إليه ، بل — في معظم الأحيان وكما أشرنا من قبل — لعدم تحمسهم لمشروعه الخاص بأن يخلفه على العرش ولده إلهامى باشا . وهذا الأمر بعينه — تحيط به وتغلفه أمور دفينه في نفس عباس — هو الذى أملى عليه أن يشك في كل المحيطين به من عائلة جده وأنصار عمه سعيد بما في ذلك ابنه وأمه كذلك .

ويتضح من ذلك أن ( النفي ) إلى السودان لم يكن تعبيراً عن سياسة عباس ولا تجسيدا لها عندما كان يصدر أوامره بنقل ( الموظفين ) إلى السودان ، فإن ( النفي ) أمر ( الموظف والوظيفة ) أمر آخر ، ولا يمكن أن يكون وضع الموظفين في هذه البلاد بالشكل الذى أراده لهم الكتاب الأجانب ، فقد كان هناك نظام للخدمة في السودان منذ عهد محمد على وضع لضمان استمرار الموظفين والإسهام بشكل فعال في تعمير البلاد ومراعاة العدل بين الأهالي (١) ، وآية ذلك أنه عندما تقدم ثلاثة من كبار الموظفين المصريين في السودان على عهد عباس بالشكوى إلى الباب العالي طالبين العودة إلى مصر ، وعند ما طلب هذا من عباس نقلهم نجد عباساً يكتب إليه بأن « هؤلاء الرجال لم يرسلوا إلى السودان متقيين أو مبعدين ، وإنما أرسلوا ليكونوا حكاماً يتولون مناصب الحكومة برتبهم ومخصصاتهم — شأنهم في ذلك شأن سواهم من الموظفين والحكام المعيّنين لمثل هذه الغاية في البلاد ، . . . فإننا لو استدعيناهم — خلافاً للأحوال المتبعة ولما تنته مدتهم بعد — لوجب تطبيق هذه القاعدة على سواهم من كبار الضباط والموظفين ، بل لوجب تطبيقها على الحكمدار نفسه . فإذا ما تم ذلك رأينا عمال الحكومة الذين يتطلب الأمر

( ١ ) محظوظة رقم ٣ أوامر لديران الجهادية — وثيقة رقم ٢٣٨ مسلسل ٤٤ أصل

قرار مجلس العموم رقم ٩٨ المؤرخ في ٢٢ محرم ١٢٦٤ . ويقول هاملتن ( ص ٣٤٨ ) : في عهد محمد على كانت الخدمة في السودان تحترم أكثر مما تخاف لأنه كانت تصبح عادة ترقية ، ودانت مدتها ثلاث سنوات فقط يرق بعدها الموظف

تعيينهم في السودان يرغبون عن السفر إلى هناك<sup>(١)</sup> .

وعلاوة على ذلك ، كان عباس — أحياناً — يسأل كبار الموظفين رأيهم في قبول الخدمة في السودان قبل إصدار الأمر بنقلهم إلى هناك<sup>(٢)</sup> . بل إنه كان مهتماً جداً بالاهتمام باختيار الرجال الأكفاء لإدارة البلاد ، فقد أصدر أمره غداة توليته بأن يكون مديرو المديريات بالسودان ممن لا تقل رتبهم عن رتبة أميرالاي ؛ حيث أنه « مستغن عن التفصيل والبيان أن الملحقات السودانية قد صُرف عليها إلى الآن أموال وفيرة ومساعمة<sup>(٣)</sup> . ولا يمكن أن يريد عباس الخير للبلاد وفي نفسه تجاه الموظفين مشاعر النفي والإبعاد والتعذيب ، وهو الذي يقرر أنه ليس من المصاحبة في شيء أن تُهمل إدارة السودان وتضيع الجهود والأموال التي بذلت في تربيته منذ الفتح حتى عهده ، فإن هذا لو تمَّ » لما يشين سمعة الجناح الخديوي ويحط من قدر إدارته ، وهو مما لا يجوز بحال قبوله أو السكوت عليه<sup>(٤)</sup> . وهو الذي يقول لسليم

( ١ ) دفتر ٦٢٨ ديوان الكتبخدا — وثيقة رقم ١٨٣

بتاريخ ٢٢ محرم ١٢٦٨ إلى القيو كتبخدا .

( ٢ ) عند عزل الحكمدار لطيف باشا وتعيين رستم باشا مكانه أصدر عباس باشا أمره « بوجوب استقدام رستم باشا وأخذ رأيي في هذا الأمر ؛ إذ أن إرساله لهذه المهمة إلى السودان يجب أن يقوم على رغبته وقبوله لهذا المنصب » : دفتر رقم ٦٢٨ ديوان الكتبخدا — الوثيقة رقم ١٨٥ بتاريخ أول صفر ١٢٦٨ إلى المهردار .

( ٣ ) أمين سامي : تقويم النيل المجلد الأول من الجزء الثالث ص ٢٤

إرادة للكتبخدا في ٢٤ شوال ١٢٦٥ ( ٢ سبتمبر ١٨٤٩ ) .

ولقد توجب على تلك السياسة أن أصبحت أقاليم السودان — بالرغم من الصعاب والأخطار التي كانت تواجه إدارة البلاد في ذلك الوقت — تتمتع بإدارة رجال أكفاء وحلوا كثيراً وزادت خبرتهم نتيجة لذلك : Melly, G. : op. cit. p. 102

( ٤ ) دفتر رقم ٦٢٨ ديوان الكتبخدا — الوثيقة رقم ١٨٣

بتاريخ ٢٢ محرم ١٢٦٨ إلى القيو كتبخدا .

باشا صائب عند تعيينه حكاماً للسودان : « واحفظ الرعية من أنواع التعدي والاختلال ، وابسط لهم بساط العدل على التام كقوله عليه أفضل الصلاة والسلام : العدل إن دام عمر ، وكقوله : كلكم راع وكل راع مسئول من رعيته » (١) . وهو الذي يقول فيه الحكمدار عبد اللطيف باشا — وهو يشكو إلى الرحالة بايارد تياور من عدم انقياد الأهالي لأوامر الإدارة : إن عباساً سوف يفصله من عمله لا محالة إذا حاول أن يشتد عليهم قليلاً (٢) :

إن عباساً لا يمكن أن يريد لأهالي السودان الخير ويرميهم بموظفين منفيين ليجروا عليهم هذا الخير ويمدوا بينهم بساط العدل ، وفاقداً الشيء لا يعطيه ، إن انطباع ( النفي ) الذي سيطر على تفكير بعض المصريين في السودان يرجع إلى عاطفة جارقة تتردد بين جنوبهم بالتعلق بمصر والاتصاف بأرضها وصعوبة الابتعاد عنها ، وهي طبيعة في المصريين بعيدة الجذور ، وتمتد إلى أقدم العصور ، وقد قرظها الرحالة الفرنسي ب . تريمو (٣) عند قوله : إن المصريين المقيمين في السودان في أحوالهم العادية — كالمصريين عادة — بشوشون مهذبون أجواد ، فإذا استبد بهم الشوق إلى مصرهم فلان اليأس بعثرهم ويعزب عنهم العدل ، وهذا السيل من التماسات الموظفين الذين يطلبون فيها العودة إلى مصر عند انتهاء مدة خدمتهم في السودان يرجعها إلى هذه الطبيعة بعينها . فإذا سُمح لهم بالعودة تركوا — في معظم الأحيان —

— الأمر رقم ١٢٣

(١) دت ١٠١ عربي

بتاريخ ١٦ رجب ١٢٦٩ .

Taylor, B. : op, cit. p. 391 (٢)

Tremaux, p. ; Le Soudan, p. 32 & p. 37. (٣)

عائلاتهم السودانية - زوجات وأولاداً - إلى القدر . ومع أن رفض الزوجات اصطحابهم إلى مصر كان - في الواقع - اللبنة الأولى في هذا الاتجاه ، إلا أن هذا لم يمنع أنه بتقديم الزمن بالحكم المصري في السودان تزايد عدد المولدين من أب مصري وأم سودانية الآخذين عن أمهاتهم الطبائع والمشاعر - وعلى رأسها كره مصر والمصريين ، وعن آبائهم بعض ما خفف من سواد بشرتهم .

## افتتاح مدرسة الخرطوم

بعثة رفاعة تصل إلى الخرطوم :

في يوم ٢٠ رجب ١٢٦٦ ( أول يونيو ١٨٥٠ ) تم تبادل المكاتبات بين كل من ديوان المدارس وديوان الكتبخدا ونظارة المالية وترسالة بولاق بشأن توفير وسائل ترحيل رفاعة وصحبه - من قوارب وجمال وغير ذلك - إلى السودان على وجه السرعة : وفي اليوم التالي أخطر ديوان الكتبخدا ترسالة بولاق بتوفير ( ذهبية ) لترحيلهم من القاهرة حتى أسوان ، وكان عليهم أن ينقلوا بعد ذلك بالقوارب إلى كروسكو ، ثم يمتطون الجمال إلى الخرطوم .

ويبدو أن رفاعة وصحبه لم يتمكنوا في القاهرة بعد صدور الأمر بترحيلهم ، إذ غادروها إلى السودان في الثالث الأخير من شهر رجب ( الثالث الأول من شهر يونيو ) ، وقد استقل رفاعة وصحبه ( الذهبية ) في النيل بادئين رحلتهم ومعهم من مهمات المدرسة الأحرمة والسجاجيد وألواح الصفيح والمراكيب وغيرها . وهكذا أصبحت بعثة رفاعة إلى الخرطوم حقيقة ، وبقي أمر لإنشاء المدرسة في انتظار الخروج إلى حيز الوجود ، وهو الأمر الذي لن يتم قبل مرور ثلاث سنوات كاملة ، أي في شهر يوليو سنة ١٨٥٣ .

والآن ، ما هي الحقيقة حول تأخير افتتاح المدرسة طوال هذه السنوات الثلاث ؟ ، وما هي الظروف التي أدت إلى هذا التأخير ؟ ، أكبار الرجال ممن كانت لهم علاقة بافتتاح المدرسة وارتبط مصيرها برأيهم وتدبيرهم - مثل حكامداري السودان - قد كانوا وراء تأخير افتتاح المدرسة ؟ ، أم هو رفاعة بطل هذا الدور ؟ ، أم هو عباس الذي كان همه الوحيد - على

ما يقول القاتلون - من بعثة رفاة إلى الخرطوم هو نفية وإبعاده ولا شيء.  
بعد ذلك وأبعد منه ؟ أم هم التلاميذ قد لعبوا هذا الدور ؟ أم أن هناك  
عوامل أخرى غير هذه العوامل والظروف جميعاً أدت إلى هذا التأخير ؟  
ومحاولة لوضع النقاط فوق الحروف سنحاول البحث في دور هؤلاء جميعاً  
في تأخير افتتاح المدرسة .

هل الحكمدارون هم المسؤولون عن تأخير افتتاح المدرسة ؟ :  
أما عن الحكمدارين ، فقد أعطى الحكمدار عبد اللطيف باشا ( أكتوبر  
١٨٤٩ - ديسمبر ١٨٥١ ) مهمات المدرسة وطرايشها إلى فرق الجيش .  
لما أن الحكمدار إسماعيل باشا أبو جبل ( يونيو ١٨٥٢ - أبريل ١٨٥٣ )  
أوضح للقاهرة أن إرسال مهمات بديلة من مصر إلى السودان « وإرسال  
أربعة خوجات وواحد حكيم بدل المتوفين ، وهذا وهذا جميعه بدون لزوم » ،  
وفقط استجداد مصروفات على هذا الإقليم بدون فائدة « (١) ، وكان هذا  
الحكمدار قد أشار - قبل ذلك بيومين - إلى بعض الضباط « الذين استغنى  
عن خدماتهم في المدرسة بحسب الترتيب الموضوع لها » (٢) .

وعلاوة على ذلك كانت الإدارية تستغل هيئة التدريس في الأعمال  
العامّة بعيداً عن المدرسة وأعمالها ، ويقرر الحكمدار على باشا سرى ( مارس  
- ديسمبر ١٨٥٤ ) في أحد تقاريره المرفوعة إلى القاهرة تبريراً لذلك أنه  
« ليس لدينا مهندسون : : : يقومون بإنشاء المباني التي تدعو الحاجة إلى  
بنائها بالأقاليم السودانية وغير ذلك من الأعمال التي تخص بالهندسة » .

الوثيقة رقم ٨ دور ص ٢٠٨  
بتاريخ غرة جمادى الأولى ١٢٦٩ .

الوثيقة رقم ٩  
بتاريخ ٢٩ ربيع الآخر ١٢٦٩ .

( ١ ) دفتر ١١٣ وارد المعية سرى  
من حكام السودان

( ٢ ) راجع دفتر ٦٤٠ ديوان الكتبخدا  
إلى الباشا الباشمعارون



أو يتخذون الوسائل الهندسية في الجيش ، عندما يراد سوقه إلى جهة « (١) » .  
ولقد بلغ الأمر بالحكماء إسماعيل باشا أبو جبل ( يونيو ١٨٥٢ - أبريل ١٨٥٣ ) إلى أن يصدر أمراً بإرسال رفاة بعيداً إلى الشمال للتقرير عن عدد السواقي وأشجار النخيل 'بمديرية دُنُقلة' لوطنة لربط الضرائب على الأهالي ، ولقد جاء الاعتراض على هذا التكليف من جانب القاهرة ، وكان من بين ما خاطبت به الحكماء : « وقد استغرننا هذا الأمر ، فإنكم لعل علم بأن رفاة بك قد عيّن لتنظيم مدرسة الخرطوم ووضع أسس الدراسة فيها ، فإذا كان الأمر كذلك فكيف تقدمون على استخدامه بمهمة تحقيق تعداد النخيل بحجة عدم وجود وظيفة له ، وعليه نطلب منكم إعادته إلى المهمة التي أرسل من أجلها إلى السودان - وهي تنظيم مدرسة الخرطوم ، كما نطلب منكم بيان الأسباب التي حملتكم على هذا التصرف الغريب » (٢) .

هل رفاة هو المسئول عن تأخير افتتاح المدرسة ؟ :

أما عن رفاة فليس هناك من شك في أنه قد آلمه في السودان شعوره بأنه منفي ، فقد كان ذلك الشعور يملأ نفسه ، ويفرض نفسه على فكره ، وبطل منه على لسانه ، فقد ظل رفاة يشكو مراراً الشكوى من وجوده هناك (بوسيلة نظارة مدرسة الخرطوم) ، ونقل شكواه هذه وشكوى زملائه - وفي طلبهم بيومي أفندي - الرحالة الأجانب الذين قابلوهم في الخرطوم . فقد فتح كل من رفاة وبيومي قلبيهما لأندرية مللي (٣) - على سبيل المثال - وأسراً إليه بأن حالهما في الخرطوم - مثل غيرهما من المنفيين في السودان -

(١) صورة كتاب على باشا سري - حكام السودان رقم ٦٧ المرسل إلى كتيبة الخديوي في ٤ من ذي الحجة ١٢٧٠ ، وكان ذلك الكتاب بعد صدور الأمر بإغلاق المدرسة .

(٢) دفتر رقم ٦٤٥ ديوان الكتيبة الوثيقة رقم ٩١

إلى حكام السودان بتاريخ ٢٢ ربيع الآخر ١٢٦٩ .

Melly, André : op. cit. p. p. 130-31. (٣)

أسوأ من حال العبيد ؛ لأن هؤلاء — إذا حدث ما يكدرهم من ساداتهم — الحق في الاعتماد عنهم وفراقهم والانتقال إلى سادة جدد بالبيع ، في حين إن الموظفين المصريين لا يمكنهم أن يرفضوا وظائفهم أو يقدموا استقالاتهم أو يتركوا البلاد ، بل عليهم أن يذهبوا إلى حيث يراد إرسالهم — حيث لا شيء غير العمل في صمت وبلا شكوى ، كما أفضى رفاة إلى الرحالة الأمريكي بايارد تيلور<sup>(١)</sup> بأن اثنين من هيئة التدريس بالمدرسة قد توفيا متأثرين بسوء الجو ، وأن عباساً يرمى إلى التخلص من بقية هيئة التدريس — ومن بينهم رفاة — على نفس هذا النحو . ويقرر هذا الرحالة أنه بعد أن استمع إلى هذا الحديث الذي أمتن عليه الدكتور ريتز (Dr. Rietz) — قنصل النمسا في الخرطوم وأحد الحاضرين وصديق رفاة — أحس : بمראה اللعنات التي يكيلها رفاة على رأس حاكمه الجلاد .

ومما زاد من شكوى رفاة وهو في السودان تألمه لما أصاب معظم زملائه من مرض ووفاة ، وبخاصة بيومي أفندي صديقه وصفيته في مصر وفرنسا والسودان ، ويظهر ذلك في قوله : « فلبث ( في الخرطوم ) نحو الأربع سنين بلا طائل ، وتوفي نصف من بمعنى من الخوجات المصريين »<sup>(٢)</sup> . كما يقول تلميذه ومترجم حياته السيد صالح مجدى<sup>(٣)</sup> : « ولم يرجع معه رحمه مولاه إلى القاهرة المحروسة إلا من كان في أجله فسحة » . وقد دهش الرحالة الإنجليزي هاملتون<sup>(٤)</sup> الذي رأى رفاة في الخرطوم — وكان قد رآه

( ١ ) Taylor, B. : op. cit. p.p. 292-930

( ٢ ) مناهج الألباب : ص ٢٦٥ .

ويردد رفاة نفس الحقيقة في قوله :

وحسبي فتكها بتصنيف محبي كأن وظيتي ليس الخداد

( مناهج الألباب : ص ٢٦٧ ) .

( ٣ ) المصدر السابق .

( ٤ ) op. cit. p. 323 .

— مصر قبل ذلك بعدة سنوات — لعظم ما أصاب صحته من بدهور بسبب  
جوّ السودان :

وأخطر عامل — بدون شك — في تشكيل حال رفاعة عند ما يبتعد عن  
مصر هو شوقه للوطن والأهل والعيال . أليس رفاعة هو الذى أنشأ القصائد  
يبدى فيها الحنين إلى مصر وهو في باريس المبعوث المعزز المكرم ، حيث  
ألف الحياة هناك وألفته ، وحيث بهرتة فنونها وشغل بتقصي أسرارها ،  
أليس هو القائل — مع ذلك — وهو هناك :

|                            |                           |
|----------------------------|---------------------------|
| مع أنى ، والله مذ فارقتهم  | ما طاب لي عيشي وصفوزماني  |
| لكنتى صبة أصون تلهفي       | حتى كأني لست باللهفان     |
| وبياطن الأحشاء نار لو بدت  | جمراتها ما طاقها الثقلان  |
| أبكى دماً من مهجتي لفراقهم | وأود ألا تشعر العينان (١) |

وإذا كان هذا حال رفاعة وهو في باريس ، فماذا ننتظر أن يكون عليه  
حاله وهو في السودان على غير المرام ؟ . من الطبيعي أن نشند به العلة هناك ،  
وفي ذلك نجده يقول وهو في الخرطوم :

|                          |                            |
|--------------------------|----------------------------|
| وقد فارقت أطفالاً صغاراً | بطهطا دون عودي واعتيادي    |
| أفكر فيهم سرّاً وجهرّاً  | ولا سمري يطيب ولا رقادي    |
| وعادت بهجتي بالنأي عنهم  | بلوعة مهجة ذات اتقاد       |
| أريد وصالحهم والدهر يأبى | مواصلتي ويطمع في عنادي (٢) |

ومما ساعد على شعور رفاعة بالحرمان ما أقدمت عليه سلطات القاهرة.

(١) تخلص الإبريز : ص ٥٦ .

(٢) مناجح الألباب : ص ٢٦٧ .

من حجز مرتبه حتى يتم جرد الكتبخانة الإفرنجية بمدرسة الألسن (١) :

ولا شك في أن إرسال بعض الموظفين المعاقبين إلى الخرطوم ، بما كان يرتبط بذلك من دوام شكواهم وتلون صورته النقل إلى السودان عندهم بصورة النفي أكثر من أية صورة أخرى ، كان له أثره في شدّ أزر ما يرفاعة من قلق وألم وهم ، وخاصة إذا كان بعض زملائه في المدرسة من هؤلاء الموظفين المعاقبين مثل : إبراهيم أفندي سالم باشمهندس القليوبية السابق (٢) وأحمد أفندي طائل المدرس بالمهندسخانة (٣) . كما كانت الإجراءات التي تتخذ عند سفر الموظف إلى السودان ترسب في ثنايا النفس مشاعر الإبعاد والنفي ، فحمد موسى أفندي أحد أعضاء البعثة ، والذي لم يكن حاضراً بأثناء سفر رفاعة بك قبض عليه بمعرفة الضبطية ، وأرسل إلى الديوان لأجل إرساله إلى الخرطوم (٤) :

من أجل ذلك كله وصف رفاعة حاله في السودان بأنه كان « مهلبل بالخاطر ، وسحاب المموم عليه مواطر ، بالبعد عن الأهل والدار ، والتعرض

(١) استمر هذا المرتب محجوزاً حتى بعد إغلاق المدرسة بأكثر من شهر . فقد أغلقت المدرسة في ٢٧ شوال سنة ١٢٢٠ ، وفي غرة ذي القعدة من نفس السنة كتب إلى حاكم السودان : « بحجز مبلغ عشرة آلاف قرش من استحقاقه وذلك بحجز استحقاقه » :

دفتر ١٦٠٩ وارد معية الوثيقة العربية رقم ٢١ ص ١١

من ديوان المدارس بتاريخ ٣ محرم ١٢٧١ .

(٢) دفتر ٥٩ صادر معية عربي الوثيقة رقم ٢١ ص ٢٢٢

إلى حاكم السودان بتاريخ ١٨ رجب ١٢٦٧ .

(٣) الدكتور أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم في مصر ج ١ ص ١١٦ .

(٤) دفتر رقم ٢٣٩٤ وارد الدواوين والأقاليم الوثيقة التركية رقم ٢٣

من مدير المدارس بتاريخ ٢ شعبان ١٢٦٦ .

لحوادث الدهر والأخطار» (١). وكان ذلك سبباً في ضيق صدره بهذه الغربة الطويلة ، وفي أنه لم ير من السودان سوى الناحية المظلمة ؛ فلقد كان يود كما جاء على لسان السيد صالح مجدى (٢) « أن يبق بمصر في تلك الحقبة للنعم والانتفاع حيث لم ير لحيته في وطنه فائدة لهذا الانتجاع ، ولذا كان ينشد بلسان الحال هذين البيتين :

يرومون لى غير المكان الذى له      خلقت وبعضى منكرك من بعضى  
فقولوا لبدر الأفق يترك سماءه      وتحيل من أجل التواضع فى الأرض،

ومن أجل ذلك أيضاً كان رفاعة فى حديثه عن بيئة السودان الطبيعية فاسياً كل القسوة ، كما يظهر فى قصيدة له نظمها بالخرطوم (٣) :

وما السودان قطّ مقام مثلى      ولا سلمى فيه ولا مسعادى  
بها ريح السموم يشم منه      زفير لظى فلا يطفئيه وادى  
عواصفها صباحاً أو مساء      دواماً فى اضطراب واطراد

كما يظهر انطباع رفاعة عن بيئة السودان الطبيعية - وذلك بعد أن رجع إلى مصر بمدة طويلة - فى قوله : « وإنما فقط لما توجهت بالقضاء والقدر إلى بلاد السودان ، وليس مما قضاه الله مفرةً ، أقمت برهة خامد الهمة بجاما القريحة فى هذه الملمة ، حتى كاد أن يتلفنى سحر الإقليم الفايير بحره وسمومه ، وبلغنى فيل السودان الكاسر بخروطومه (٤) ،

أما انطباع رفاعة عن بيئة السودان الاجتماعية فقد برز فيه الأثر الدفين

( ١ ) رفاعة رافع الطهطاوى : مواقع الأفلاك فى وقائع تايبك ص ٢٢ .

( ٢ ) المصدر السابق .

( ٣ ) مناهج الألباب : ص ٢٦٧ .

( ٤ ) مواقع الأفلاك : ص ٤ .

للشعور بالإبعاد والنفي إلى أقصى حد ممكن ، إذ لم ير في تلك البيئة إلا كل قبيح مرذول ، ويظهر ذلك في قوله (١) :

ونصف القوم أكثره وحوش      وبعض القوم أشبه بالجماد  
فلا تعجب إذا طبخوا خليطاً      بمخ العظم مع صافي الرماد  
ولطخ الدهن في بدن وشعر      كدهن الإبل من جرب القراد

ثم يميل رفاعة بعد ذلك إلى سرد بعض العادات المرذولة المنتشرة بين بعض الأهالي ، ويشير إلى أن هذه العادات من الكثرة لدرجة لم يتمكن معها من إحصائها وتقييدها على الورق ، وفي ذلك يقول (٢) :

وشرح الحال منه يضيق صدرى      ولا يحصيه طرسى أو مدادى  
وضبط القول فالأخير نزر      وشر الناس منتشر كالجراد  
وأولا البيض من عرب أكانوا      سواداً في سواد في سواد

وربما كانت فكرة رفاعة السابقة عن السودان وأهله — كما جاءت في مقدمة ( تلخيص الإبريز في تلخيص باريز ) (٣) عند حديثه عن مراتب الخلق

— ويقصد رفاعة بالمعبرة الأخيرة « ويبغى » . . . . . إنه كان يخاف أن يموت في مدينة الخرطوم التي عرفت بهذا الاسم نسبة إلى خرطوم الفيل الذي يشبه في الشكل لبان الأرض المحصور بين النيلين الأبيض والأزرق وحيث تقوم المدينة . وقد وصف أحد تلاميذ رفاعة — وكان يقيم في الخرطوم — المدينة وصفاً أوضح فيه ما رأى رفاعة فيها وأكثر : انظر الملحق الثاني .

( ٢٠١ ) مناهج الأبواب : ص ٢٦٧ .

راجع : منتخبات من آثار رفاعة عن السودان : المنتخب الأول ص ١٤١ .

( ٣ ) ص ٧ . ويقسم رفاعة مراتب الخلق إلى مراتب ثلاث : المرتبة الأولى وهي مرتبة الحمل المتوحشين ، والمرتبة الثانية مرتبة البرابرة الخشبيين ، والمرتبة الثالثة مرتبة أهل الأدب والظرف والتحضر والتقدم والتمصر المتطربين . ومثال المرتبة الأولى عند رفاعة حمل السودان ، ويقصد بهم كل من جمعهم الحمجية من قبائل السودان . ومع ذلك فهو يحسم تقسيم سنار إلى المرتبة الثالثة .

من حيث المدينة ، قبل أن تطأ قدماه أرض السودان ويقترّب من أهله ،  
بما شكّل في عقله هذه الصورة عنهم ، فلما جاء إلى السودان والألم يعصر  
قلبه انبسطت أمامه الصورة وتطاوت ظلالها ،

ولهذا كله كان رفاة في الخرطوم دائم الشكوى ، وحقّ له أن يلجأ إلى  
كل من يرى فيه أملاً في المساعدة في الخلاص من المأزق الذي تردّى فيه ؟  
وكان من بين من وضع رفاة رجاءه فيهم حسن باشا كنتخدا مصر ، فقد  
أنشأ قصيدة (١) برسمه : رجاء نشأ من أحوال تلك الأحوال ، ولكن لم  
ينسِر إرسال تلك القصيدة فخمّس قصيدة أخرى (٢) يمدح فيها للرسول عليه  
الصلاة والسلام ويتوسّل إليه أن يردّه سالماً إلى وطنه وأهله ، وختم هذا  
لتخميس بقوله - وهو مما زاده على القصيدة :

رفاة خمّس المنظوم مرتجلاً      قريضه وهو بالخرطوم قد وجلا  
قالت هوائفه : بالله كن رجلاً      فإن جدك طعاً لاخطوب جلا  
فأمر خطبك هذا الجدل يحسمه  
ماذا العناء وأهل البيت قد كفلوا      عوداً جميلاً وما عنى وعدهم غفلوا  
لا تعن بالغير جدّوا السير أو قفلوا      هم أجهلوا أمرهم للكيد واحتفلوا  
والأمر لله : ما يرضاه يحكمه

ومن أجل الرجوع إلى مصر أيضاً حمّل رفاة الرحالة الأمريكي  
هايارد تياور ، وهو راجع من الخرطوم إلى مصر ، خطاباً إلى القنصل العام  
للبريطاني في مصر ، ومضمون الخطاب غير معروف إذ لم يشر الرحالة

(١) مناهج الأبواب : ص ٢٦٥ - ٢٦٩ . وكل ما سجل في الصفحات السابقة من  
أقوال رفاة المنظومة منقول من هذه القصيدة . راجع : منشآت من آثار رفاة عن السودان :  
المنتخب الأول ص ١٤١ .

(٢) مناهج الأبواب : ص ٢٦٩ - ٢٧٩ .

إليه ، إلا أنه يقرر أنه كان من أجل المساعدة في صدور الأمر بعودة رفاعه إلى مصر (١) ، كما حمل رفاعه هذا الرحالة نفسه رسالة أخرى إلى أهله بطهطا ، وفحوى هذه الرسالة غير معروف ، وإن كان من الطبيعي أن يثب فيها رفاعه شوقه إلى أهله وأن يأمل في قيامهم بمساعدته على العودة إلى مصر ، وكل ما سجله الرحالة عن هذه الرسالة الأخيرة هو سطور قليلة تحكى قصة نزوله بمدينة طهطا لتوصيلها إلى عائلة رفاعه (٢) .

ولقد نقل الرحالة جورج مللى (٣) أيضاً عدة خطابات لرفاعة إلى مصر ، ولكنه لم ينصح عن هي رسالة إليهم ولا عما تحويه .

وواضح أن استخدام رفاعه لهذين الحاليتين في حمل مكاتباته إلى مصر يرجع إلى ما يمكن أن يسنح لهما من فرص الاتصال بالمراجع السياسية الأجنبية في مصر ، وإمكان التأثير عليها للسعي لدى الحكومة في مصر من أجل التصريح لرفاعة بالعودة . كما يرجع إلى أن البوسنة الحكومية لم يكن من عملها في ذلك الوقت نقل المكاتبات الشخصية بين السودان ومصر ، فقد كان عملها قاصراً على المكاتبات الرسمية ،

رفاعة هو المسئول الأول عن تأخير افتتاح المدرسة :

كما سبق تنضح الحال التي كانت تحيّم على حياة رفاعه في الخرطوم . ولولا

Taylor, B. : op. cit. p. 380.

(١)

ويدعى هذا الرحالة أن الحالة قد وصلت لرفاعة في الخرطوم إلى درجة أنه كان يشارك

Taylor, B. : op. cit. p. 291.

من مجتمعهم من الأجانب تعاطى الخمر :

Taylor, B. : op. cit. p. 516.

(٢)

وانظر أيضاً : فتحي رفاعه : من حياة رفاعه رافع الطهطاوى ص ١٩٢ - ١٩٣ من :

مهرجان رفاعه رافع الطهطاوى .

١ راجع : الملحق الثالث ص ١٧١ .

Melly, G. : op. cit. p. 130.

(٣)



هذه الحال ولها ثقل كبير في الحكم له أو عليه ، وأولا للدور الذي لعبه بعض الحكمدارين في تأخير افتتاح المدرسة لكان من الممكن ألا نغني رفاة من تحمل قدر أكبر من التسبب في هذا التأخير : وهكذا ، كان وزر تأخير افتتاح المدرسة يقع على عاتق كل من رفاة وبعض أولى الأمر في السودان من الحكمدارين — وإن كنت أميل إلى تحميل رفاة القسطنطين الأوفى منه .

إن افتتاح المدرسة لن يكون كثيراً على همة رفاة إذا أراد . ويمكن أن نقول إن الحكمدار سليم باشا صائب ( أبريل ١٨٥٣ — مارس ١٨٥٤ ) لم يستغرق افتتاح المدرسة منه وقتاً طويلاً عندما أراد ، فقد وصل هذا الحكمدار إلى الخرطوم في شهر شعبان سنة ١٢٦٩ وتم افتتاح المدرسة فعلاً في شوال التالي — هذا علماً بأن شهر رمضان شهر أجازة وراحة للموظفين (١) ، ومعنى ذلك أن المدرسة استغرق افتتاحها شهراً واحداً من يوم وصول الحكمدار إلى الخرطوم : ولقد كان قرار رجب ١٢٦٦ الصادر بإنشاء المدرسة حاوياً لكل التنظيمات الخاصة بها : فقد فصل وحدات واجبات كل من رفاة والحكمدار وكل الهيئات التي لها صلة بافتتاح المدرسة ، كما تحدث عن التلاميذ ، وسهّل ونظّم مسائل الطعام والملابس والمرتبات ، ووضع النقاط فوق الحروف في موضوع الخدم والموظفين الذين لم يسافروا من مصر ، كما أن رفاة كان قد اصطحب معه عند مغادرته مصر هيئة التدريس ومهمات المدرسة . وكان يمكن إرفاعة أن يستعين بتبعية الحكمدارية ودبوان المدارس لإدارة واحدة — وهي دبوان الجهادية — في دفع عجلة مهمته إلى حين التنفيذ وإلى الأمام في أقصر وقت . وكان يمكن إرفاعة أن يعترض على قيام الحكمدار بتوزيع أدوات المدرسة ومهمات على الجيش وأن يشكو الأمر

للقاهرة ؛ فقد جاء إلى الخرطوم مسئولاً عن تنفيذ مهمة خاصة ومحددة هو رجلها ، وكان موظفاً كبيراً ورتبته ( أمير آلاي ) ، وله في رئيس مجلس الدعاوى قدوة ومثلاً ؛ فقد رمى القفاز في وجه الحاكم ليجرد أنه كان يظن أن الأخير يريد أن يحوّل ما للمجلس من سلطة (١).

وإذا كان كل ذلك كذلك فإنه يمكن الردّ على ما اعتبره الدكتور أحمد أحمد بدوي (٢) سبباً لتأخر رفاة وكونه لم ير من السودان سوى الناحية المظلمة ، وهذا السبب مرجعه عنده إلى ما قاساه رفاة في إنشاء مدرسة الخرطوم ، في بيئة لم تعرف الدراسة النظامية من قبل ، وما عاناه من المتاعب في تأسيسها ، وعلى نفس الأساس يمكن الردّ على الرحالة الأمريكي بايارد تيلور - الذي قابل رفاة في الخرطوم أكثر من مرة ، إذ يقول بأن رفاة قد أمضى في السودان سنة ونصف سنة دون أن يصل إليه من القاهرة أي أمر بخصوص المدرسة (٣). كما يمكن الردّ على رفاة نفسه حين قال :

ثلاث سنين بالخرطوم مرّت بدون مدارس تطبق المراد  
وكيف مدارس الخرطوم تُرجى هناك ودونها خرط القنادل (٤).

### المساجلات بين القاهرة والخرطوم بشأن افتتاح المدرسة :

مضى عامان مذ غادر رفاة وبعثته القاهرة إلى السودان في الثالث الأخير من شهر رجب سنة ١٢٦٦ ( الثالث الأول من شهر يونيو ١٨٥٠ ) دون أن تسمع القاهرة شيئاً عن افتتاح المدرسة ، مما حدا بها إلى الكتابة إلى حاكم دار

---

( ١ ) راجع الصفحات الأخيرة من هذا الفصل ، وهي التي تحت عنوان : لماذا أفاق

سميد المدرسة ؟ .

( ٢ ) رفاة رافع الطهطاوي ص ٥٠ .

Taylor, B. : op. cit. 292.

( ٣ )

( ٤ ) مناهج الألباب : ص ٢٦٨ .

السودان في ٥ رجب سنة ١٢٦٨ هـ بأن إنشاء مدرسة الخرطوم لم يتحقق حتى اليوم مع ما لها من الأهمية القصوى ، وما يُرجى من تحقيقها من مساعدة لأبناء السودان . . . . ، ومن أجل ذلك نأمل منكم أن تبادروا إلى الأخذ بالأسباب والوسائل التي من شأنها أن تكفل تحقيق هذه الرغبة ، وأن توافوا بالخطة التي اتبعتموها لتحقيقها<sup>(١)</sup> . وكانت القاهرة قد كتبت قبل ذلك بخمسة أيام إلى رفاة في السودان بأنه « قد مضت مدة من عهد ما توجهتوا هذه الجهة ، ولم كان يحضر من طرفكم إفادة عما صار في بحر هذه المدة من التعليمات ، وبيان ما اكتسبوه التلامذة من العلوم وما مقدار عددهم وبيان درجات كل منهم أيضاً ، حتى كان يعلم بهذا الطرف كيفية الجارى بالمدرسة من التحصيلات ، ويجرى العرض عنه كما هو مطلوب »<sup>(٢)</sup> .

ولم يطل انتظار القاهرة ، فبعد حوالي ثلاثة أسابيع أخبرها حكمدار السودان بأن المدرسة لم تُنشأ بعد ، وأن تلاميذها لم يُجمعوا ، وأن ملابسهم قد وُزعت على فرق الجيش بأمر الحكمدار السابق<sup>(٣)</sup> . أما رفاة فقرر أن أغلب التلامذة الذين جُمعوا للمدرسة هربوا بمعرفة أهاليهم « بالجلال المستعدة » ، فضلاً عن أنهم « ناس غلابظ العقول » ، وأن ثلاثة من المعلمين قد توفوا ، وخلاصة الأمر أن المدرسة قد صارت « اسماً بدون جسم »<sup>(٤)</sup> .

الوثيقة رقم ٨٧  
إلى حكمدار السودان .

الوثيقة رقم ١٦٩٥  
في غاية جهادى الثانية ١٢٦٨ .

الوثيقة رقم ٣٩٠  
في ٢٢ رجب ١٢٦٨ .

الوثيقة رقم ١  
في غرة شعبان ١٢٦٨ .

( ١ ) دفتر رقم ٦٢٩ ديوان الكتبخدا  
بتاريخ ٥ رجب ١٢٦٨

( ٢ ) دفتر ٢٠٩ ( مدارس عربى )  
إلى ناظر الخرطوم

( ٣ ) دفتر ٦٣١ ديوان الكتبخدا  
من حكمدار السودان

( ٤ ) دفتر ٢٣٢ ( مدارس عربى )  
من ناظر مدرسة الخرطوم

وبلوح أن رفاعة كان يأمل - مع هذه الصورة المظلمة للمدرسة التي لا تبشر بالخير - أن يقنع المسؤولين في القاهرة بالعدول عن تجربة التعليم العصري في السودان ليعود هو وزملائه إلى مصر . وتخدم الظروف مساعي رفاعة ووجهة نظره في المدرسة ومكان إقامتها ، فقبل مرور شهرين على إرسال تقريره هذا يصل إلى القاهرة خبر وفاة بيومي أفندي (قيمقام مدرسة الخرطوم) (١) . وبعد أربعة أيام فقط يصل إلى القاهرة خبر يفيد شدة وطأة المرض على أحمد أفندي طائل الرجل الثالث بالمدرسة ، وتقرير مفتش الحكما بأنه من غير الممكن أن يبل من مرضه وهو في السودان لشدة الحرارة ، وأنه لا شفاء له إلا بالتوجه إلى مصر ، ثم يُطلب من القاهرة بعد ذلك « صدور الأمر بما يستصوب » (٢) .

ولكن عباساً كان عنيداً ، فأصدر أمره إلى حكامدار السودان بضرورة افتتاح المدرسة ، وأنه لا يمكن أن تقف مهماتها التي وُزعت على فرق الجيش عقبة في سبيل ذلك ؛ فقد جرت العادة على أن الملابس اللازمة للعساكر بالسودان لا تُرسل إليهم من مصر بل تُدبّر في السودان ، ولذلك فعلى الحكمدار أن يدبر للمدرسة ما تحتاج إليه من المهمات بدلاً من تلك التي وزعت على الجند . كما أوصى عباس رفاعة بوجوب الرجوع إلى الحكمدار في هذا الشأن ، وناشده بذل الحمة والاجتهاد في العمل على افتتاح المدرسة والمبادرة إلى موافاة القاهرة بعدد التلامذة الذين التحقوا بها ، وإحاطتها أولاً بأولاً بأخبار سير الدراسة بها ، وجميع ما يختص بشئونها (٣) .

(١) دفتر ٩٤ وارد المعية عربى - الوثيقة رقم ٢٧

من حكمدار السودان ، في ٢٢ رمضان ١٢٦٨ ( وورد في ٢١ شوال سنة تاريفه ) .

(٢) دفتر ٩٤ وارد المعية عربى - الوثيقة رقم ٣٨

من حكمدار السودان بتاريخ ٢٥ رمضان ١٢٦٨ ( وورد في ٢٥ شوال ) .

(٣) دفتر ٢١٥ مدارس عربى - الوثيقة رقم ٣٢٥٦

إلى ناظر مدرسة الخرطوم بتاريخ ٥ شوال ١٢٦٨ ( وورد في ٢٥ شوال ) .

، دفتر ٦٤ ديوان الكنتندا - الوثيقة رقم ١١

إلى حكمدار السودان بتاريخ ٩ ذى الحجة ١٢٦٨ .

ولما كانت القاهرة تريد حقاً افتتاح المدرسة فقد سارعت إلى إرسال أساتذة بدل الأساتذة المتوفين . وكان قد توفى حتى ذلك الوقت - غير الطبيب سليمان السيوطي أفندي - أربعة أساتذة هم : بيومي أفندي وعلي أفندي عثمان ومحمد أفندي مرسى والشيخ إسماعيل فرغلي ، أما الأساتذة الجدد فكانوا (١) :

١ - الصاغقول أغاسي خليفة أفندي

٢ - اليوزباشي مصطفى سراج أفندي

٣ - اليوزباشي عبد الله حسين أفندي

٤ - الملازم أحمد عبد الله أفندي

هذا غير الطبيب القائم مقام مصطفى السبكي أفندي .

وقد عملت الجهات المختصة - وبخاصة ديوان الكتبخدا ومدير المدارس ومدير قنا وإسنا - على سرعة إرسال هؤلاء الموظفين إلى الخرطوم ليتم افتتاح المدرسة . وقد أدى إصرار القاهرة وهمة الحكمدار سليم باشا صائب ( أبريل ١٨٥٣ - مارس ١٨٥٤ ) إلى افتتاحها فعلاً . وقد زف هذا الحكمدار إلى القاهرة بشري « فتح مدرسة التلامذة وإدارة العملية بها طبقاً لما رغوب لإرادة ولي النعم الآصفي ، وما وجد من اللوازم المقتضية جاری التدارك في استحضاره » ، وطلب الحكمدار من القاهرة إصدار الأمر بإمداده بالأصناف الآتية حيث أنها غير موجودة بمخازن السودان ومعتاد جلبها من المحروسة :

---

( ١ ) دفتر ٦٣٥ ديوان الكتبخدا - الوثيقة رقم ٤٣٩

إلى مأمورية السكة الحديد بتاريخ ١٨ صفر ١٢٦٩ .

، دفتر ٦٤٣ ديوان الكتبخدا - الوثيقة رقم ٣٣٣

إلى مدير قنا وإسنا بتاريخ ١٠ ربيع أول ١٢٦٩ .

|       |   |
|-------|---|
| عدد ٤ | دفاتر لزوم عملية المدرسة                              |
| ١٠٦   | دسمة ورق أبيض   |
| ٢٥٠   | طربوش بتواعيده  |
| ٢٥٠   | طقم جوخ آلاى مخيط طراز المبتديان والتجهيزية           |
| ١     | طقم مطبخ لغاية إلى ٢٥٠ نفر من القزان إلى القروانة حكم |
|       | مرتب المدارس المصرية                                  |
| ١٣٥٠  | أفة أرز مبيض كفاية مرتب التلاميذ سنة كاملة (١) .      |

وكان رد القاهرة على طلب الحكمدار أن هذه الأصناف قد تم إرسالها إلى المدرسة مع رفاة بك ، فإذا كان قد وزع منها شيء إلى جهة أخرى غير المدرسة بمعرفة الحكمدارية يُطلب منها بدلها ، وأما عن الأرز وطقم المطبخ هذا يوجد بالباقرخانة وشون الغلال فيجربى ما يلزم بمعرفة المالية ، وكذا ما يلزم هذه المدرسة سوى كان من دفاتر وأوراق . . . . . (٢) .

### مشكلة جمع التلاميذ :

وإذا كانت المدرسة قد افتتحت إلا أن البحث عن التلاميذ لم يكن سهلاً ، وكان حكام السودان قد أحاط كبار شيوخ السودان بوجوب إلحاق أولادهم بالمدرسة ، وعمل على ترغيبهم في هذا الأمر ، ولاحظ الحكمدار أن هؤلاء الشيوخ سيحققون أولادهم بالمدرسة إذا كانوا سيدرسون فيها العلوم الدينية ، أما إذا كان القصد من المدرسة إعدادهم للجهادية فلأنهم يخشون

(١) دفتر ١١٧ وارد المعية - الوثيقة العربية رقم ٣٥  
من حكام السودان بتاريخ ٧ شوال ١٢٦٩ .  
(٢) دفتر ١٢١ وارد المعية - الوثيقة العربية رقم ٢  
من ديوان المدارس بتاريخ ١٦ الحجة ١٢٦٩ .

العاقبة (١) ، ويبدو أن افتتاح المدرسة في جنوب مدينة الخرطوم قريباً من معسكرات الجيش (٢) قد أوحى إلى الأهالي بوثيق صلتها بالجيش وأنه الموئل الطبيعي لخريجها ، وكانوا يستكبرون أن ينضموا إلى الجيش صلاوة على أنهم كانوا ينفرون من الجندية ؛ فقد كانت صورة الجندي غير النظامي بسوطه وغدارته وطربوشه ووجهه الصارم لا تفارق أذهانهم ، وترتبط فيها بمحملات جمع الضرائب والقبض على الرجال في الخرطوم وغيرها من المدن وإرسالهم إلى ( الكاره ) — وهى الثكنة العسكرية — للعمل فيها مسخرة في الأعمال اليومية العادية .

وقد جاء في قرار إنشاء المدرسة أن يُقيّد بها مائتان وخمسون طفلاً من أولاد الأهالي في كل جهات السودان ، ومن أبناء الترك الذين استوطنوا هذه الديار . ولكن ما أمكن جمعه من تلاميذ المدرسة لم يكن من أولاد الأهالي بل كانوا من أبناء موظفي الحكومة من المصريين العاملين هناك (٣) .

وقد وصلت صعوبة البحث عن التلاميذ إلى درجة رُفِي معها أنه لا مانع من قبول المدرسة لتلاميذ كان أبوه أحد ضباط الجيش بالسودان وتوفي بدلا من معاشه (٤) . كما أبلغ الحاكم دار القاهرة « عما بدر من القرى المجاورة

---

( ١ ) دفتر ٦٣٢ ديوان الكتبخدا — الوثيقة رقم ٢١٢

من حكامدار السودان بتاريخ ٢٥ صفر ١٢٦٩ .

( ٢ ) من رواية للأستاذ عبد الله عبد الرحمن أثناء زيارتي لسيادته بأمر درمان في شهر أبريل سنة ١٩٥٧ . وقد حدد الأستاذ مكان المدرسة في الخرطوم الحالية بمحل تلاقى توفيق جنوب قطارة ( المسلمية ) مباشرة .

( ٣ ) مناهج الألباب : ص ٢٨٠ .

& Hamilton, J. : op. cit. p.p. 343-44.

( ٤ ) دفتر ١١٩ وارد الماعية — الوثيقة العربية رقم ٦٠٧

من حكامدار السودان بتاريخ ٢٤ شوال ١٢٦٩

للخرطوم من جراء إلحاق أولادهم بالمدرسة<sup>(١)</sup> ، وأقل ما بدر منها هو تهريب الأولاد إلى الصحراء<sup>(٢)</sup> ، و « الجبال المستبعدة » كما يقول رفاعة : ومع ذلك فإن الحكمدار يقرر أنه متى تم تنظيم المدرسة فإنه سوف يعمل بالترغيب والتشويق على إكمال عدد التلاميذ إلى المائتين والخمسين<sup>(٣)</sup> .

وكان عدد تلاميذ المدرسة عند افتتاحها واحداً وثلاثين تلميذاً : وعلى الرغم من مجهود الحكمدارين فإن هذا العدد لم يزد بعد شهر ونصف شهر سوى سبعة تلاميذ . وحتى بعد مضي سبعة شهور على افتتاح المدرسة كانت المكاتبات بين القاهرة والخرطوم تدور حول « توريد باقى الأنفار اللازمة للمدرسة »<sup>(٤)</sup> . ويبدو أن عدد التلاميذ لم يزد فى أى وقت من العام الدراسى عن الثمانين إلا قليلاً ، ويقرر الرحالة هاملتون<sup>(٥)</sup> بعد زيارته للمدرسة التى كان قد مرَّ على افتتاحها ثمانية شهور أن عدد تلامذتها كان أربعة وثمانين تلميذاً . وكان التلميذ يُقبل بالمدرسة بين من السابعة والثانية عشرة على أن يكون سليم البدن عارياً من الأمراض وبزيتاً من السقامة متمتعاً بالصحة والعافية<sup>(٦)</sup> .

### نظام المدرسة والمواد الدراسية ونظم التدريس بها :

وقد سارت المدرسة على نسق المبتدئان فى مصر من حيث النظام ومواد

(١) دفتر ٦٣٢ وارد المعية - الوثيقة رقم ٥٢٤

من حكمدار السودان بتاريخ ٢٨ شوال ١٢٦٩ .

(٢) Melly, O. ; op. cit, p. 99.

(٣) دفتر ١١٩ وارد المعية - الوثيقة العربية رقم ٦٠٧

من حكمدار السودان بتاريخ ٢٤ شوال ١٢٦٩ .

(٤) دفتر ٢٩٢ مدارس عربى - الوثيقة رقم ٤

إلى حكمدار السودان فى ٥ صفر ١٢٧٠ .

(٥) Hamilton, J. ; op. cit, p. 343.

(٦) الدكتور عبد العزيز أمين عبد المجيد : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٤ .



الدراسة ونظم التدريس . وكان المفروض أن ينتقل التلاميذ بعد الانتهاء من المرحلة الابتدائية إلى المرحلة التجهيزية ، ولكن لم يتسن للمدرسة القيام بهذا الأمر لأن الدراسة فيها لم تستمر إلا سنة دراسية واحدة . وكان يتبع المدرسة خزانة من خمسة فصول لتعليم القرآن تضم الأطفال بين سن الخامسة والعاشر . ويقرر الرحالة هاملتون أن الفقيه في هذه الخزانة كان يدون الآية من القرآن على السبورة ، فينقلها الأطفال كأحسن ما ينقلون على ألواح من الصفيح نصرها لهم المدرسة ، ثم يقومون بحفظها عن ظهر قلب وهم يتبادلون إلى الأمام والخلف بشكل رتيب ، مصوبين عيونهم على الألواح دون أن يكون معنى ذلك أنهم يعرفون معنى ما يرددون .

وكان التلميذ يلحق عند أول دخوله المدرسة بالصف الثالث من صفوف المبتدیان ، فإذا نجح في آخر العام يُنقل إلى الصف الثاني ، وبعد عام يُنقل إلى الصف الأول ، وهذا النظام يبين أثر النظام الفرنسي في التعليم في المدارس المصرية في ذلك الوقت . وبعد إتمام الدراسة في المبتدیان يُنقل التلميذ إلى المدرسة التجهيزية . ومدة الدراسة على هذا الأساس ثلاث سنوات في المبتدیان ، ولكنها ربما زيدت إلى أربع سنوات لمن يحصل له عطل في دروسه بسبب الأمراض وغيرها (١) . وكانت المدرسة داخلية على غرار مثيلاتها في مصر . وكان يُصرف لكل تلميذ حصير وسجادة عسكرية ومخدة من القطن وحرام بلدي للغطاء (٢) . ويجلس التلاميذ أثناء الدرس على حصير على الأرض .

والعمل في المدرسة — كالمعمل في سائر إدارات الحكومة — من الصباح حتى قبل غروب الشمس بساعة وربع الساعة . وكان التلاميذ وهيئة التدريس

---

( ١ ) الدكتور عبد العزيز أمين عبد المجيد : المصدر السابق ج ٢ ص ٣٥ .

( ٢ ) الدكتور أحمد عزت عبد الكريم : التعليم في عصر محمد علي ص ٦٢٩ .

يتناولون طعام الغذاء جالوساً على الأرض المفروشة بالأبراش ، ثم يقومون  
بصلاة العصر ، وبعده تُستأنف الدراسة . وكانت الصلوات الخمس تُقام في  
المدرسة ما عدا ظهر الجمعة الذي كان لا بد من صلاته في مسجد  
الخرطوم (١) .

وكانت العقوبات في المدرسة هي التأنيب العلني أولاً والحجز في المدرسة  
ثانياً ، والحجز مع الاقتصار على تناول الخبز والماء ثالثاً ، والكراباج أى  
الضرب على الأقدام رابعاً ، ومدى السلطة في توقيع هذه العقوبات تحددها  
الأوامر واللوائح (٢) .

ومواد الدراسة بالمدرسة هي القرآن الكريم والقراءة والكتابة والنحو  
والصرف والحساب والهندسة والخط (٣) : ويزيد الرحالة هاملتن على ذلك  
اللغة التركية (٤) ، ويضيف الدكتور عبد العزيز أمين عبد المجيد (٥) تعليم  
الفرائض الدينية . كما كان يُهتم بحسن الخط لدرجة كبيرة ، وقد لاحظ  
هاملتن (٦) ذلك الأمر عندما حضر أحد الامتحانات الدورية وعابن خطوط  
بعض التلاميذ . ويمكن أن نضيف إلى هذا كله التدريب العسكري والأناشيد

---

( ١ ) الشيخ محمود القباني : مذكراته عن الحكم المصري بالسودان .  
ص ١٤٧ من الجزء الأول من كتاب : السودان من التاريخ القديم إلى رحلة البعث  
المصرية لعبد الله حسين .

( ٢ ) الدكتور محمد إواد شكرى ، عبد المقصود العنالى ، سيد محمد خايل : المصدر  
السابق ص ٦٤٠ .

( ٣ ) الدكتور أحمد عزت عبد الكريم : التعليم في عصر محمد علي ص ٦٨١  
، رفاعة رافع الطهطاوى : مناهج الألباب ص ٢٨٠ .

( ٤ ) Hamillon, J. : op. cit. p. 344.

( ٥ ) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٣٥ .

op. cit. p. 345. ( ٦ )

العسكرية والوطنية ، كما كانت تُراعى في المدرسة قواعد السلوك والنظافة إلى حد كبير .

وبظهر أن المدرسة لم تكن تصرف كتباً للتلاميذ ، وأنهم كانوا يستعينة في الدراسة بالكتابة على الأوراق والألواح ، وإن كان للدكتور عبد العزيز أمين عبد المجيد (١) يرى أن التلاميذ كانوا يقرءون في كتب النحو والصرف والمدرس أمامهم يستمع إليهم : والحقيقة أن رفاة كان قد طالب من ، في أثناء العام الدراسي إمداده بكتب في اللغة التركية والنحو والصرف والحساب مما يُستعمل في المدارس المصرية (٢) ، كما طلب كتباً جديدة أواخر العام الدراسي استعداداً للعام الدراسي الجديد وهي : مصاحف السنوسية في التوحيد ، وتحفة وتأديب الأطفال ، وهندسة ، وحساب وجغرافيا وخط . : . الخ (٣) .

وقد تومم رفاة في عشرة من التلاميذ التفوق على أقرانهم فحفظ بقراءة القرآن وحفظه وإعراب الأجرومية وحفظ مفردات وجمل ثم وخط الثالث والحساب ليكونوا قريبا مقدمين على أقرانهم وقلقوا للمدرسة (٤) : ولقد صادفت رفاة عند افتتاح المدرسة مشكلة هـ (القلقوات) ، فقد كان في حاجة إلى عدد منهم يقودون التلاميذ من الأساتذة . ولقد تقدم إلى المدرسة أحد التلاميذ وله من السن عشرون عا

(١) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٥ .

(٢) دفتر ٢١٩ مدارس عربي - الوثيقة رقم ٢  
من ناظر مدرسة الخرطوم في ١٧ جمادى الأولى ١٢٧٠ .

(٣) دفتر ٣٢٩ مدارس عربي - الوثيقة رقم ١٠  
من مدرسة الخرطوم في ١٣ رمضان ١٢٧٠ .

(٤) دفتر ٣١٩ مدارس عربي - الوثيقة رقم ٦  
من حكايات السودان في ٣ ربيع ثان ١٢٧٠ .

وكان رأى رفاة أنه لما كان هذا التلميذ يبلغ من العمر هذا السن « وحسن الخط وذا دراية في القراءة فاستصوب أن يكون ريس فرقة تلامذة برتبة اسبران ثانی بمهية شهرى مائة قرش ومرتببات تفر ، ويكون مساعد إلى الخوجة الخطاط الموجود الآن بالمدرسة ، وأوضح أيضاً عن لزوم اثنين رويسا فرق خلاف الشخص المذكور بمائلة الجارى بالمدارس المصرية ، وأراد ترتيبه أولى من حضور مثله من المحروسة ، وبالأشعة ترتيب مدرسة الخرطوم لم مذكور عن ترتيب رويسا فرق . . . (١) .

### نظام الامتحان في المدرسة :

وكان المفروض أن يقوم بالتفتيش على المدرسة كل ثلاثة أشهر مندوب من شورى المدارس ثم يرفع تقريراً إلى هذا المجلس ، ولكن لم يُعثر بالوثائق على مندوبين قاموا بزيارة مدرسة الخرطوم ، ولعل بعد الشقة بين الخرطوم والقاهرة قد حال دون هذه الزيارة . وكان هناك سجل يُعرف منه مدى تقدم جميع التلاميذ بكافة المدارس تُرفع بياناته سنوياً إلى الشورى حتى يمكن للوقوف على مدى تقدمهم ويُقرر نقلهم إلى مدارس أرقى ، كما كان المفروض أن يُعقد امتحان سنوى تحت إشراف أحد أعضاء الشورى لاختيار التلاميذ الذين يُنقلون إلى المدارس التجهيزية (٢) ، ولكن مدرسة الخرطوم لم تستمر الدراسة فيها حتى ينتهى التلاميذ من الدراسة الابتدائية ،

وكان الامتحان يُعقد عادةً في اليوم الخامس عشر من شهر شعبان « وفي شهر ربيع الأول ١٢٧٠ — وهو الشهر السادس من العام الدراسى —

---

(١) دفتر ١١٩ وارد معية — الوثيقة العربية رقم ٦٠٧ ص ٩١٩

من حكمدار السودان بتاريخ ٢٤ شوال ١٢٦٩ .

(٢) الدكتور محمد فؤاد شكرى ، عبد الله صود العناني ، سيد محمد خليل : المصدر

أبلغ رفاة ديوان المدارس « أنه حصل الاجتهاد في تعليم التلاميذ ، و شاء الله في شهر شعبان ١٢٧٠ يصير تقدم التلاميذ وعمل امتحان بحضور أرباب العرفان » (١) . وقد سئرت القاهرة لهذا الأمر : وعقد الامتحان في موعده في اجتماع حافل حضره حكام السودان ورئيس مجلس الدعاو والأعيان والعلماء والعُمدة والقاضى كما أُرسِل جدول الامتحان | القاهرة .

ولم يُسجل شيء عن نظام الامتحان ، ولكن الشيخ محمود القبا كفانا مشقة البحث في هذه المسألة ، فوصف امتحان مدرسة الخرطوم | كان أحد تلامذتها على عهد الخديو توفيق ، فقال :

« أول امتحان شهدته في السنة الأولى استعداد المدرسة واستعدادنا ، : . . ، وينتظر الامتحان نحواً من عشرة أيام ، جاءت موس الخرطوم ودُعِيَ الحكام وأكابر الموظفين فدخل الحكمدار رؤوف | وحوله جميع الموظفين العظام وصدحت الموسيقى بالسلام ، ثم قُدم الشربات والقهوة والسجائر ، ثم تقدم اثنان من تلامذة وأنشدا قص بأصوات شجية من نظم الباشخوجة الجداوى ، وكانت القصيدة رائية ومطلع

بشموس أشرقت الدار أم لاحت فيها أبدار  
وإلى نجليه أبادير وحسين طالت الأعمار  
ويدوم سعادة باشانا ويبلغه ما يختار

ثم أثنى الحكمدار على النظام وفتش صغوفنا وانصرف ، وثمة لجان : لجنة لامتحان العربى ، ولجنة لامتحان الفرنسى ، ولجنة للمع ومعههم ضباط وموظفون .

ولا يذهب المتحنون لبيوتهم للغذاء ، ولكن تقدم لهم الخراف والديكة  
والحاربات مدة أيام الامتحان .

وتقدمت للامتحان فامتحنوني شفهيًا - وكان كل الامتحان شفهيًا ،  
والحساب على التختة ، والخط يقدم ( في ) كراسة الخط التي تسمى غرلة ،  
وكنت أنا قد اجتزت الامتحان بتفوق في الفرنسية والعربية والحساب ،  
ولكن خطي لضعف في يدي لم يكن جيدًا فأرادوا أن يسقطوني في الامتحان ،  
وكان الفائز إذا خرج يُعرف بضرب الموسيقى ، ويستمر هكذا  
الامتحان (١) .

### صدور الأمر بإغلاق المدرسة :

لم تستمر الدراسة في المدرسة غير سنة دراسية واحدة طولها حوالي عشرة

---

( ١ ) من ذكريات الطفولة في السودان للشيخ محمود القبانى :

ص ٣٠ - ٣١ من التربية في السودان ج ٤ ص ٣ . للاكثور عبد العزيز أمين  
عبد المحيد .

وأباوير وحسين اللذان جاء ذكرهما في القصيدة هما ولدا ردوف باشا حكا دار السودان .  
ويقرر القبانى أنه كان في السنة الثانية ويليس كسوة التشريف .  
وانظر أيضاً : التربية في السودان ج ٢ ص ٩١ - ٩٢ .

وكان هذا الامتحان الذى تحدث عنه الشيخ القبانى سنة ١٢٩٧ هـ ( وبدأ في ١٨ شعبان )  
وقد جاء وصفه في جريدة الوقائع المصرية نمرة ٩٣١ ( ٢٤ شوال ١٢٩٧ = ٢٩ سبتمبر ١٨٨٠ ) .  
كما جاء وصف امتحان سنة ١٢٩٨ هـ ( وبدأ في ٢١ شعبان ) في الجريدة نمرة ١١٩٤  
( ٢٣ رمضان ١٢٩٨ = ١٨ أغسطس ١٨٨١ ) .

وكان في المدرسة التى تلم فيها الشيخ القبانى قديمان : قسم داخلي بحافى ، وقسم يرفانى  
بمصرفوات . وكان الشيخ من تلاميذ القسم البرافى الذى كانت تدرس فيه اللغة الفرنسية  
اختيارياً . أما المدرسة أيام رفاعة فكانت كلها داخلية ، ولم يكن يدرس بها اللغة الفرنسية ؛  
راجع « التربية في السودان » ج ٣ ص ٢٧ .

شهور ، كما قطعت حوالى شهرين من عامها الدراسى الثانى ، فقد زف  
الحكمدار سليم باشا صائب خبر افتتاح المدرسة إلى القاهرة بتاريخ ٧ شوال  
١٢٦٩ وبدأت الامتحانات فى ١٨ شعبان ١٢٧٠ ، واستمرت الدراسة  
بالتفرقة الثانية بالنسبة للتلاميذ الناجحين طوال شهر رمضان الذى كانت تقتصر  
فيه الدراسة على النصف الأول من اليوم حتى الظهور<sup>(١)</sup> - مع أنه كان  
لإجازة لكل الموظفين ، وفى ٢٧ شوال ١٢٧٠ ( ٢٣ يوليو ١٨٥٤ ) صدر  
الأمر بإغلاق المدرسة<sup>(٢)</sup> بعد وفاة عباس مباشرة وتولية سعيد باشا بأسبوع  
واحد ، ومعنى ذلك أن المدرسة استمرت حوالى ثلاثة عشر شهراً هى كل  
عمرها ، وأن رفاعة أمضى فى الخرطوم أربع سنوات .

ولم يمكث رفاعة فى الخرطوم حتى تجرد حسابات المدرسة بل غادرها  
إلى مصر ومعه من بقى من الأساندة تاركاً وراءه على أفندى محمد -  
المهندس والمدرس بالمدرسة - وكيلاً عنه ليراجع حساباتها وينتجم دفاتها ،  
لأنه « صفر اليد بحيث لا يستطيع الحصول على الزاد الذى يمكنه من  
الوصول إلى تلك الديار ( أى مصر ) ، وقد رضى واختار البقاء هنا ريثما  
تنتهى الحسابات المذكورة على أن يُصرف له مستحقه للمدة التى تمضى  
خلال قضاء تلك الحسابات ولوازم السفرية فيُرسل إلى القاهرة أسود

---

( ١ ) الشيخ محمود القبانى : من ذكريات الطفولة فى السودان

ص ٣١ من ج ٢ من « التربية فى السودان » للدكتور عبد العزيز أمين  
عبد المجيد .

( ٢ ) صدر أمر إغلاق المدرسة بالأمر السامى رقم ٢ ، وجاء ذلك فى كتاب حكمدار  
السودان إلى كتيختها الخديوى رقم ٦٧ بتاريخ ٤ ذى الحجة ١٢٧٠ .  
أنظر أيضاً : محفظة « معية تركى - الوثيقة رقم ١٥٠ ص ٢٥ ، بتاريخ ١٩  
محرم ١٢٧١ .

هذا وقد توفى عباس فى ١٨ شوال ، وصدر أمر الإغلاق فى ٢٧ شوال .

بأمثاله (١) : وكان ديوان المدارس قد أمر بصرف بعض استحقاق رفاة  
- الذي كان محجوزاً - لسداد الديون البرأنيّة وتجهيز لوازم السفرية ،  
« ولأجل عدم تكدير المير المولى إليه » (٢) .

وهكذا رجع رفاة إلى مصر ، وانتهت قصة مدرسة الخُرطوم أيام  
عباس بعد أن سقط صريعاً في الميدان خسة من أساتذتها توفوا بالخُرطوم ،  
ودفنوا بها ؛ وهم :

١ - القائم محمد بيوى أفندى ؛

٢ - الملازم ثان محمد مرسى أفندى

٣ - الملازم ثان على عثمان أفندى

٤ - الشيخ اسماعيل فرغلى

٥ - الطبيب سليمان السيوطى أفندى

لماذا أغلق سعيد المدرسة ؟ :

والآن ، ما هى العوامل التى حلت سعيداً على إغلاق مدرسة  
الخُرطوم ؟ :

قد يقال إن العامل الأول فى ذلك هو الرغبة فى استقدام رفاة إلى  
مصر ، فهو من ( رجالات محمد على ) ورأيهم معروف فى أحقية سعيد  
للعرش بعد وفاة عباس ، وهذا ما دعا سعيداً كذلك إلى إبعاد على مبارك

( ١ ) صورة كتاب على باشا سرى حكمدار السودان الأرسل إلى كتبخدا الخديوى

نمرة ٦٧ فى ٤ ذى الحجة ١٢٧٠ .

( ٢ ) دفتر ٣٢٣ مدارس عربى - الوثيقة رقم ٢ ص ٥٤

إلى حكمدار السودان فى ٨ ربيع الأول ١٢٧١ .

( ٨ - رفاة )



( رجل عباس ) إلى شبه جزيرة القرم ضمن الحملة المصرية الزاهية لمحاربة روسيا ، معتمداً في ذلك على أنه من المهندسين العسكريين المتخصصين في هذا الفن ، ومتناسياً خبرته بالتعليم وقيامه على شئونهِ في عهد عباس . ويُردّ على ذلك بأن سعيداً كان يمكن أن يرسل إلى الخرطوم بديلاً لرفاعة أو كان يريد استمرار المدرسة ، أو على أبسط الفروض يرسل على مبارك بعينه بدلاً منه وقد كان ( أمير آلاى ) مثله :

والواقع أن سعيداً أغلق المدرسة لأنه كان يرى هذا الأمر ؛ فعنده في التعليم كان أسوأ من عهد عباس في مصر والسودان على السواء ؛ فإذا كان عباس قد افتتح ( المفروزة ) في مصر سنة ١٨٤٩ ومدرسة الخرطوم سنة ١٨٥٠ ، فإن سعيداً قد أغلق هذه سنة ١٨٥٤ وتلك في السنة التالية . ولكن كيف يتفق سلوك الوالى هذا مع تلك الضجة الكبرى حول حاجة السودان إلى الموظفين كما ظهرت وبشكل ملح على عهد عباس ؟

لقد كان السودان في الحقيقة يعج بمشاكل عديدة على رأسها الناحية الإدارية :

فقد كان بعض الموظفين يجتنى فجأة عن الأبصار عندما يُراد إرسالهم إلى السودان<sup>(١)</sup> ، ولم يكن أمر الموظفين الذين يكرهون العمل في السودان ويريدون العودة منه يقف عند حد إرسال طلبات العودة المتلاحقة إلى مصر أو الاستعانة بالسلطان لبلوغ هذا الأمر ، بل كان بعضهم بسبب كثرة المتاعب لحكومة السودان ويسىء إلى الأمن في البلاد عندما يجيب مسأله<sup>(٢)</sup> ؛ وعند

( ١ ) عند تعيين الشيخ أحمد ( الواعظ ) مثلاً - كما جاء في ص ٦٨ - عضواً ببعثة رفاعة إلى السودان اختفى ولم يعثر له على أثر ، وعين محله الشيخ محمد المسكاوى حتى يلحق بالبعثة قبل أن تغادر البلاد .

( ٢ ) عند ما لم يستجب عباس إلى طلب السلطان بإرجاع الموظفين الثلاثة الكبار العاملين في السودان إلى مصر - كما جاء في ص ٨٤ - هرب أحدهم ، وهو محمد حبيب بك مدير

وفاة عباس وتولية سعيد العرش كان تبادل الاتهامات بين حكمدار السودان ورئيس مجلس الدعاوى ، الشخصية الإدارية الثانية في البلاد ، قد مرّ عليه وقت ليس بالقصير : وإذا كان الحكمدار ، على ما كان يظن رئيس المجلس ، يريد أن تكون له اليد العليا وأن يحوّر ما لمجلس الدعاوى من سلطة فقد كان بعض ما استند إليه رئيس المجلس في ثورته « أنه وحده الذى عينه مجلس الأحكام والمالية ، وأن الحكمдарية منسوبة إلى جهة أخرى » (١) : كما كان رئيس المجلس ومعه الأعضاء يهتمون الحكمدار بتعاطي الرشوة ، والعجيب أن الحكمدار اعترف بذلك ، بل وأضاف أن ما يأخذه من أى شخص يثبتته

= بربر إلى سراكن ، وكانت تقبع السلطان في ذلك الوقت ، وبعد هربه ضبط الحكمدار عدة مكاتبات صادرة منه إلى كل من : نائب القنصل النمساوى بالخرطوم ، ورئيس مجلس الدعاوى ، وأحد كبار التجار بالخرطوم . وكان رأى الحكمدار في هذه المكاتبات إمكان قيام الأخيرين بهت بنور الشقاق والتفاق بين الموظفين والأهالى والعمل على فرارهم إلى سراكن (١) . وربما كان الحاج حبيب بك في الرجوع إلى مصر له اتصال بالدخل على تعظيم مساهمى عباس في إحلال ابنه من بعده على العرش ، فقد كان حبيب بك كما يقول بايارد تيلور (ب) « ابن سقاء قامت بتربيته وتربيته أرملة إسماعيل باشا بن محمد على » .

(١) محفظة رقم ٢ مائة - الوثيقة رقم ٥٤٠

وقد أرفق الحكمدار مع خطابه الذى أرسله إلى مصر متضمناً الحوادث أربعة خطابات موجهة من حبيب بك إلى كل من :

- ١ - هجان القنصل النمساوى - بتاريخ ٣ شعبان ١٢٧٠
- ٢ - حضرة أخينا أبو على ( وهو التاجر ) - بنفس التاريخ
- ٣ - هجان للقنصل النمساوى - بتاريخ ١٠ شعبان ١٢٧٠
- ٤ - عائلته في الخرطوم - بدون تاريخ

op. cit. p. 290.

(ب)

(١) محفظة رقم ٢ مجلس الأحكام - الوثيقة رقم ٣٥

بتاريخ ٧ شعبان ١٢٦٩ .

دفتره ويعرضه على عباس باشا بعد بيان سبب أخذه (١) :

كان كل ذلك مما أقلق سعيداً إلى حد كبير ، لدرجة بدا فيها أنه قد فقد الثقة في الموظفين المصريين بالسودان المنقولين من مصر ، الأمر الذى ادعى معه الكتاب الأجانب أن سعيداً الغارق في هذه المشاكل قد فكر في ترك السودان وإرجاعه إلى مشايخه الوطنيين يديرونه كما كان عليه الحال قبل الفتح المصرى . والواقع أن هذا الادعاء ليس فيه ظل من الحقيقة ، فإن سعيداً كان قد وجد الحل لمشاكل البلاد — ومنها مشكلة الموظفين — كما هداه تفكيره وعلى طريقته الخاصة . وقد أعلن هذا الحل عند زيارته للسودان ( بين نوفمبر ١٨٥٦ ، وفبراير ١٨٥٧ ) ، ففي ٢٦ يناير سنة ١٨٥٧ أصدر في الخرطوم مراسيم أربعة (٢) ضمت كل الدوجيمات التى رآها تصلح من حال البلاد في جميع النواحي ، وقد كان من هذه الإصلاحات الاستعانة بالمشايخ ورؤساء النواحي والقرى والعشائر في حكم البلاد ، والسير بهمة في مودنة الوظائف وطرد الموظفين الذين ثبت إهمالهم — وعلى رأسهم حكامدار السودان ورئيس مجلس الدعاوى . وكان من رأى سعيد أن فرصة تنفيذ هذه الإصلاحات مواتية أكثر في حالة الرجوع إلى مركزية الحكم في البلاد (٣) .

( ١ ) محظوظة رقم ٣ مكية — وثيقة رقم ٣٣٣ عريضة شكوى خاصة بسوء تصرفات الحكمدار

من رئيس مجلس الخرطوم وأعضاء المجلس بتاريخ ١٩ فى الحجة ١٢٧٠ .

( ٢ ) Abbate, Le Dr. O. ; De l'Afrique centrale, ou Voyage de S. A. Mohamed Said Pacha dans ses Provinces du Soudan. Paris, 1858, p.p. 29-46.

( ٣ ) دفتر ١٨٨٦ أوامر عربى الوثيقة رقم ٢٠

أمر إلى حكمدار السودان ٢ جمادى الثانية ١٢٧٣ .

جريت مصر طريقين لحكم السودان :

أما الطريقة الأولى فهى أن يمثل الوالى في البلاد حاكم عام ( حكمدار ) يقوم على رأسه

ومعنى ذلك أن سعيداً جابه مشكلة نقص الموظفين في السودان ، وتجنب بعضهم طريق العمل القويم بنقل إدارة البلاد تدريجياً إلى الجنس الوطني ، وتقليل حاجة البلاد إلى الموظفين بتحويل الإدارة فيها إلى النظام المركزي بما يستتبعه من إلغاء الحكمادارية ومكاتبها في الخرطوم . وعلاوة على ذلك اتجه سعيد إلى العمل على ضمان إقبال الموظف على العمل في السودان وقيامه بعمله خير قيام بإصلاح شروط الخدمة فيه ، فأصدر لائحة جديدة للخدمة في السودان كان أهم ما فيها مكافأة العاملين هناك من الضباط الجهادية بحسبان السنة سنتين في المعاش والسماح لمن يريد منهم الإياب إلى مصر بالرجوع في أى وقت يشاء (١) :

= الإدارة بمثابة نائب ملك ، ويتولى جميع السلطات المدنية والعسكرية فيها ، ويكون همزة الوصل بين السودان والقاهرة . وقد جرب العمل بهذه الطريقة منظم أيام الحكم المصري تقريباً . والحكم على هذا الشكل لامركزي لأن سلطاته هنا في أيدي الحاكم العام المقيم في الخرطوم . ويشار إلى الطريقة الثانية بالمركزية في الحكم ، لأن سلطات الحكم هنا مركزة في القاهرة والعلاقات الإدارية بين السودان وحكومة القاهرة قائمة عن طريق مدير كل مديرية مباشرة - حيث أن صلة الوصل بينهما ، وهو الحكمدار ، لا وجود له . وقد جرى العمل بهذه الطريقة أكثر من غيرها أيام سعيد باشا .

( ١ ) دفتر ٧ عربي أوامر جهادية - الوثيقة رقم ٢٨٦

إلى ناظر الجهادية بتاريخ ذى الحجة ١٢٧٩ .

ويجب ألا تقلل من خطورة تخلف الموظفين المتقولين من مصر عن السفر إلى السودان الذي عابه سعيد على طريقته ، فقد أدى تخلف أحد الموظفين الكبار عن تسليم عمله في السودان على عهد إسماعيل إلى تغيير نظام الإدارة في البلاد . فعند وفاة الحكمدار موسى حدى باشا ( مايو ١٨٦٢ - مايو ١٨٦٥ ) صدر الأمر بتعيين الحكمدار جعفر باشا صادق خلفاً له . ولكن نظراً لاتساع الحكمادارية في أواخر أيام موسى حدى فقد رأى الخديو إسماعيل تقسيمها إلى مناطق ثلاث يحكم كل منها حكمدار مستقل ، هل أن يتمارن الحكمدارون الثلاثة فيما بينهم على المصالح المشتركة ، ويكون كل منهم مسئولاً مباشرة أمام القاهرة . ولكن لم يقدر لهذا التقسيم أن يتخذ ، ويبدو أن من أسباب ذلك امتناع أحد الحكمدارين الثلاثة - وهو حكمدار الخرطوم - عن الذهاب إلى السودان معتذراً بمرضه . فرجع إسماعيل ثانية إلى حكم البلاد على أساس الحكمادارية الواحدة ، وثبت جعفر باشا صادق حكمداراً :

وتمكننا عالج سعيد أمر الموظفين المنقولين من مصر للعمل في السودان  
بمنحهم بعض الحوافز المادية وطمأنتهم على العودة إلى مصر في أي  
وقت يشاءون ، وبما يتفق مع نظرتهم إلى العلم والمتعلمين ويتضمن  
إغلاق المدرسة :

---

١٣٧٧ دفتر معية تركي - وثيقة رقم ١  
إرادة صادرة إلى حاكم جزيرة سنار ، بتاريخ ٩ محرم ١٢٨٢ .  
ونفس الدفتر ، ص ٦٦  
إرادة صادرة إلى حاكم السودان ، بتاريخ ٢٤ محرم ١٢٨٢ .

## بعثة رفاعة الطهطاوى فى الميزان

حصاد مدرسة الخرطوم أيام رفاعة :

والآن ، ما هو حصاد مدرسة الخرطوم أيام رفاعة ، وما هى الآثار التى نتجت عن رحلته إلى السودان ؟ .

عند زيارة الرحالة الإنجليزى هاملتن<sup>(١)</sup> للمدرسة دهش للقدر الذى استوعبه التلاميذ من المعارف فى عام دراسى واحد ، وهو يقرر بعد الزيارة أن السنوات الطويلة التى تضيع فى التعليم فى الشرق حتى يصبح المتعلمون شيئاً مذكوراً تختصر هنا فى الخرطوم إلى حد كبير ، وأن السرعة الملحوظة عند الأولاد فى الحفظ والاستيعاب قد تمت الاستفادة منها إلى أكبر درجة ممكنة .

وإذا كانت المدرسة لم تستمر إلا عاماً دراسياً واحداً فإن حصادها كان أكثر من أن يُقاس بتلك المدة البسيطة ، وفى ذلك يقول رفاعة : « وكذلك قد تعلم فقهاء الخرطوم ممن معى من المشايخ تجويد القرآن الشريف وعلم القراءات حتى صاروا ماهرين فى ذلك » .

ولقد كان من أثر وجود رفاعة فى الخرطوم واحتكاكه بالطبقة المثقفة من الوطنيين ما ظهر فى المكاتبات الرسمية المتبادلة بين الحكمدارية والقاهرة من طلب الأولى المستمر للكتب لصرفها إلى القضاة ( والنواب ) بالثن ، وظهر النشاط فى مصر فى البحث عن هذه الكتب فى المطابع الأهلية ومطبعة بولاق والكتبخانة وعند الأفراد ( والكتيبة ) لإرسالها إلى السودان . ومن هذه الكتب : مذهب الإمام أبى حنيفة النعمان ، وحاشية الصاوى على

الجلالين ، وحاشية الطحطاوى على الدر المختار . وقد وصل الاهتمام بإمداد  
قضاة السودان وعلمائه بالكتب المطلوبة إلى درجة أخذت معها طبعة بولاق  
على عاتقها طبع بعض هذه الكتب (١) .

ولكن ، أليس هناك من أثر يدلنا على تلاميذ المدرسة ، وماذا  
كان من أمرهم بعد أن تركوا المدرسة إلى ميدان الحياة الواسع ؟ .

يشير رفاعه إلى أن بعض طلبة المدرسة قد وظفوا في المدارس التي  
افتتحها إسماعيل باشا في السودان بعد ذلك (٢) . وربما كان من تلاميذ  
المدرسة بساطى بك الذى يقول فيه غردون باشا أثناء حكمه داريته الأولى  
( فبراير ١٨٧٧ - يناير ١٨٨٠ ) - وكان بساطى بك سكرتيره : « إنه  
تعلم في مدرسة الخرطوم على يد علامة مشهور ، ووصل إلى درجة من  
العلم تجعله يقف على قدم المساواة مع خريجي أرقى معاهد أوروبا ، فقلما  
يوجد موضوع لا يمكنه التحدث فيه بطلاقة ، وهو يعرف حكومة البلاد  
وضرائعها وتاريخها ، كما يمكنه الكتابة بعدة رموز دون النظر إلى  
مفاتيحها (٣) » .

رفاعة الخرطوم غيره الذى عرفناه في مصر وباريس :

إن هذا الذى أشرنا إليه حصاد قليل في الواقع لأربع سنوات أمضاها  
رفاعة في الخرطوم .

---

( ١ ) تضمنت إحدى المكاتبات « ورود الإفادة من المطبعة بأن طبع من حاشية  
الطحطاوى ٣٣ ملزمة من أصل ٤٩٥ ملزمة » : دفتر ٧٤ وارد معية ~ المكاتبة العربية  
رقم ٢١ ص ٢٥ « من ديوان المدارس بتاريخ ٢٨ القعدة ١٢٦٨ .

( ٢ ) مناهج الأبواب : ص ٢٨٠ .

Hill, G. B; Colonel Gordon in Central Africa, 1874-1879. ( ٣ )

footnote of p. 398 & p. 273 & p. 399.

فقد كانت الخرطوم عند الأجانب مزيداً من الكسب المادى والعامى ،  
وقلعة للمدينة على حواف البربرية . وكان أكثر الأوربيين من تجار  
الخرطوم يمضون خمسة شهور في رحلة الجنوب وباقى السنة في  
الخرطوم يتنفسون نسيم الراحة والاستجمام بعد عناء السفر والانتقال بينما  
هم يستعدون في نفس الوقت للرحلة الجديدة : وهذا هو شأن المدينة عند  
جماعة الرحالة والمغامرين والمكتشفين من المقيمين الأوربيين الذين كانت  
المدينة عندهم محطة البدء والنهاية لرحلاتهم وكشوفهم<sup>(١)</sup> .

أما الخرطوم عند رفاعة ، فقد كانت الجحيم الذى أرسله عباس إليه ،  
فلم ير فيها إلا كل نقيصه وسيئة . ففيها كان يشكو الإبعاد ، والحنين إلى  
الوطن والأهل ، وحجز المرتب ، و وفاة الخلائق . ولقد كان في طبيعة  
المدينة ما ساعد على تكوين حال رفاعة ، فقد كان العيب كل العيب الذى  
يشكو منه سكان المدينة هو انخفاض سطحها وتجمع مياه الأمطار في  
المنخفضات التى تنخلله ، مع عدم وجود أسلوب مجد لتصرف هذه المياه  
التي كانت تملأ الجو بأبخرتها العفنة التى تسبغ فيها جيوش البعوض الذى لم  
يكن قد اكتشف دوره في ذلك الوقت في الإصابة بالحصى المنقطة ، وهى أخطر  
الأمراض على حياة السكان . وفي الحقيقة لقد كانت نوبات الأمراض  
والأوبئة مظهراً حتمياً من مظاهر الحياة في مجتمع الخرطوم ، وقد قيل

---

(١) كانت الخرطوم - على هذا النحو - عند شايبه لونج ، وكانت تذكره  
بباريس : فحلاتها تزخر بكل المطالب من حجر ودخان وملابس جاذزة الأمر الذى يذكره  
جمحات (البائيه رويال) ، وحدائقها تمتلئ بكل أصناف الفاكهة وهو ما يذكره  
بختاق (الشواليزيه) ، و غفاف النيل الأزرق تطل عليها أشجار النخيل من دل تذكره  
والشوارع الرئيسية بباريس :



إن أمراض الصيف تقضى بشكل منظم على نصف سكان المدينة من البيض في كل عام . كل هذا في الوقت الذي عُرِف فيه عن رفاة شدة التطير (١) :

لهذا عاش رفاة في الخرطوم في معظم أحواله خامد الهمة . فإين هو من أيام باريس حين أمضى خمسة أعوام في دأب علمي منقطع التطير ؟ ، وأين هو من أيام مدرسة الآسن حينما « كان ربما عقد الدرس للتلامذة بعد العشاء أو عند ثلث الليل الأخير ومكث نحو ثلاث أو أربع ساعات على قدميه في درس اللغة أو فنون الإدارة والشرائع الإسلامية والقوانين الأجنبية ، وكذلك كان دأبه معهم في تدريس كتب فنون الأدب العالية . . . » ، ومع ذلك كان هو بشخصه لا يفتر عن الاشتغال بالترجمة أو التأليف ، وكانت مجامع الامتحانات لا تزهر إلا به ؟ » (٢) .

وهكذا جنحت برفاة نفسه وهو في الخرطوم فكان رفاة آخر غير الذي عرفناه في مصر وباريس ، وهو الذي قال فيه تلميذه السيد صالح مجدى (٣) : « كان مجلسه رضوان الله عليه مجلس مسرات وأفراح ، وطال ما حضرته وسمعت فيه من لطيف المزاح ما يشهد له بركة المزاج ويقضى بأن سحره الحلال يقوم للعليل مقام العلاج .

(١) يظهر هذا التطير في غرب رفاة إلى بلدته طابعا وإقامته بها عدة أشهر عندما ظهر مرض الطاعون في القاهرة سنة ١٨٣٤ . وأنه ليلج أحد الأبواب ذات يوم إلى قاعة صديق فإذا القارئ يتلو ( أينما تكونوا يدرككم الموت ) ، فتشام ولم يدخل :

على عزت الأنصاري : رفاة في أمته ص ١٩٦ - ١٩٧ من : مهرجان رفاة رافع الطهطاري .

« انظر الملحق الرابع ص ١٧٤ : « وصف لمدينة الخرطوم سنة ١٨٥٣ » أثناء وجود رفاة بها .

(٢) نتائج الألباب : ص ٥

بذكرني في أنفاسه رائد الصبا  
وما رق زهر الروض إلا تبسمت

ويذكرني في أسفار أسفاره الغجر  
لناظر عيني منه آدبه الزهر .

لذلك نجد رفاعة مع قدرته الفائقة في تذوق الغث والthin من نظم الحياة في المجتمعات الجديدة التي يحمل بها بعاداتها وتقاليدها ، كما ظهر في كتاب رحلته إلى باريس - لم يستوقف نظره أثناء إقامته بالخرطوم من نظم الحياة والعادات والتقاليد في السودان ما أثار قلمه (١) ، وكان مجال الكتابة فيها غنياً كل الغنى ، ولو كان رفاعة في أحواله العادية ما فاته أن يسجل ما رأى ، وأن يخرج أسفاراً لرحلته يعبر فيها عن انفعالاته بالسكان والمكان ، وله في مجتمع الخرطوم خير عون وأطيب رصيد من نفثات القلم وصدولانه :

فأو كان رفاعة في أحواله العادية ما فات قلمه أن يسجل حدثاً تمت  
فصوله عند ما كان في الخرطوم - وهو بناء سراى الحكومة أعجوبة أهل  
الخرطوم في ذلك الوقت ، وأعجوبة مشايخ العرب من زوارها الذين كانوا  
لا يصدقون أنها من عمل الإنسان وحده (٢) ، والتي تعرض لقصة بنائها كل  
من زار الخرطوم من الأجانب وكتب عن هذه الفترة ، وكان الحكمدار  
عبد اللطيف قد أعاد بناءها من جديد مستعيناً بالآجر المنقول من بقايا مدينة  
سُوبا وبعض المباني القديمة في أبي حراز ترجع إلى العهد المسيحي ، وتم له  
ذلك كله في تسعة أشهر فقط . وما كان يفوت رفاعة أن يسجل قلمه لمحة  
عن حدائق المدينة ، وكانت علماً عليها ، وعن عمارتها وتجارها وسوقها  
الذى أجرى السنة الأهالي بعبارة « ايش معدوم في سوق الخرطوم » وأجرى  
السنة الأجانب بالعجب مما جاء بكل تلك البضائع إلى منطقة كالخرطوم في  
داخل إفريقيا .

( ١ ) نرى راءة لم يكتب في هذه الناحية إلا وهو في انطلاقة نفسية مارة ضمن ففاتها

قصیدہ الی حبیبی پاشا کشمیر .

ولو كان رفاعة في أحواله العادية ما فاته وصف النيل الأزرق متعة أهل الخرطوم ، وما فاته وصف جزيرة توتي القريبة من ( المتقرون ) ، وهي منطقة التقاء النيان الأزرق والأبيض وجنة الله في أرضه ، وما فاته العرض لمجالس الرواية الشفهية حيث الحديث الصادق الطلي عن تاريخ البلاد ، وما فاته الانتقال من الخرطوم لمسافات قصيرة حيث رياسات القبائل والمشيكات ، ليستقصى تاريخها منذ هاجرت من شبه جزيرة العرب ، ويتعرف على عاداتها ، ويستمع إلى ملاحظاتها حتى تم لها الاستقرار في أوطانها وسط موجات الطامعين والمنافسين ، وما فاته أن يسجل لنا خبر ( تاجوج ومحائق ) (١) - وهي قصة حب حقيقية رواها كل من تعرض لمجتمع السودان ، وكانت معروفة جيداً في أيامه .

ولو كان رفاعة في أحواله العادية ما فاته الحديث عن ملامح الحكم المصري في السودان : فيجرحه ، وبما له من أصالة في الرأي وعمق في الملاحظة بين ما له وما عليه ، ويذكر مدناً جديدة ظهرت إلى الوجود كنتيجة حتمية لذلك الحكم على رأسها الخرطوم نفسها ، ومدناً أخرى أخذت في الارتفاع منذ بدأ ، ويشير إلى حمى التجارة مع الجنوب التي بدأت قوية عملاقة مع فتح النيل الأبيض للتجارة الحرة منذ سنة ١٨٥٠ بعد تمام كشفه ، وقد عاصر الحدث كله .

ترجمة « وقائع تليماك » هو العمل الوحيد لرفاعة في الخرطوم :

والخلاصة أن رفاعة خرج من رحلة السودان برصيد عامي ضئيل.

---

( ١ ) طالع هذه القصة في : نعوم شقير : المصدر السابق ج ١ ص ٥٩ - ٦٠ .

، الدكتور محمد عوض محمد : السودان الشامل - سكانه وتبائله ص ١٥٧ - ١٥٨ .

A. Harwood, F. L. : "The Story of Tajoj".

Sudan Notes and Records, vol. xxiv, 1941, p.p. 197-99.

لا يتناسب مع قدر ما مارس من تجربة فيه سجله بعد أن أصبحت رحلة السودان ذكرى باعد الزمن بينها وبينه ، وهذا يصدق على ما كتب عن السودان بعد رجوعه منه ، اللهم إلا عملاً واحداً قام به وهو هناك — وهو ترجمة ( وقائع تليماك ) (١) . فإنه إذا كان الرصيد الثقافي الذى خلفه لنا رفاعة يتمثل فى الثقافة العربية كما كانت معهودة فى مصر إبان حياته ، وفى المعارف التى كانت سائدة فى عصره فى البيئة الأوروبية كما تتمثل فى الثقافة الفرنسية ، وفى الأفكار التقدمية — بالقياس إلى عصره — التى كانت تشع فى نوايا كتاباته ، إذا كان ذلك كذلك فإن نشاط رفاعة وهو فى الخرطوم لم يعد الناحية الثانية من هذا الرصيد كما تمثل فى هذه الترجمة ، ويبدو أن الترجمة عند رفاعة كانت بالقياس إلى الأعمال الأخرى فى الدرجة الأخيرة من حيث الجهود اللازم لها ، وفى الدرجة الأولى من حيث الميل إليها ، عند ما تغرقه الهموم ويعجز عن شمل النفس ، فيتيسر له التمكن منها لحفة الجهود اللازم لها ، ولذلك اقتصر عمله وهو فى السودان على الترجمة ولم يحدث أن ألف فيه شيئاً (٢) . واقتصر عمل رفاعة على الترجمة عند الملهمات يفسر ما قام به فى أثناء إقامته فى بلده طهطا بعد أن غادر القاهرة سنة ١٨٣٤ عند ظهور الطاعون فيها ، فقد ترجم

---

( ١ ) وتعرف الترجمة ( بمواقع الأفلاك فى وقائع تليماك ) ، وقد ظهرت الطبعة الأولى للكتاب فى باريس سنة ١٦٩٩ تحت عنوان :

**Fenelon : Les Aventures de Telemaque, Paris 1699.**

وقد طبعت الترجمة مرتين فى بيروت : الأولى فى المطبعة السورية سنة ١٨٦٧ وكانت فى ٧٩٢ صفحة ، والثانية فى المطبعة الميمنية ( تنقيح وضبط المعلم شاهين عمارة ) سنة ١٨٨٥ وكانت فى ٤٣٩ صفحة .

( ٢ ) يقرر السيد صالح مجدى فى ترجمته لرفاعة أنه وهو فى السودان ألف وترجم عدة كتب من ضمنها كتاب تليماك ، ولكن رفاعة فى الواقع لم يقم هناك بغير الترجمة الأخيرة . وفى ذلك يقول على مبارك أيضاً : « وربما كان رفاعة قد ترجم فى الخرطوم كتباً أخرى غير هذا الكتاب » :

هناك الجزء الأول من جغرافية ( ملطرون ) وكان قد بدأ فترجم منه صفحات وهو في باريس .

يقول رفاعه في ( وقائع تليماك ) : « ومع أن مدة الإقامة بتلك الجهات ( أى فى السودان ) كانت لجرد الحرمان من النفع الوطنى فقد اقتضت الحكمة الإلهية أن سفرى لم يضع هباءً منثوراً ؛ فقد اعتذرت فى مدنى هناك بترجمة وقائع تليماك » (١) . وفى مكان آخر من مؤلفاته يقول رفاعه : « فما تسليت هناك إلا بتعريب تليماك وتقريب الرجا بدور الأفلاك ، وقات لنفسى إن تعريب تليماك بكل من فى حماك » (٢) .

و ( وقائع تليماك ) كما يقول رفاعه فى مقدمة الكتاب « مشتمل على الحكايات النفائس ، وفى ممالك أوروبا وغيرها عليه مدار التعليم فى المكاتب والمدارس ؛ فإنه دون كل كتاب مشحون بأركان الآداب ومشتمل على ما به من كسب أخلاق النفوس الملكية وقدابير السياسات الملكية . . . . ، وهذه أساليب فى قالب الترجمة معتادة عساه أن ينفع فى سائر البلاد المشرقية النلامذة ، وأن يكون كتاباً جيداً من كتب العربية تعتمد عليه فى التعليم الأساتذة ، لا سيما فى الديار المصرية » (٣) .

ويعتبر رفاعه فى مقدمة الكتاب لأنه عربيه وهو فى السودان مبلبل الخاطر ، ثم طرحه فى زوايا الإهمال حتى علم به بعض طلابه فاقتصر على أن أرسل إليه « بنسخة مقابلة على أصلها إذ كان أحق بها وأهلاً » (٤) . وقد تصرف رفاعه فيه بالزيادة والنقص والنزيم فيه السجع مع حسن الوضع

( ١ ) مناهج الألباب ص ٢٧٩ .

( ٢ ) وقائع تليماك ص ٤ .

( ٣ ) « » ص ٥ .

( ٤ ) « » ص ٢٢ .

حتى « بدا كأنه لم ينسج له نظير على منوال ، وغدا من المؤلفات العديمة المثال » (١) .

والكتاب لقسيس فرنسى يدعى ( فنلون ) ، كان مربياً لحفيد الملك لويس الرابع عشر ، استقاه من الميثولوجيا اليونانية ليقرأه الأمير انشاب فتنمو فضائله ويُنمُو عوجاجه . ويرى الدكتور حسين فوزى النجار (٢) فى إقبال رفاعة على ترجمة ( تليماك ) فى محنته تنفيذاً عما يصدره من عنت الحاكم المستبد الذى طوح به إلى السودان ، فالكتاب فى مرماه تقويم للحاكم ونصح للسلطان ، وهو من هذا الأدب الرمزي فى نقد الحكم والاستبداد فى أوربا إبان يقطتها القومية .

ويرجح الأستاذ محمد خليف الله أحمد (٣) أن الكتاب كان أول كتاب من نوعه فى تاريخ الترجمة العربية قديمها وحديثها ، وأنه يمثل أول محاولة جريئة فى تقديم الأدب الأسطوري اليونانى باللغة العربية ، وأن رفاعة قد بدأ بهذا الكتاب عهداً جديداً فى الثقافة العربية وصالتها بأدب اليونان وأساليبهم ، ووضع أمام الخيال العربى لأول مرة فى كتاب ضخم قصة يونانية حافلة بالأحداث والمغامرات والعشق والأسر والضيق والفرج والنقد الاجتماعى واستخراج العظائم من حوادث الأيام ومقارنة النماذج البشرية فى الحكم والسياسة ووصف طبائع البلاد المختلفة وعادات أهلها وتطور معارفهم وفنونهم ، وقد كانت هذه من غير شك بداية لها ما بعدها ، فهى من ناحية قصص ، وهى من ناحية أخرى لون من ألوان التراث

---

( ١ ) السيد صالح مجدى : المصدر السابق .

( ٢ ) رفاعة الطهطاوى ص ١٣٥

( ٣ ) جانب من صور رفاعة فى تجديد اللغة والفكر والأدب ص ١٥٥ - ١٥٦ من

« مهرجان رفاعة رافع الطهطاوى » .

اليوناني ، وكلا هذين كان له شأن في تطور دراسات التاريخ والآداب القديمة ، وفي نمو أدب القصة والمسرح في العالم العربي في القرن العشرين .

### السودان في كتب رفاة :

ونبدو آثار رفاة عن السودان في كتابه ( مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية ) ، وكان حديثه فيه منصّباً على ناحيتين :

الناحية الأولى : على نفسه حينما كان مبليلاً الخاطر يدعو الله أن يرده سالمًا إلى مصره ، كما ظهر في القصيدتين الطويلتين اللتين يتوسل فيهما إلى النبي عليه الصلاة والسلام وإلى كتحدا مصر للرجوع إليها .

والناحية الثانية : حينما غاص بنفسه في بعض نواحي السودان وكان له فيها آراء سديدة . ومن ذلك ما سجله عن السبب الرئيسي لرحلة محمد علي إلى السودان ؛ وهو محاولة التوصل إلى نتيجة حاسمة في موضوع استخراج الذهب الذي يكثر بالبلاد<sup>(١)</sup> . ومما تعرض له رفاة أيضاً مسألة الكشف عن منابع النيل على عهد محمد علي<sup>(٢)</sup> . كما تحدث عن التجارة بين داخل إفريقيا ومصر ووضع رأيه في وسائل إنعاشها<sup>(٣)</sup> .

وكان لرفاة رأيه في التعليم الأجنبي في مصر الذي غزت مدارس كبرى من المصريين وأغرتهم بأن يرسلوا إليها أبناءهم ، ومن ذلك أنه كان قد

---

(١) مناهج الألباب : ص ٢٥٥ ، وراجع أيضاً ص ٢٤٩ - ٢٦١ .

راجع المنتخب الثالث ص ١٥٣ .

(٢) نفس المصدر : ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .

راجع المنتخب الرابع ص ١٥٦ .

(٣) نفس المصدر : ص ٣٢٠ - ٣٢١ .

راجع المنتخب الخامس ص ١٥٨ .

بدأ بمدة إشرافه على هذه المدارس بالاشتراك في امتحاناتها وحفلاتها العامة .  
وفي الخرطوم شاهد رفاعه مولد الإرسالية الكاثوليكية ومدرستها ، مع  
ما صاحب ذلك من مكاتبات ومداولات بين الخرطوم والقاهرة لم تكن  
بعيدة بلا شك عن ممع وبصر كبار رجالات الخرطوم ، ومنهم رفاعه (١) .  
وفي هذه المدينة رأى رفاعه من أعمال هذه الإرسالية ما يستوقف النظر ،  
مثل عملها على تنصير الصغار وتشجيع العبيد على الحرب من سادتهم ، الأمر  
الذي أقام رجالها من أجله ملجأً يبنى الإرسالية لثولاء العبيد الفارين .  
فهل كان مثل هذه الأعمال أثرٌ في تكوين رأى رفاعه في المدارس الأجنبية  
عموماً ؟

ويعقد رفاعه في ( المرشد الأمين للبنات والبنين ) فصلاً كاملاً في  
سرعة تزويج المرأة واستحباب القليل من الصداق ، بل إنه ليروى حديثاً  
يقول بأن المرأة التي تخفف من صداقها لها الأجر والثواب . وربما كان  
الوقت الذي عاشه رفاعه في الخرطوم لا يزال به مسكة من الدعوة التي نادى  
بها الحكمدار أحمد أبو ودان ( أبريل ١٨٣٨ - أكتوبر ١٨٤٣ ) - معباً  
وراء زيادة عدد السكان بالبلاد - بالحض على الزواج ، وهو الأمر الذي خفف  
من أجله مهور البنات وجعلها بين خمسة وسبعين قرشاً ومائة وخمسين  
قرشاً (٢) ، وربما كان لحقائق الحياة العامة في المجتمع السوداني بعض الأثر  
فيما قرر رفاعه في هذه الناحية .

(١) راجع : الدكتور عبد العزيز أمين عبد المجيد : المصدر السابق ج ٢ ص

١٠٥ - ١١٠ .

ولقد كان لكل من بعثة رفاعه في الخرطوم والبعثة الكاثوليكية فيها طريقة  
وأهدافه :

انظر الملحق الخامس : قصة البعثة الكاثوليكية في الخرطوم ومدرستها ص ١٥٨ .

(٢) سعد مبخاويل : السودان بين مهدين : اتفاقية ١٨٩٩ ومعاهدة ١٩٢٦

ص ٢٠٦ .

(٩ - رفاعه)



وكان موقف رفاعه كما جاء في ( المرشد الأمين ) صريحاً من التعبد والتسرى ، فهو يقبلهما ويرى لهما عللاً<sup>(١)</sup> : فهل كان لوجوده في الخرطوم ثمة أثر في هذا الموقف ؟ قد يكون الأمر كذلك ، وخاصة إذا علمنا أن تجارة الرقيق كانت مزدهرة في الخرطوم . وقد عاش رفاعه هذا الحق في المدينة ، وعندما رجع منها صحبه إلى مصر مواليه الذين اشترأهم وهو في السودان . ويقرر على عزت الأنصارى<sup>(٢)</sup> أنه كان منهم سُمّاره ووكلاؤه ، وأن بعضهم اشتغل بالعلم والأدب مع أولاده وآله ، وقد نبغ منهم الأديب خليل نظير الذي كان زجله منقطع النظير .

\* \* \*

### رفاعة ومجتمع الخرطوم :

ومهما كانت آثار الإقامة في السودان ، وما تركته في نفس وعقل رفاعه فإنه لم ينس أنه نجم من نجوم مجتمع الخرطوم ، فكان يشترك في المناسبات الهامة ، ومن ذلك ، الحفل الذي أقامه أمام منزله بمناسبة خطبة ابنة السلطان إلى ابن والى مصر ودعا إليه أعيان الخرطوم من الوطنيين والأجانب وعلى رأسهم رئيس مجاس الدعاوى ومدير الخرطوم<sup>(٣)</sup> . ومن ذلك أيضاً ، الاشتراك في ( صالونات ) الأوربيين التي لم يفوتها الانفعال بالأحداث الجارية والمناسبات القومية . كما كان لرفاعة ( صالونه ) الذي

( ١ ) راجع ص ١٤٩ من المرشد .

( ٢ ) رفاعه في أسرته ص ١٩٧ من « مهرجان رفاعه رائع الطهطاوى » .

( ٣ ) جاء في وصف هذا الحفل :

رفعت ( المنقربات ) للمدعوين على طول جوانب ثلاثة من الساحة التي أمام منزل رفاعه ، أما الجانب الرابع فكان مسرحاً لجامعة الطرب والرقص والموسيقى . وكان العامة يقفون في حلقة كبيرة وراء السادة الجالسين ، وتثير لهم المسرح مصابيح قوية . =

كان يجتمع فيه المثقفون من رجال الخراطوم والعاملون في التجارة والرحلات ، وفي السلك القنصلي على وجه الخصوص . وكان رفاة يلبي دعوات كبار رجال الخراطوم ويشارك فيما يقام من الاحتفالات ، فها هي ذه السلطانة ( نصرة ) ابنة آخر ماوك سنار والمقيمة في الخراطوم تقيم حفل عشاء ( سنة ١٨٥٢ ) احتفاءً بمقدم الرحالة الأمريكي بايارد تيلور إلى المدينة ، وتدعو إليه رفاة ونائب القنصل النمساوي وبعض صحبه ، وتقدم إليهم بعد العشاء المشروبات الوطنية ، فإذا انتهى الحفل أتممت كلا منهم بهدية (١) .

ومن الرحالة أصدقاء رفاة نجد الدكتور بني ( Dr. Peney ) الفرنسي كبير أطباء الحكومة . ومن الرحالة أيضاً زوار الخراطوم وأصدقاء رفاة جورج مللي وأنثريه مللي وهاملتن الإنجليز ، وبايارد تيلور الأمريكي ، وشارل ددييه الفرنسي - وكلهم ذكروا رفاة في كتب رحلاتهم في السودان ويعرفون فضله العالمي ، ومن ذلك ما تحدث به الأخير عن اطلاع رفاة وعلمه الواسع ومعرفته بالقرنسية ومكانته عند العارفين بها (٢) . ومن رجال الدين الأجانب والمكتشفين في نفس الوقت نجد الدكتور نوبلخر ( Dr. Knoblicher ) رئيس البعثة الكاثوليكية بالخراطوم . ومن رجال السلك القنصلي بالخراطوم أصدقاء رفاة نجد الدكتور ريتز ( Dr. Reitz ) نائب القنصل النمساوي بين سنتي ١٨٥١ ، ١٨٥٣ ، وخليفته هيجان ( Heuglin M. T. h V. ) . ويبدو أن ريتز كان صديقاً حميماً لرفاة فقد

= وكان الموسيقيون يجامعون على الحميم ، ووراءهم المرددات من النسوة الحجات اللاتي كن يعنفن مع الأنغام ويفنن بصطحاب الموسيقى . وأمام الموسيقيين وفي وسط المرح كانت حلبة الرقص حيث للرقص بأنواعه الخلفة ، ومن أهمها وأكثرها جاذبية الرقص بالسيف :  
Didier, Charles; «Khartoum».

Nouvelles Annales des Voyages de la Geographie , de l'Histoire et de l'Archeologie, Année 1856, tome Deuxieme. p.p. 79-80.

& Hamilton, J.; op. cit. p.p. 324 - 25.

Taylor, B.; op. cit. p.p. 293 - 96.

( ١ )

Didier, Charles; op. cit. p. 72.

( ٢ )

وأبناهما في كتابه رحلة بابارد نيلور<sup>(١)</sup> يغادران سراي الحكومة في إحدى  
الأمسيات وأحدهما يتأبط ذراع الآخر آخذين طريقهما إلى منزل رفاعه ،  
كما كان ريتز يستمع دائماً وكله إنصات إلى شكوى رفاعه من الإبعاد ويردد  
صدق فحواها ويؤيدها عندما يبسطها رفاعه في أحد المجالس ، وربما  
كان ذلك مما قرب ريتز إلى قلب رفاعه .

---

op. cit. p. 292.

(١)

وريتز هو قسطنطين ريتز ( ١٨١٩ - ١٨٥٣ ) شخصية ذات نفوذ في الخرطوم ، كان  
صياداً وفارساً كبيراً ، واشتهر بنشاطه الفائق . في سنة ١٨٥١ صاحب الحملة العسكرية  
التي أرسلت لإخضاع قبيلتي الحلائقة والشكرية فيما بين مدينة كسلا ووادي نهر عطبرة . وكان  
وكيلاً لشركة تكونت بمقصد استخدام البواخر الصغيرة في النيل الأبيض للأغراض التجارية .  
وقد مات بالحمى في الخرطوم عند عودته من رحلة في الحديقة كان زميله فيها ( هيجلن ) الذي  
خلفه كنائب قنصل للنمسا بالخرطوم . وجذبه غير معروفة ، وإن كان يظن أنه من  
أصل بولندي :

Richard Hill : A Biographical Dictionary of the Anglo Egyptian  
Sudan, p. 316.

## خاتمة

### التعليم في السودان ومدرسة الخرطوم

بعد رفاعة

التعليم الرسمي أو الحكومي :

والآن ماذا عن مدرسة الخرطوم بعد رفاعة ؟ :

استمر عهد سعيد باشا دون أن يشهد السودان مدرسة حكومية . فلما جاء الخديو إسماعيل كتب إلى الحكمدار موسى حمدى باشا ( مايو ١٨٦٢ - مايو ١٨٦٥ ) بخصوص « تنظيم مكتب على طرف المدير بالخرطوم ليعلموا فيه قدر خمسية نفر تلامذة ليؤخذ منهم من يازم في وظائف الكتابة والمعاونين بحسب اللزوم » . ولكن موسى حمدى رأى توزيع هذا العدد على المديريات الخمس ، وبذلك تقرر افتتاح خمس مدارس في مديريات : الخرطوم ودقله وبربر وكردفان والتاكة ( كسلا ) ، بدلا من مدرسة واحدة في الخرطوم (١) . وأنشأ الحكمدار المكاتب الخمسة في محرم سنة ١٢٨٠ ( يونيو سنة ١٨٦٣ ) ، ورتب لمكتب الخرطوم مائتي تلميذ . والغالب أن تلك المدارس كانت تشبه في نظمها المدارس الابتدائية في مصر ، وكان يُسمح للاحتفوقيين من تلاميذها بالالتحاق بالمدرسة التجهيزية والمدارس الأخرى في مصر (٢) .

(١) دفتر ٥٢٦ فرقى - الوثيقة رقم ٢٢

بتاريخ ١٠ ذى القعدة ١٢٧٩

(٢) الدكتور عبد العزيز أمين عبد الحيد : المصدر السابق ج ٢ ص ٧٤ - ٧٦ ،

ص ٧٨ .

وكانت مدرسة الخرطوم قسمين<sup>(١)</sup> : الأول برآنى بالمصروفات ، وقدرها ريال مجيدى فى الشهر (١٦ قرشاً) . والثانى داخلى بالهجان ، ونظامه عسكرى . وكان القسمان يتعلمان فى فصول واحدة مشتركة ، ويتلقون نفس المواد إلا اللغة الفرنسية فكانت اختيارية للقسم البرانى . ومواد الدراسة هى اللغتان العربية والتركية والحساب والعلوم الهندسية والرياضية ، وكان يعنى بالخط عناية شديدة . وكان تلاميذ القسم الداخلى يعينون كنية فى السلكين العسكرى والمدنى ، أما تلاميذ القسم البرانى فهم مخبرون ، ومن يطلب منهم وظيفة يعين كاتباً أو صرافاً . وأغلب التلاميذ من المصريين أولاً ثم من أولاد الجند السودانيين بعد ذلك . وفى آخر العهد بالمدرسة كان عدد تلاميذ القسم البرانى أكثر من ثلاثمائة تلميذ ، وتلاميذ القسم الداخلى نحو مائتين . وكان يحتفل بامتحان التلاميذ كل عام ، ومن يرسب فى مادة الخط لا ينجح : هذا ويتبع المدرسة خلوة<sup>٢</sup> من فصلين لتعليم القرآن ، وهى داخية .

وظلت المدرسة محل عناية كبيرة من المسؤولين ، وشهد بذلك غردون باشا سنة ١٨٧٤<sup>(٢)</sup> . ولا صحة لما قيل من أن غردون أثناء حكمه داريته الأولى (فبراير ١٨٧٧ - يناير ١٨٨٠) أصدر أمراً بغلاق المدارس الأميرية فى البلاد بدعوى أنها تكلف الحكومة نفقات طائلة<sup>(٣)</sup> ، فإن مدرسة الخرطوم استمرت فى عملها حتى سقوط المدينة فى يناير سنة ١٨٨٥ فى يدى المهدي ، وتحديث عنها غردون نفسه فى يومياته فى شهر سبتمبر سنة ١٨٨٤<sup>(٤)</sup> ، بل

(١) انظر حديث الشيخ محمود النبائى عن مدرسة الخرطوم فى :

التربية فى السودان للكتور عبد العزيز أمين عبد الحيد ج ٢ ص ٩٣ ، ج ٣ ص ٢٨ .

، السودان المصرى والإنتكابلز للمتحدث : ص ٨٨ .

(٢) Hill. G. B. ; Colonel Gordon in Centrel Africa, 1874- (٢) 1879. p. 6.

(٣) راجع - إسماعيل باشا سر هنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ج ٢ ص ٣٣٥ .

Hake, A. E. : The Journals of Maj.-gen. C. G. Gordon, (٤)

C. B., at kharloun. p. 6.

إن غردون — علاوة على ذلك — قد افتتحت مدرسة حربية في الخرطوم في أثناء حكمداريته الأولى<sup>(١)</sup>.

ولم تمض على المدارس التي افتتحت في عهد الخديو إسماعيل سبع سنوات حتى كان خريجوها يعملون كتبة في دواوين الحكومة ، كما أن بعضهم كان مستعراً في تعلم فنّي الهندسة والبرق<sup>(٢)</sup> . وقد حاول الحكمدار جعفر باشا مظهر ( ديسمبر ١٨٦٥ — سبتمبر ١٨٧١ ) تعليم بعض الخريجين الطب والصيدلة دون نجاح . وقد تحققت آمال جعفر مظهر فيما بعد عندما افتتحت مدرسة للطب في الخرطوم في عهد الخديو توفيق<sup>(٣)</sup> ، وإن كان الدكتور عبد العزيز أمين عبد المجيد<sup>(٤)</sup> يميل إلى أن هذه المدرسة لم تفتح أبداً ، في حين يقرر كازاني<sup>(٥)</sup> أنها قد افتتحت فعلاً ولكن عمرها كان قصيراً جداً :

### التعليم الديني أو الأهلي :

وإذا كان سعيد باشا لم يُلْشِء بالسودان مدارس حكومية فلأن رغبته في تشجيع التعليم الأهلي كانت قوية ومتصلة<sup>(٦)</sup> . ومن ذلك أنه أصدر أمراً بزيادة مرتب إمام جامع الخرطوم — وقدره مائتان وخمسون قرشاً — أربعة أرادب حب ذرة ، كما هو مرتب لأقرانه ، ولقيامه بالإمامة وتعليم أولاد المسلمين<sup>(٧)</sup> .

(١) Casati Major O. : Ten Years in Equatoria, vol, I, p. 16.

(٢) دفتر ١٨٣٩ معية عربي قيد وارد العرضحالات — الوثيقة من ١٤

بتاريخ ١٤ ربيع الأول ١٢٨٧.

(٣) الوقائع المصرية : رقم ٨٢٣ بتاريخ ٢٣ شعبان ١٢٩٦ ( ١١ أغسطس ١٨٧٩ ) .

(٤) المصدر السابق : ج ٢ ص ٩٣ هامش ٢ .

(٥) Casati, Major O. ; op. cit. p. 16.

(٦) الدكتور عبد العزيز أمين عبد المجيد : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٩ — ٤٢ .

(٧) دفتر ١٨٩٧ صادر الأوامر — الأمر الكريم رقم ١ ص ٢٥

بتاريخ ٦ ذى الحجة ١٢٧٧ .

ولما جاء إسماعيل زادت العناية بالتعليم الأهلى ، وأقبل الفقهاء والشيوخ على تعمير المساجد والخلاوى للعبادة وتدريس القرآن والعلم ، ووجه الخديو إلى هذه الطائفة كل تشجيع ممكن . وكان من السهل على من تحدثه نفسه بأن ينال مساعدة سهلة باسم العلم والدين أن يكتب للحكمدار ، فيكتب هذا إلى الوالى بدوره فيوافق على منحه المساعدة . وقد ترتب على ذلك أن اشتد الضغط وكثرت الالتامات وتضخمت المساعدات ، ودخلت زمرة الفقهاء والعلماء جماعة ادعت العلم والقيام على التعليم وهى منها براء . وكان من نتيجة ذلك أن أخذ الحكمدار جعفر مظهر ( ديسمبر ١٨٦٥ — سبتمبر ١٨٧١ ) بسياسة إرسال الطلاب إلى مصر للدراسة فى الأزهر ، كما اقترح على الخديو أن يقوم بالتفتيش على أصحاب الخلاوى والمساجد ويبحث عن مؤهلانهم ، وأن يقطع مرتبات وإعانات وأعطيات من لا علم لهم — يريد من ذلك وضع سياسة واضحة وخطة حكيمة للإدارة النفاية للبلاد . وقد وافقت القاهرة على إلغاء الإعانات المالية وإعانات الحرب على أن يحل محلها نوع آخر من الإعانات كان معروفاً من قبل ، وهو رفع أموال الحكومة عن الأراضي التى يزرعها الشيخ<sup>(١)</sup> . وقد سار الحكمدارون بعد جعفر مظهر على طريقه .

وقد لعب جامع الخرطوم دوره فى التعليم ، ولكنه لم يقيم بهذا الدور إلا فى عهد الخديو إسماعيل ، فكان به مدرسون من شيوخ الأزهر ومن السودانيين ، يعطون دروساً بحسب حاجة التلاميذ ويتناولون مرتباتهم من الحكومة ، كما كان قاضى القضاة وبعض القضاة يعطون دروساً عامة للجمهور فيه . وكان هذا الجامع علاوة على كونه موئلاً للعلم مقاهياً للمكر<sup>(٢)</sup> : كما

---

( ١ ) الدكتور عبد العزيز أمين عبد المجيد : المصدر السابق ج ٢ ص ٦٢ — ٧٠ .

( ٢ ) عبد المجيد عابدين : المصدر السابق : ص ١١٥ .

كان هناك في ذلك العهد شيخ للفقهاء يُعطى راتباً ويعلم الناس التجويد ،  
وتقوم خلوته أمام منزله (١)

وقد بدئ في بناء جامع الخرطوم في سنة ١٨٢٩ على يد خورشيد باشا ،  
« ولما زادت العبارة في الخرطوم وكثرت الخلايق هذه من أساسه » (٢) ،  
وذلك سنة ١٨٣٧ ، وأنشأ محله جامعاً أوسع منه استعان في بنائه بالآجر المنقول  
من بقايا مدينة سوبا . ولما كان الحكمдар خورشيد قد غادر البلاد قبل الانتهاء  
منه فقد أكمله الحكمдар أحمد أبو ودان ( أبريل ١٨٣٨ — أكتوبر ١٨٤٣ ) ،  
ولكن يبدو أن مثذته لم يتم بناؤها قبل سنة ١٨٦٠ .

### تعليم البنات :

وكانت بالخرطوم مدارس للبنات أهلية مُقامة في البيوت ، تديرها نساء  
متعلمات مصريات وموائد ، ترسل إليها البنات وهن صغيرات ليتعلمن  
فيها التطريز والطبخ وأنواع المعارف المنزلية ؛ وكانت هذه المدارس منظمة  
وبالآجر ، كما كانت تُقدم للمعلمة هدية عند زواج المعلمة . وكان  
بالخرطوم أيضاً بعض نساء قارئات للقرآن يعلمن بنات عالية القوم القرآن  
والدين والخط في بيوتهن (٣) .

---

(١) الشيخ محمود القباني : ذكريات الطفولة في السودان

ص ٣٠ ، ٣٢ من ج ٢ من كتاب الدكتور عبد العزيز أمين عبد المجيد .

(٢) أحمد كاتب الشوكة وآخرون : تاريخ ملك سنار ص ٢٩ ، ٣١ .

(٣) الشيخ محمود القباني : ذكريات الطفولة في السودان

ص ٣٢ من ج ٢ من كتاب الدكتور عبد العزيز أمين عبد المجيد .





منتخبات

من آثار رفاعه عن السودان

---

١ - سفر رفاعة إلى السودان ، ونظمه قصيدة تشير إلى أحوال تلك البلاد وعوائدها ؛

٢ - استمداد أهالي السودان للمعارف والكمالات ، ووجود التعاون .  
عندهم على طلب العلم .

٣ - رحلة محمد علي إلى السودان .

٤ - كشف منابع النيل .

٥ - ورود قوافل أفريقية إلى مصر للتجارة .

## مطلب : سفرى للسودان ونظمى قصيدة تشير إلى أحوال تلك البلاد وعوائدها

« وفى سنة سبع وستين ومائتين وألف كنت ( قد ) سافرت إلى السودان  
بمسعى بعض الأمراء بضمير مستتر بوسيلة نظارة مدرسة بالخرطوم ، فلبثت  
نحو الأربع سنين بلا طائل ، وتوفى نصف من جمعيتى من الخوجات المصريين ،  
فنظمت هذه القصيدة برسم المرحوم حسن باشا كتحدا<sup>(١)</sup> مصر ، رجاء  
تشلى من أحوال تلك الأحوال ، فلم يتيسر إرسالها ، ثم أسعد ( أسعد )  
الحال بتبديل مرة الماضى بالحال الذى هو حال ، وذلك عقب تخميسى لقصيدة  
نبوية برعية متوسلا فيه بشفاعة خير البرية ، وها هى القصيدة الأولى :

|                          |   |
|--------------------------|---|
| ولا فادع الذى ترجو ونادى | يجبك وإن تكن فى أى نادى                 |
| فن غرس الرجا فى قلب حرة  | أصاب جنى النجا غب الحصاد                |
| ومن حسن الخلاق سله صنعا  | جيملا فهو أوفى بالوداد                  |
| وحدث عن وفا خلّة وفى     | بمرسل حبه فى القلب بادى                 |
| ورب أخ تلاهى عنك يوماً   | فرب وداده أبداً ودادى <sup>(٢)</sup>    |
| بنو الآداب إخوان جميعاً  | وأخدان بمختلف البلاد                    |
| خلائف عنصر كل تغلدى      | بأثناء العلاء دون اقتصاد <sup>(٣)</sup> |

(١) الكتحدا هو الوكيل من الباشا .

(٢) يتحدث رفاة فى هذا البيت والأبيات السابقة له عن حسن باشا كتحدا مصر .

(٣) يتحدث رفاة فى هذا البيت والبيت السابق له عن حب الأدب الذى جمع بينه وبين

وآداب الفتي تعلية يوما  
وآدابی تسامى بی الدراری  
وما لی لا أتیه بها دلالة  
لی سهل الفخار تقود حزی  
عصامي طریف المجد سعياً  
سوی نسب العلوم لی انتساب  
حسینی السلالة قاسمی  
لسان العرب ینسب لی نجاراً  
وحسبی أننی أبرزت کتاباً  
فمنها منبع العرفان یجری  
علی عدد التواتر معرباتی  
وما یطربون یشهد وهو عدل  
ومغترفو قراح فرات درسی  
ولاح لسان باریس کشمس  
وحی مصر أحیا کان قدری  
سأشکر فضله ما دمت حیا  
رعی الحنان عهد زمان مصر

لی الأنجاد من بعد الوهاد  
علی شعفی وتبلغنی مرادی  
وقد دلت علی نهج الرشاد  
وفی میدانه عزم انقیادی  
عظامی شریف بالتسلاد  
لی خیر الخواضر والبوادی  
بطهطا معشری وبها مهادی (١)  
ویلیننی لی قس الأیادی  
تبدد کتاباً یوم الطرادی  
وكم طرس تجرب بالمادی  
تفی بفنون سلام أو جهاد  
ومنتسکوا یقر بلا تمادی  
قد اقترحوا سقایة کل صادی  
بقاهرة المعز علی عمادی (٢)  
وکافأنی علی قدر اجتهادی  
وما شکری لدی تلك الأیادی  
وأمطر ربها صوب العهد (٣)

(١) یشیر رفاعة فی هذا البیت لی أصله الشریف الذی یرجع إلی الإمام الحسین بن السیدة فاطمة الزهراء بذت سیدنا محمد علیه الصلاة والسلام ، كما یشیر فی الأبیات السابقة له لی طول بانه فی الأدب والعلم .

(٢) یشیر رفاعة فی هذا البیت والأبیات السابقة له لی ما أدى للإیاد من خیر ، فعدد معرباته ، وكأنه یتساءل لی ذنب اقترف حتی یقابل بذكران أعماله الحسنة ویروی به فی السردان .

(٣) یتذكر رفاعة فی هذا البیت والبیتین السابقین له ما کان علیه حاله علی عهد محمد حل ، ویذكر هذا العهد بکل خیر .

رحلت بصفقة المغبون عنها  
وما السودان قط مقام مثلي  
بها ربح السعوم يشم منه  
عواصفها صباحاً أو مساء  
ونصف القوم أكثره وحوش  
فلا تعجب إذا طبخوا خابطاً  
ولطخ الدهن في بدن وشعر  
ويضرب بالسياط الزوج حتى  
ويرتق ما بزواجه زماناً  
وفضلى في سواها في المزاد  
ولا ساهى فيه ولا سعادى  
زفير لظى فلا يطفيه وادى  
دواماً في اضطراب واطراد  
وبعض القوم أشبه بالجماد  
بمخ العظم مع صافي الرماد (١)  
كلهن الإبل من جرب القراد (٢)  
يقال أخو بنات في الجلال (٣)  
ويصعب فتق هذا الانسداد (٤)

( ١ ) يذكر رفاة في هذا البيت ( الويكاب ) ، وهو نوع من المرقة يصنع من الماء والرماد ، أى رماد سيقان الدرة بعد حرقتها .

( ٢ ) يتحدث رفاة في هذا البيت عن عادة ( الدلكة ) وهي مسح الأهلالي للبدن والشعر بالدهن عند التزين ، ويشبههم في ذلك بالإبل المريضة بالحرب عند دهنها بالندواء لتبلى من مرضها .  
( ٣ ) يحكى رفاة في هذا البيت عادة تعرف ( بالبطان ) كانت تجرى أكثر ما تجرى بين شباب الدنايلة ، وقد اندثرت في الوقت الحاضر . وفحواها أنه كثيراً ما يقع شجار بين شابين يتنافسان على حب فتاة ، وعلى أيهما أحق بلقب ( أخو البنات ) . فإذا حدث ذلك يكون الحلد بينهما نوع من المباراة يعرف ( بالبطان ) . وبعد أن يمين كل منهما شاعده يؤق يعنقريب ( سرير ) ، ويقف كل منهما على الصدر عند أحد طرفيه وقد أمسك بسوط من جلده فرس البحر ، ثم يقادلان الغرب حتى يتفجر الدم منهما وتقتار شفايا رقيقة من جالدهما في الهواء ، ويكون لقب ( أخو البنات ) للنايب الذي يتماسك ولا يسقط على الأرض حتى آخر الجولة . وكانت الجماعات من المواطنين تجتمع لمراقبة ومشاهدة المباراة دون التدخل فيها :

نوم شقير : المصدر السابق ج ١ ص ٢٠٥ - ٢٠٦

( ٤ ) يحكى رفاة في هذا البيت عادة ( الخفاض ) في السودان ، والتي تنسب خطأ إلى الفراغة فتعرف أحياناً ( بالخفاض الفرهوف ) على أساس أن المصريين القدماء هم أول من مارسوها . وتقوم هذه العادة على إجراء عملية جراحية بواسطة امرأة متخدعة يتم فيها إزالة الجزء الخارجى لفرج البنت . ثم يضم السقان بعد ذلك ويربطان منجاورين بقوة بعد وضع -

ولا كراه الفتاة على بغاءه مع التمسى ارتضوه باتحاد  
نتيجته المولد وهو غال به الرغبات دوماً باحثاً (١)

غاية وسط الجرح قد يفتح غيبة ، وهكذا يستمر الحال حتى ينضم الجرح ، فإذا تزوجت  
البت وحملت يشق مكان العملية عند الولادة ، ثم تخاط مرة ثانية بعدها مباشرة ، وتبقى في  
المرور حوالي أربعين يوماً لا تبرأه ، وهكذا عند كل ولادة ، والمقصود من هذه العملية في  
السودان الشمالى ( العربى ) هو زيادة المدة الجنسية عند الجماع ، أما في السودان الجنوبى  
( المتزوج ) فأغلب الظن أن المقصود منها هو المحافظة على عذرية البتات . وهذا المفاصل في  
الغالب له أهمية عند تبادل أو بيع الرقيق .

انظر - حكومة السودان : مذكرة من المفاصل في السودان الإنجليزى المصرى .

نعوم شقير : المصدر السابق ج ١ ص ٢٢٦ .

التونسى : تشييد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان ص ٢٠٢ .

#### & Sudan government; Female Circumcision in the Anglo-Egyptian Sudan.

Palme, L. ; Travels in Kordofan p. p. 84-86

( ١ ) ربما يقصد رفاعة في هذا البيت والبيت السابق له عادة جاء ذكرها في بعض كتب  
الرحالة زوار السودان ونسبوا لبعض قبائل غرب السودان . وتقول هذه العادة بأن البت  
لا يسمح لها بالتزوج حتى تهدي طفلاً إلى خالها يساعده في عمله بد أن يشب ويكبر ، وأنها  
هى التى تختار الرجل الذى تنجب منه هذا الطفل يحمل حوزتها ، وأن هناك اصطلاح شائع يصف  
هذه العادة ، فيقولون : « إن البت أعانت خالها » ، كما يعرف الطفل من هؤلاء الأطفال  
بـ ( عوين خاله ) ، أى ( معين خاله ) .

انظر - التونسى : نفس المصدر ص ١٩٦ - ١٩٧

نعوم شقير : المصدر السابق ج ١ ص ٢٢٨ .

إبراهيم فوزى باشا : السودان بين يدي غردون وكنتشر ج ١ ص ١٠٣ - ١٠٤

الدكتور محمد عوض محمد : المصدر السابق ، ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

#### & MacMichael, H. A. . A History of the Arabs in the Sudan. I. pp. 223-24.

هذا ويتكرر الدكتور محمد عوض محمد هذه العادة معتمداً في ذلك على سؤال الكثيرين من

السودانيين عن صحتها :

انظر : هامش ١ ص ٢٠٤ بنفس المصدر .

لهم شغف بتعليم الجوارى على شبق مجاذبة السفاد  
 وشرح الحال منه يضيق صدرى ولا يحصيه طرسى أو مدادى  
 وضبط القول فالأخير انزى وشر الناس منتشر كالجراد  
 ولولا البيض من عرب لكانوا سواداً فى سواد فى سواد  
 وحسبى فتكها بنصيف صحبى كأن وظيفتى لبس الحداد (١)  
 وقد فارقت أطفالاً صغاراً بطهطا دون عودى واعتيادى  
 أفكر فيهم سرّاً وجهراً ولا سمى بطيب ولا رقادى  
 وعادت بهجنى بالنأى عنهم بلوعة مهجة ذات انتقاد  
 أريد وصالحهم والدهر يأتى مواصلى ويطمع فى عنادى  
 وطالت مدة التغريب عنهم ولا غم لى سوى الكساد (٢)  
 وما خلت العزيز يريد ذلى ولا يصغى لأخصام لداد  
 لديه سعوا بالسنة حداد فكيف صغى لألسنة حداد  
 مهازيل الفضائل خادعونى وهل فى حربهم يكبو جوادى  
 وزخرف قولهم إذ موهوه على تزيفه قاذى المنادى  
 فهل من صيرنى المعنى بصير صحيح الانتقاء والانتقاد  
 قياس مدارسى قالوا : عقيم بمصر ، فما النتيجة فى بعادى (٣)  
 وكان البحر منهج سفن عزمى فكنت الآن أعرف فى البناد  
 ثلاث سنين بالخرطوم مرت بدون مدارس طبق المراد  
 وكيف مدارس الخرطوم تُرجى هناك ودونها نخرط القتاد

( ١ ) يشير رفاعة فى البيت إلى وفاة بعض هيئة التدريس فى السودان بسبب مساوئ الجو هناك ، وعلى رأسهم محمد بيومى أفندى زميله فى مصر وباديس والخرطوم .

( ٢ ) يبدى رفاعة فى هذا البيت والأبيات السابقة له شوقه لأهله وأولاده .

( ٣ ) يشير رفاعة فى هذا البيت والأبيات السابقة له إلى سعى بعض الخاسدين له بالوقاية

بينه وبين العزيز ، وهو الرأى ، وهم من قسودهم رفاعة عند قوله : لئله أبعد إلى السودان

ببعض الأموراء بضمير مستتر . راجع : ملأج الأبواب ص ٢٦٥ .



نعم تُرجى المصانع وهى أخرى  
علوم الشرع قائمة لديهم  
خدمت بموطى زمناً طويلاً  
فكنت بمنحة الإكرام أولى  
وغاية مطلبى عودى لأهلى  
وصبرى ضاع منذ اشتد خطبى  
وكم حسنا دعوت لحسن حالى  
وأرجو صدر مصر لشرح صدرى  
وكم بشرت أن عزيز مصر  
وحاشا أن أقول مقال غيرى  
لقد أسمعت لو ناديت حيا  
وفى دار العزاة لى عياد  
أمير كبار أرباب المعالى  
عرورف ألمى لا يبارى  
بوافر فضله الركبان سارت  
وقالوا : فى معارفه فريد  
وفى الأحكام قالوا : لا يضاهى  
وقالوا : فى الذكاء ذكا ، فقلنا :  
وقالوا : وافق الحسن المثنى  
وبحر حجاج يبدو فيه در

لتأييد المقاصد بالمبادئ (١)  
لمرغوب المعاش أو المعاد  
ولى وصف الوفاء والاعتقاد  
بقدر للتعيش مستفاد  
ولو من دون راحلة وزاد  
وهون الخطب عند الاشتداد  
وكم نادى فؤادى يا فؤادى (٢)  
وبجهد الطول فى طول النجاد  
تفوه بالفكاك ولم يفاد  
وذلك ضد سرى واعتقادى  
ولكن لا حياة لمن تنادى  
يقينى نشب أظفار العوادى (٣)  
فتى فى شرعة العرفان هادى  
بمضمار العلى طلق الجياد  
وغنى باسمه حاد وشاد  
فقلت : فى الرياسة ذو انفراد  
فقلت : وذو نحر واجتهاد  
وثاقب ذهنه وارى الزناد  
فقلت : وكم حدا بالوصف حد  
لغواص العلوم بلا نفاد

(١) يشير رفاة فى هذا البيت والبيتين السابقتين له إلى الصعوبات التى حالت دون افتتاح المدرسة حتى وقت نظمه القصيدة .  
(٢) يقصد رفاة فى « وكم حسنا ... » حسن باشا كاتخدا مصر .  
(٣) فى هذا البيت والأبيات التسعة التالية له يستغيث رفاة بحسن باشا كاتخدا مصر ليرجع إلى مصر ، ويمجده ويعدد فضائله .

فيا حسن الفعال أغث أسيراً      بسجن الزنج يحكى ذا القياد<sup>(١)</sup>  
عليه دوائر الأسواء دارت      وطالت وفق أهواء الأعادي  
وقد فوضت للمولى أمورى      وذا عين الإصابة والسداد  
عنى المولى يقول امضوا بعبدى      فيقضى لى بتقريب ابتعادى  
وما نظم القريض برأس مالى      ولا سندی أراه ولا سنادى  
ووافر بحره إن جاد يوماً      فمدوحى له وصف الجواد  
وليس لبكر فكرى من صداق      سوى تاطيف عودى فى بلادى  
فما أسمى ذراها من ييوت      رزان فى حمايتها مشداد  
ومسك ختامها صلوات ربى      على طه المشفع فى المعاد  
وآل والصحابة كل وقت      مواصلة إلى يوم التناد<sup>(٢)</sup>.

وأما تخميس القصيدة البرعية التى عبق مسك ختامه أرج الفرج فهو  
هذا . . . . . (٥).

### الحقيقة حول ما جاء فى القصيدة الأولى :

إن كل ما رمى به رفاة السودان وأهله من قبح — كما جاء فى قصيدته التى  
نظمها برسم حسن باشا كتحدا مصر — لا يعكس ، فى الواقع ، حقيقة  
مشاعره تجاههما . وكل ما فى الأمر أن رفاة ، والشعور بالابتعاد  
( والنفى ) مستبد به ، لم يكن يرى فى السودان إلا للاحية المظالمة الأمر الذى  
ينتضج فيها ضور عن السودان وأهله . والدليل على ذلك هذا البون الشاسع  
بين مادون عنهما وهو فى الخرطوم وبين ما سجل بعد الرجوع إلى مصر  
كما ظهر فى كتبه . وإنا لنأمل فى هذه الكتب مراجعة لنفسه وكأنه يحاسبها

(١) المقصود به « سجن الزنج » السودان .

(٢) مناجى الأنهاب ص ٢٦٥ — ٢٦٩ .

(٥) ثم يسجل بعد ذلك القصيدة الثانية : ص ٢٦٩ — ٢٧٩ .

متسائلا أى ذنب اقترفت حتى تقابل بنكران أعماله المجيدة ويُرعى به فى السودان ، فنجده يقول فى مقدمة كتابه مواقع الأفلاك (١) : « قد تقلدت [بعناية الحكومة المصرية الفائلة على سائر الأمصار ، فى عصر المدة المحمدية العلوية السامى على سائر الأعصار ، بوظيفة تربية التلاميذ ، مدة مديدة وسنين عديدة ، نظارة وتعلما وتعديلا وتقويما وترتيا وتنظيما ، وتخرج من نظارات تعليمى من المتفنين رجال لهم فى مضمار السبق وميدان المعارف وسبع المجال ، وفى صناعة النثر والنظم أبهى بديهة وأبهى روية وأزهى ارتجال ، وصنوف حماة صفوف لا يبارون فى نضال ولا سجال ، عربت لتعليمهم من الفرنساوية المؤلفات الجملة ، وصححت لهم مترجمات الكتب المهمة من كل كتاب عظيم المنافع ، وتوفى حسن تمثيلها فى مطبعة الحكومة وطبعها . . »

كما نجد فيما سجله رفاعة عن السودان وأهله بعد الرجوع إلى مصر نكوصاً عن سابق رأيه فيما ، إذ يقرر بعد أن زالت عنه الغمة بالرجوع إلى الوطن « قبول أهلها ( أهل البلاد ) للتمدن الحقيقى لدقة أذهانهم فإن أكثرهم قبائل عربية . . . . . ولهم مآثر عظيمة فى حسن التعلم والتعليم (٢) » . فإذا كان عصر الخديو إسماعيل يقرر رفاعة « إمكان إيصال التقدّمات العصرية فى أطراف تلك البلاد التى لم تخل قراها فى ذلك الوقت من بعض التقدم ، فإذا

(١) ص ٣ - ٤ .

ولم يفتى رفاعة أيضاً وهو فى الخرطوم أن يشير إلى ما أدى للبلاد من خير ، فكان قوله  
وحسبى أننى أبرزت كتباً      تبيد كتبها يوم الطرادى  
فنها منبع العرفان يجرى      وكم طرس نخب بالمدادى  
على عدد النوائير معربنى      تفى بفنون سلم أو جهاد  
ومطربون يشهد وهو عدل      ومنسكوا يفر بلا تهادى  
ومنترفو قراح فرات درمى      قد اقترحوها سفاية كل صادى  
ولاح لسان ياديس كشدى      بقاهرة المعز على عمادى  
مناجج الألباب : ص ٢٦٦ .

(٢) مواقع الأفلاك : ص ٢٦٢

جميع أهلها ما عدا بعض سكان الجبال لسانهم عربي فصيح ، وفيهم كمال الاستعداد وذكاء الفطنة» (١) .

والخلاصة ، إن رفاعة لا يريد أن يترك الحديث عن السودانيين واستعدادهم للتقدم دون أن يحمله في أنه « متى زالت من السودان وسائل اللوحامة والسقامة ، ودخلت أهلها بحسن الإدارة في دائرة الاستقامة ، صارت هي وديار مصر في العمارة كالتوأمن وفي إنباع الإثمار صنوين ، حتى يفتش لسان حالهما :

نحن غصنان ضمنا عاطف الوجدد جميعا في الحب ضمّ النطاق  
في جبين الزمان منك ومنى غرة كوكبية الانفلاق» (٢) .

---

(١) مناهج الألباب : ص ٢٦٣ .

راجع : منتخبات من آثار رفاعة عن السودان : المنتخب الثاني .

ص ١٥٠ .

(٢) مناهج الألباب : ص ٢٨٠ .

## مطلب : استعداد أهالى السودان للمعارف والكمالات

### وجود التعاون عندهم على طلب العلم

« . . . مع قبول أهلها للنمذن الحقيقى لدقة أذهانهم ، فإن أكثرهم بائل عربية لاسيما الجعليين والشاقيية<sup>(١)</sup> وغيرهم ، فإن اشتغالهم بما ألفوه من العلوم الشرعية شغل رغبة واجتهاد . ولهم مآثر عظيمة فى حسن التعلم والتعليم ، حتى إن البلدة إذا كان بها عالم شهير يرحل إليه من البلاد الأجنبية المجاورة من طلبة العلم العسدد الكثير والجسم الغفير ، فيعينه أهل بلده على ذلك بتوزيع المجاورين على البيوت بحسب الاستطاعة ، فكل إنسان من الأهالى يخص الواحد أو الإثنين ، فيقيمون بشئونهم مدة التعلم والتعليم .

« وقد رأيت فى طريقى ببلاد الشاقيية بمديرية دنقلا حرم سننجنق<sup>(٢)</sup> »

( ١ ) الجعليون اسم يطلق على مجموعة من القبائل بالسودان ترجعها الروايات من ناحية الجند إلى العباس عم النبى عليه الصلاة والسلام ، وتضم هذه المجموعة الكثيرة العظمى من العرب المندفانيين فى السودان . وقد تركزت هذه المجموعة على نهر النيل ما بين مدينة الخرطوم وبلاد النوبة ، ثم انتشرت من هذا المركز العظيم فى شعب وفروع فى جميع الاتجاهات . وما بين هذه المجموعة توجد قبيلة بعينها - وهى التى قصدها رفاعة - تعرف بنفس الاسم (الجعليون) وهى أهم أقسام المجموعة ، وتمتد مواعيلها على ضفتى النيل من خائق سيلوكة شمال الخرطوم جنوباً إلى نهر عطبرة شمالاً ، كما أن أفراداً منها منتشرون فى جميع أنحاء السودان .

أما الشاقيية فهم الشاقيية : وهم قبيلة من المجموعة الجعلية أيضاً ، وتمتد أوطانهم جنوباً بلاد النوبة بين الشلال الرابع وإقليم الدبة .

( ١ ) السنجنق ، هو حاكم المنطقة أو الأقليم .

يلدعى الملك الأزيرق تسمى السيدة أمونة ، تقرأ القرآن الشريف ، ومؤسسة  
مكتبين : أحدهما للعلمان والثاني للبنات كل منها ( منها ) لقراءة القرآن  
وحفظ المتون ، تنفق على المكتبين من كسبها بزراعة القطن وحلجه وغزله  
وتشغيله ، ولا ترضى أن يشوبه شيء من مال زوجها ، ويجانب المكتبين  
نحلات لمن يختل من العباد والزهاد الحاضرين من أقص البلاد لأداء  
فريضة الحج الشريف ، ومنزلها كالتكية للفقراء وأبناء السبيل والقاصدين  
بيت الله الحرام ، وأمثال ذلك كثير هناك في ظل الحكومة المصرية .

» ومما يدل على حسن مقاصد المرحوم محمد على أنه في عودته من البلاد  
السودانية استصحب معه عدة غلمان من أبناء وجوه السودان إلى مصر ،  
وأدخلهم في المدارس المصرية ليتعلموا مبادئ العلوم ، ثم نقلهم إلى مكتب  
الزراعة ، ثم إلى مدرسة الألسن ، وكان القصد من ذلك أن يذوقوا طعم  
المعارف المدنية ، لينشروها في بلادهم ، وقد شاهدت بعضهم مستخدماً  
بمديرية الخرطوم بوظيفة كاتب ، ويغلب على الظن أنه بواسطة تنظيمات مساعدة  
شاهين باشا الأخيرة المؤسسة على حب تقديم الجمعية المدنية ، وهمة سعادة  
جعفر باشا (١) صاحب الأنظار التمدنية تمكن إيصال التقديمات العصرية بعناية  
الحكومة المصرية في أطراف وأكناف تلك البلاد التي هي الآن لم تخل قراها  
عن نوع التقدم في الحضارة مع مساعدة الوارد والمتردد إليها في هذه الأيام

---

(١) في عهد حاكمية جعفر باشا صادق ( مايو ١٨٦٥ - ديسمبر ١٨٦٥ ) ،  
ثار الجنود الجهادية ( أى حملة البنادق والأسلحة النارية ) السود في كسلا ثورة كبيرة ثم القضاء عليها  
بعد جهد كبير ، وبعد أن وصلت للخيديو اسماعيل التقارير المستفيضة عن الفتنة انتدب شاهين  
باشا وزير الحربية للسفر إلى السودان وعين جعفر باشا مظهراً حاكماً ( ديسمبر ١٨٦٥ -  
سبتمبر ١٨٧١ ) ، فتعاون الإثنين في العمل على استتباب الأحوال في البلاد ، وظل هذا  
الحكمدار حاكماً رشيداً مدة ست سنوات تمت فيها في البلاد تطورات إدارية وعمرانية ، وشجعت  
الحركة الفكرية والأدبية ، كما بدأ التوسع جنوباً في بحر الغزال ونشط الاستواء .

لقصد الزيارة أو التجارة ، فإنها أقرب للنمذ من أقاليم أمريقه بكثير ،  
وجميع أهلها ما عدا بعض الجبال لسانهم عربى فصيح ؛ حيث أن جلهم من  
سل العرب المنتجة القبائل قديماً ، يحفظون أحسابهم وأنسابهم ، وفيهم  
كمال الاستعداد وذكاء الفطنة ، وإنما يحتاجون فى حصول المطاوب إلى  
اطمئنان النفوس وتأليف القلوب من حكام أرباب صداقة وعفاف وعدل  
وإنصاف ، لا تحملهم المطامع الدنيوية على محض الإلتفات إلى الأمور الدنية ،  
بل توجد القابلية أيضاً فى الأهالى المتأصلين . . . . . (٥)

## مطلب

### تصميم المرحوم محمد علي - علي السفر إلى بلاد السودان

..... فباستكشاف معادن هذا النهر ( النيل الأزرق ) اطمانت قلوب أهل العرضي<sup>(١)</sup> وفرحوا به فرحاً شديداً ، حتى نهض العساكر على الانقضاض بهذا النهر اعتماداً على حكاية أهل الجهة ، وجمعوا ما عثروا عليه من الحجر ، ثم عادوا إلى مدينة الخرطوم التي خرجوا منها من نحو ستة أشهر ، فلم يجدوا الحكمدار فيها حيث كان قد توجه لقتال الحبشة المغيرين على الأطراف ، فأخذوا في تحايل ما تحصّلوا عليه ، فوجدوا العينات مختلفة الريح : وذلك أن موسيو يورباني<sup>(٢)</sup> عمل التجربة التنظيفية بطريقة التحليل بالزئبق ، فكانت النتيجة في إحدى التجريبات بالنسبة إلى إقليم كاميبل<sup>(٣)</sup> لم يحتو قنطار الرمل إلا على ثلاث حبات من الذهب ، فالرجل ( أما الرجل ) الذي معه اثنان من المساعدين لنقل الماء والتراب إذا كان ينظف كل يوم عشرة قناطير من الرمل إلى اثني عشر فلا يجمع إلا سبعة

---

(١) أهل العرضي يقصد بهم الجند ، والعرضي هو المسكراو الكنة ، وأصلها ( urdi ) وهي تركية .

(٢) مسيو يورباني ( Boreani ) مهندس إيطالي كان يعمل في خدمة الحكومة المصرية في التنقيب عن المادن :

Hill, R.; A Biographical Dictionary of the Anglo-Egyptian Sudan. p.p.83-84.

(٣) انظر هامش (١) في الصفحة التالية .



قروش ميري من الذهب بالنسبة إلى رمال إقليم فاشنغار (١) ، ، فكتب بهذه التجربة إخطاباً وأرسله مع العينة إلى الحاكم خورشيد باشا (٢) ، فأرسل الحاكم المذكور ذلك بصحبة موسيو بورياني إلى المعينة السنية ، وكان ذلك في سنة أربع وخمسين ومائتين وألف .

« وأما تجربة موسيو روسيجير (٣) فكانت نقيجتها بخلاف ذلك ، فإن الأحجار المعدنية الذهبية يتحصل منها اثنان في المائة ، يعنى أن صافي المائة درهم مثلاً درهمان ، وأما الذهب الصمغامنى الذى يوجد فى المعادن كالعروق فإنه يتحصل فى كل ألف قنطار من مائة وستين إلى مائة وثمانين صفيحة من الذهب ، يعنى من ثمانمائة وخمسة وثلاثين درهماً إلى ألف ومائة وستة وثلاثين درهماً من الذهب وقيمة الدرهم ثمانية وثلاثون قرشاً . وتحقق عند هذا المعدن أن الشخص الواحد ينظف كل يوم ثمانمائة وخمسين أفة من الرمل ، فيتحصل منها ذهب قيمته من ثمانين قرشاً إلى مائة قرش ، فكان هذا المعدل يزيد على معدل موسيو بورياني عشرين مرة . فلما اطلع المرحوم محمد على على المعدلين ووجد الفرق بينهما جسيماً لم يئالك نفسه من الغضب على موسيو بورياني ، لأنه كان يعمل بالطبع لما فيه الأرجحية فى الربح ، فهذا مال إلى تقرير موسيو روسيجير ، ولأجل الوقوف على الحقيقة صمم على السفر إلى بلاد السودان لتجربة التجربة أمامه ، مع تقدمه فى السن وشيخوخته

---

( ١ ) كاميل وفاشنغار إقليمان يقمان فى أعالي النيل الأزرق ، وكان الذهب يستخرج فيهما من رمال ضفافة .

( ٢ ) خورشيد ( خورشيد ) باشا كان حاكماً داراً للسودان بين يناير ١٨٢٦ ، أبريل ١٨٢٨ .

( ٣ ) موسيو روسيجير ( Russegger, Josef von, Ritter ) مهندس نمساوى

كان يعمل فى خدمة الحكومة المصرية فى التفتيش عن المعادن : Hill, R.; op. cit. p.322

وطبيعة إقليم الأقطار السودانية وتعب الأسفار الشاقة بها : : : » (\*) ٥

( ٥ ) منافع الألبان ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .

قام محمد علي برحلة تفتيشية إلى السودان ( ١٥ أكتوبر ١٨٣٨ - ١٥ مارس ١٨٣٩ ) وقد أرجع رفاعة - كما جاء في النص - السبب الرئيسي لهذه الرحلة إلى حاجة محمد علي إلى الوقوف بنفسه على مدى الصحة حول وفرة معدن الذهب في السودان ، وإمكان استغلاله بتكاليف اقتصادية .

وما ذهب إليه رفاعة يتفق مع الحقيقة ، فقد كان من أهم ما شغل بال محمد علي مذ أصبح والياً على مصر هو عنايته بالتنقيب عن المعادن ( ١ ) . وكان من أول واجبات إسماعيل ابن محمد علي قائد حملة السودان عند وصوله إلى سائر العاصمة أن يقوم بالبحث عن الذهب في إقليم سنار وأعلى النيل الأزرق وفي كل مكان ، ويتفق هذا مع ما قرره كايو - الحبير في التمددين والذي كان يصحب الحملة - من أن تفكير إسماعيل وعمره في أثناء الحملة كانا موجّهين إلى البحث عن الذهب ( ب ) ، كما أن محمد علي بنفسه أكد هذا الغرض بعينه من الرحلة ( - ) :

Bonola Bey, Dr. F. : L'Egypte et la Geographie p.p. 8-II. ( ١ )

Cailliaud, F. : Voyage à Meroé au Fleuve Blanc, au dela ( ب )

de Fazogl dans le midi du Royaume de Sennar, à

Syouah et dans Cinq autres Oasis, Vol. II . p.p.

126-27 & p.p. 340-41.

( - ) داسع : دفتر رقم ٢٢٤ صادر شوري المعاونة - الوثيقة التركيبية رقم ٣٠

بتاريخ ٢٩ رمضان ١٢٥٤ .

## مطالب

### ارسالية المرحوم محمد علي - لاستكشاف منبع النيل

..... وقد ذكرنا عناية جتكم ان بعلاج مصب النيل ، وقد اعتنى أيضاً رحمه الله بالبحث عن استكشاف منبعه اقتداءً بمشاهير قدماء ملوك مصر وملوك العجم واسكندر والبطالسة وقياصرة الروم وعقلاء خلفاء مصر ونبلاء سلاطينها وملوكها بعد الفتح ، فأرسل في ظرف أربع سنوات ثلاث إرساليات متوالية . وكانت في سنة ١٢٥٧ (١) الإرسالية الثانية تحت رئاسة سليم بك قبودان ودرنو بك مهندس ، وهي أنفع الإرساليات ، فسارت هذه الإرسالية من الخرطوم في النيل المسمى هناك بالبحر الأبيض

---

(١) ١٢٥٧ هـ ( ١٨٤٠ - ١٨٤١ م ) . وقد غادرت الإرسالية الثانية مدينة الخرطوم إلى الجنوب في ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٤٠ وعادت إليها في ١٨ مايو سنة ١٨٤١ .  
انظر الإرسالية ( الرحلة ) الأولى في :  
سليم قبودان ( البكباشي ) : الرحلة الأولى للبحث عن منابع البحر الأبيض الصادر بها أمر ساكن الخزان محمد علي وإلى مصر بقيادة ريان الفرقاطة البكباشي سليم قبودان - نقلها إلى العربية محمد مسعود ، القاهرة ١٩٢٢ م .  
وانظر الإرسالية ( الرحلة ) الثانية في :

Werne, F.; Expedition to discover the Sources of the White Nile in the Years 1840, 1841, 2vols. London 1849.

وانظر رحلات سليم قبودان الثلاث في :

الدكتور نسيم مزار : البكباشي المصري سليم قبطان والكشف عن منابع النيل  
القاهرة ١٩٥٨ م .

مسافة خمسمائة فرسخ حتى وصلت إلى جزيرة جانكبير بمشروع كندكرو (١) ،  
وعندها رمال وصخور متكاثرة كالشلالات تمنع السير عن النيل منعاً كلياً ،  
فاقتصروا القبودان المذكور على أخذ الاستعلامات اللازمة مما يعلم من أهالى تلك  
الجهة . فاستبان من ذلك أن منبع النيل بقرب دائرة الاستواء ، على ثلاثين  
مرحلة فوق جزيرة جانكبير المذكورة ، فتكون المسافة بين جانكبير ومنبع  
النيل نحو مائة وخمسين فرسخاً تقريباً . وبهذا الاستكشاف سهل لسياحى  
الانكليز تمام استكشافهم بيمن لإرسالية جنتكمان الذى كان ولم يزل طرفه  
للبحث عن إحراز المكارم يقظان . . . » (٥) .

---

(١) المشروع هو المخططة البحرية ، وكندكرو هى غندكرو الحالية . وقد وصلت  
الإرسالية الثانية إلى خط عرض ٢٤° شمالاً .

(٥) منابع الألباب ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .

وقد أشار رعاة أيضاً في مقدمة كتابه : « أنوار توفيق الخليل في أخبار مصر وتوثيق  
بني إسماعيل - بولاق سنة ١٢٨٥ هـ » إلى كشف منابع النيل ، فقد بدأ هذا الكتاب بمقدمة  
في جغرافية مصر بين فيها أهمية النيل بالنسبة لمصر وأثره في تاريخها وحضارتها ، وختم هذه  
المقدمة بالحديث عن المكتشفات الجغرافية التي تمت في عهده ، فتحدث عن البعث التي أرسلها  
محمد علي للكشف عن منابع النيل ، واعتم على وجه الخصوص بالبعثة الثانية التي قام بها سليم  
قبودان ودرنو بك وسادت في النيل الأبيض مسافة خمسمائة فرسخ جنوب الخرطوم ، وقارن  
بينها وبين النتائج التي توصلت إليها وبين أقوال بطليموس الجغرافى عن منابع النيل .

## مطلب

### ورود قوافل إفريقية الى مصر للتجارة

« . . . وأما تنبيه صاحب الملاحظات على وفود قوافل داخل إفريقية إلى الديار المصرية واستعاضتها بضائعها بمشغولات مصر وأوروبا وخلاصة صنائعها فهو في محله ، وقد جرى مفعول هذه الملاحظة على أصول مصنوعة ملحوظة : فتجار دارفور و بُرنو<sup>(١)</sup> ونحوهما تحضر في ميعادها ، وتأتي بسائر بضائعها على حسب معتادها . ومن جهة سينار والبحر الأبيض<sup>(٢)</sup> تحضر التجار بسن القبل والصموغ وريش النعام وغيرها . وإنما أهل أقالم تُمبُكتو ، وهي بلاد التكرور<sup>(٣)</sup> ، لا يحضرون إلا لقضاء الحج ، وكذلك الفلاتة السودانية<sup>(٤)</sup> يمرون بمصر لسفر الحجاز ، وما ذاك إلا بعد المسافة لا لقلة أمن الطريق أو وجود مخافة . فالتجارات في داخل إفريقية الحقيقية تيسر بعد تخطيط المسالك الطرقية . وهي لا تيسر إلا بحركة عجيبة من

---

( ١ ) برنو قبيلة مسلمة كبيرة هاجرت إلى نيجيريا في أوائل التاريخ المجري ثم اختلعت بقبائل الزنج واقتبست من لغاتها لغة خاصة ، وبلادهم تقع غرب دارفور .  
( ٢ ) المقصود بجهة سنار والبحر الأبيض السودان ، والبحر الأبيض هنا يقصد به النيل الأبيض .

( ٣ ) التكرور شعب مسلم يسكن على نهر السنغال في غربي إفريقية وفي بعض جهات النيجر وجهات كثيرة غربي السودان .

( ٤ ) الفلاتة عرب منهم البادية ومنهم الحضرة ولكن الحضرة أكثر ، وهم يقيمون في أنحاء كثيرة بالسودان ، وقد ساكنوا الزنج في دارفور وكونوا من لغاتهم لغة خاصة ، ومنهم من يسكن نيجيريا وساكنوا الزنج أيضاً فيها .

الحكومة المصرية ، واستكشافات جلييلة عصرية ، وانتجاعات من قبائل  
إسلامية متعلمة ، وتوقيفات لأهالى تلك البلاد على وسائل التمدن المستحسنة  
وإن شئت فقل إن حسن تمامها إنما يكون بزوع من الفتوحات والتشبيث  
بعمارتها ، وإدخال ما يلزم لها من الإصلاحات ، حتى يصير جنوب  
إفريقية (١) كالأقاليم الجنوبية بقسم أمريقه ، فإن كان من السابق فى علم الله  
تعالى أن يكون لمصر فيه قوة التنجيز ( فما ذلك على الله بعزير ) . . . (٢).

---

(١) المقصود بجنوب إفريقية السودان .

(٢) مناهج الألباب ص ٣٢٠ - ٣٢١ .

هذا ، وكانت تصل إلى مصر - غير ما ذكر فى النص - قافلة من مرزوق هاصمة  
قران ( فى جنوب ليبيا ) .



# الملاحق



## الملحق الأول :

قرار إنشاء مدرسة الخرطوم .

## الملحق الثاني :

مدينة الخرطوم كما وصفها أحد كبار الموظفين المصريين في  
السودان من تلاميذ رفاة :

## الملحق الثالث :

وصف ازيارة الرحالة الأمريكي بايارد تيلاور لمنزل آل  
رفاعة بطهطا .

## الملحق الرابع :

وصف لمدينة الخرطوم سنة ١٨٥٣ في أثناء وجود رفاة بها  
كما جاء في إحدى مكاتبات أحد المبشرين الكاثوليك إلى  
رئيسه بإيطاليا .

## الملحق الخامس :

قصة الإرسالية الكاثوليكية ومدرستها بالسودان :

## الملحق الأول

### قرار إنشاء مدرسة الخرطوم

عزيزى صاحب العزة مدير المدارس :

اطلعت على قرار المجلس الخصوصى هذا الصادر فى ١٥ من رجب سنة ١٢٦٦ (١) ووافقت على العمل بموجبه ، ووقعته حتى تبادروا الى تنفيذه بكل اهتمام ؛  
الحاتم

عباس حلمى

### قرار المجلس الخصوصى فى ١٥ من رجب سنة ١٢٦٦

إن الأقاليم السودانية ديار واسعة ، ولم تُنشأ بها مع عظم مساحتها مدرسة من أجل أبناء سكانها الأصليين من مشايخ وأهلين ، ومن أجل أولاد وأحفاد الأتراك الذين استوطنوا تلك الديار منذ سنين ؛ ليتعلموا صنعتى القراءة والكتابة ويدرسوا العلوم والمعارف . ولقد تناقش المجلس الخصوصى فى أثناء انعقاده أخيراً فى إنشاء مدرسة بتلك الديار وتنظيمها ، لإنقاذ أبناء أهلها ومستوطنها من حضيض الجهل ، وإعدادهم لاكتساب المعارف بمقتضى مراحم جناب الخديو الأعظم ومكارمه السنية التى شملت جميع الرعية والبرية ، فاستحسن المجلس إنشاءها .

ولما كانت تلك المدرسة ستُنشأ بالخرطوم ، وكان المطلوب أن تسير على نسق المدارس المصرية ولا سيما الابتدائية والتجهيزية وأنظمتها المرغوب ، وأن يُقيد بها نحو مائتين وخمسين طفلاً من بلاد دُنُقله والخرطوم وسينار

وتأكله ( كسلا ) وملحقاتها — من أولاد مشايخها وأهلها ومن أبناء الأتراك الذين استوطنوا تلك الديار وأحفادهم ، وأن يُولى عليها ناظر لم بأصول المدارس لينسقها كما ينبغي وينظمها تنظيماً حسناً — لما كان كل ذلك كذلك فقد استحسن المجلس أن يعهد بنظارتها إلى أمير الآلاى رفاة بك الموظف بديوان المدارس ، وأن يرسله إلى هناك ، وأن يُرجع إليه في اصطفاء المدرسين الذين تحتاج إليهم المدرسة ،

وقد سبق أن كُتب إلى حضرة صاحب العزة مدير المدارس في ٦ من رجب سنة ١٢٦٦ (٢) ، وتحت رقم ١٦٠ أن يبلغ رفاة بك المشار إليه خبر مهمته ، وأن يعدّ هذا بياناً يذكر فيه المدرسين الذين يصطفهم للسفر معه ، ويبين فيه مصروفات المدرسة شهرياً وسنوياً من المأكولات والملبوسات على النسق المتبع في المدارس المصرية وطبقاً للأصول المرعية في المبتدیان والتجهيزية . وقد أنبأنا مدير المدارس في كتاب بتاريخ ١٣ من رجب وتحت رقم ٧٢ بأن المدرسين قد تم انتخابهم من بين رجال أكفاء ، وأنه وضع بياناً عن سائر موظفي المدرسة ومرقاتهم وعن تكاليف الملبوسات والفرش والجرايات طبقاً لأسعار القاهرة ، وقد وافق الجتاب العالى عليه عندما رُفع إليه . وقد جاء في البيان أن على المدرسين أن يدرسوا للطلبة ويقوموا بمهمة الضباط ، وأن باقى الموظفين والخدم من كاتب ووكيل خرج وغسّال وسقاء وطاه ينبغي اختيارهم واستخدامهم من بين أهالى السودان ، وأنه قد خُصص لكل طالب ستة قروش شهرياً ، إذ أن الطلبة يُعتبرون مبتدئين في مبدأ دخولهم المدرسة ، ويستطيعون أن ينقلوا إلى المدرسة التجهيزية بعد ثلاث أو أربع سنوات .

وقد أرسل إلينا هذا البيان فقرأناه ، وتبين لنا أن جميع نفقات المدرسة المذكورة السنوية تبلغ ثلاثمائة وثمانية وثلاثين ألفاً وثلاثة وثلاثين قرشاً

وتسعا وثلاثين بارة ، واستحسننا العمل بمقتضى هذا البيان ، وتقرر استصدار أمر إلى رفاة بك المشار إليه بالأخص وقتاً عند إبلاغه بالقرار ، فينطلق إلى محل مهمته مستصحباً الأحد عشر مدرساً والطبيب الذين اصطفاهم من ههنا والمذكورة أسماءهم في البيان المذكور ، ويخبر عند بلوغه الخرطوم حضرة الباشا حاكم السودان ليبادر إلى تنسيق المدرسة المذكورة وتنظيمها وفق ما يأمله الجنب العالي ، ولا ينصرف عن المدرسين وتذكيرهم بمهمتهم ويجعل الطلبة موضع اهتمامهم فيحملهم على السعى والاجتهاد ليكتسبوا المعارف ويتقدموا .

وقد قرر المجلس استصدار الأمر إلى حضرة صاحب العزة الباشا مدير المدارس بأن يقطع علاقة رفاة بك وكذلك المدرسين والطبيب من حيث توجد قيودهم ، وأن يرسل إلى حضرة صاحب السعادة الباشا حاكم السودان كشفاً بمرتباتهم وبدل تعييناتهم ليقيدوا في محل استخدامهم بالسودان طبقاً للأصول المرعية . كما قرر المجلس استصدار الأمر إلى الباشا الحاكم بأن يخصص بالخرطوم عند وصول رفاة بك محلاً مناسباً للمدرسة ، وأن يقيد هذا اليك وكذلك المدرسين والطبيب بموجب الكشف الذى سيرسل إليه من ديوان المدارس ، وأن يتخذ سائر الخدم الوارد ذكرهم في البيان من أهالى البلاد ، وأن يقبل بالمدرسة — وطبقاً لماشورة اليك المشار إليه — كل طالب رآى إليه من البلاد التى سلف ذكرها من أولاد المشايخ والأهالى ومن أبناء الترك الذين استوطنوا تلك الديار منذ القدم حتى يبلغ عدد الطلبة مائتين وخمسين طالباً كما قدمنا ، وأن يقيد ما كولاتهم وملبوساتهم ومرتباتهم وغير ذلك من حاجاتهم ابتداءً من تاريخ قدومهم كما جاء في البيان ، وأن يصرفها لهم أصولاً عند حلول مواعيد صرفها . وقد قرر المجلس إرسال صورة من ذلك البيان إلى كل من المشار إليهم ، وإلى الحسابات والمالية والجهادية وغيرها من الجهات المختصة بهذا الشأن .

الإمضاءات والأختام

أرتين شكرى      عبدى شكرى      إبراهيم شفيق      أحمد  
مدير الخارجية      مدير المدارس      كاتب الديوان الخديوى      مأمور الضبطية  
السيد أبو بكر راتب  
مدير المالية

سليم      محمد أمين      حسن فؤاد      أحمد المنزكى  
رئيس مجلس الأحكام      مدير الجهادية      كتبخنة الخديو      رئيس مجلس عسكرية

{ بحفظة رقم ٤ أوامر لديوان المدارس - ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٧ اصل  
من الخديو عباس حامي باشا بتاريخ ١٧ من رجب ١٢٦٦ . }

## الملحق الثاني

مدينة الخرطوم كما وصفها أحد كبار الموظفين المصريين

بالسودان من تلاميذ رفاعة

أثر من آثار قلم الأديب إبراهيم بك مرزوق<sup>(١)</sup> رئيس القلم الأفرنجى  
بالحكمدارية :

اقتعدنا غوارب الأفتاد ، وجبنا الصخور والأوتاد ، مستندين في المهامه  
والقفار ، مستندين إلى أعواد الأكوار ، مصطحبين ما يفت في عضد  
الاصطبار ، ويقلب قلب القرار على النار ، من شعث الطريق ، وحزن ثث  
الضيق ، إلى أن وصلنا بالمقدر المحتوم ، إلى بندر الخرطوم ، فكانت الخفوفة

( ١ ) كان إبراهيم بك مرزوق أديباً كبيراً ، وهو من تلاميذ رفاعة بك في مدرسة  
الأسن . ومن مؤلفاته « رحلة السلامة » و « رحلة الكرامة » ، وقد وصف في هذا المؤلف حالة  
السودان في أيامه . وقد عني بجمع شعره في كتاب الأديب محمد بك سعيد بن الحكمدار جعفر  
باشا مظهر ، ووسمه « بالدر الجي المنق يدوان الأديب إبراهيم بك مرزوق » وطبعه سنة  
١٢٩٧ هـ بالقاهرة . والوصف هنا لمدينة الخرطوم في السنة الأولى لحكمدارية جعفر باشا مظهر  
( ديسمبر ١٨٦٥ - سبتمبر ١٨٧١ ) ، وهي نفس المدينة وما كانت عليه أيام رفاعة قبل أن  
يجري الحكمدار فيها إصلاحات جذرية . وتبدر القدوة واضحة في هذا الوصف الذي لم يتضمن  
غير مساوي الهواء والحشرات والأمطار والجند الذين كانوا قد قاموا في ذلك الوقت بشدة  
في مدينة كسلا بشرق السودان ، وقد قام إبراهيم مرزوق بمظاهرة الحكمدار على تأديب هؤلاء  
للشوار . ويبدو من هذا الوصف أن إبراهيم بك لم يكن سعيداً بالإقامة في المدينة وأن الشعور  
بالنفي كان محتويته ، شأنه في ذلك شأن أستاذه ، فكانت له مدينة أسوأ الكيل وقد مات ودفن  
بها في سنة ١٨٦٦ .

بالقلدى ، المحروسة بالأذى ، لأنها القرية الظالم أهلها ، المستحيل منها ،  
بسبب هوائها الوخيم ، ووبائها المستديم ، فكنت تراها أقلر من بيت  
الدجاج ، وأهون من تبالة على الحجاج ، لما بها من الحشرات ، المجهولة  
الأسماء والصفات ، التي ليس منها خلاص ، ولا للجروح قصاص ، لتواردها  
من الست جهات ، إلى شن الغارات ، ويكاد المقيم بها وقت القيظ ، يتميز  
من الغيظ ، ويستغيث من السعير ، في أوقات الزمهرير ، فهمى بن رياح  
متخالفة ، وزعازع متوالفة ، وظلل من الضياب ، وكأنه يوم الحساب .

بلاد لاسمين من رعاها ولا حسن بأهلها اليسار  
إذا لبس الدروع ليوم بوش فأحسن ما لهست لها الفرار

فلو مكثت غير بعيد ، وأجبت بخيل المعتمتع والوليد ، واستعدت بذى  
القرنين ، واستنجدت من وراء الصدفين ، ونشرت أبا مسلم الخراساني ،  
ونخرجت في رايات السفين ، وبعثت بالرياح السواني ، ورميت بثالثة  
الأناني ، ورصدت الكواكب ، وميزت بين المغلوب والغالب ، وزحفت  
في جنود صفين ، وقاتلت إلى يوم الدين — لما كنت ظفرت على حشراتنا  
بالفتوح ، ولوعرت عمر نوح ، فلما كنا في مصادمة الأمطار ، ومزاحمة  
الأقدار ، لولا أن من الله بحضور سعادة جعفر مظهر باشا الحكمدار ، فإنه قد  
شمر عن ساعد الاجتهاد ، وبث الطلائع والرواد ، واستدرك ما فات ، في  
دفع الآفات ، وبذل جهده في تنقية هذا البلد ، ووالد وما ولد ، وأكسب  
بهمة عليها ، ونظر بعين العناية إليها ، ومأمول أنها بهمة إن لم تكن كلام  
ذات العاد ، فلا بد أن تعد في متمدن البلاد ، وينال أهلها الرفاهية ،  
ويتمتعون بشمرات الأمانة ، ويزاحون في تمدن باقي الدول ، ويقاومون  
بالعمارة أكبر الملل ، في ظل الساحة الداورية ، وحسن توجيهاتها السنية ،  
أهان الله تعالى الحكمدار على ذلك ، ووفقه لما هنالك .

وأما أهلها الآن ، فهم على حال من غير من الزمان ، زاعمين أنهم أرداف  
أفيال ، وأبناء أقيال ، فترى منهم الملعوف للحاجات ، من طريق العادات ،  
ومنهم من يأمرك في الصدقات ، فإن أعطوا منها رضوا ، وإلا أعرضوا ،  
وعليك اعترضوا ، وبشيئ الناهي ، وهو لا هي .

وكم نرى كلما أمعت في رجل  
مثل النعامة لا طير ولا جمل

يمر كالثور والأطواد تنشده  
إننا محبوك فاسلم أيها الطال

وأدخل من هذا القبيل ، في العريض والطويل ، إلى ما لا يزهر في  
العين ، ولا ينفق بدرهمين .

إن تزره تجده أخلق من شيب الغواني ومن تعفى الطلول

ومتى أضربت عن هذه الخبائث وعززتها بثالث ، رجعت إلى العساكر  
السودانية ، والسلالة الشيطانية ، فالقول بيان ، وليس الخبر كالعيان ؛  
ضروب من الأنعام ، لا يميزون بين الحلال والحرام ، قد كان استدرجهم  
الإمهال ، وتوسع لهم المجال ، حتى طغوا في البلاد ، وأكثروا فيها الفساد ،  
فتوطنوا جمحور المظالم ، وارتضوا أخلاف المآثم ، حتى صاروا بمديرية  
التناكه ( كسله ) أظلم من جند السفينة ، وأجراً من اليزيد على حرم المدينة ،  
ولكن سطوة القوة العسكرية ينفوذ الصحة الخديوية ، قد أوقعت بهم  
الحين ، في أقل من طرفة عين ، حتى صاروا كأعجاز نخل نخاوية ،  
فهل ترى لهم من باقية ، كلا قد نخلت منهم البلاد ، واستراحت العباد ،  
والذين اعتصموا بالثوبة والتزموا بالأوبة ، صار جلاؤهم عن مدرج



أوكارهم ، وأخرجوا من ديارهم ، وبُدد شمسهم وفارقوا أماكنهم ،  
فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم ، وتلك عاقبة المفسدين ، والحمد لله  
رب العالمين .

(حسن السندوي : أعيان البيان من صبح القرن الثالث عشر الهجري  
إلى اليوم ص ١٩٣ - ١٩٥ .)

---

## الملحق الثالث

### وصف الرحالة الأمريكي بايارد تيلور

#### لمنزل آل رفاعة بطهطا

هذا ما سجله هذا الرحالة في كتاب رحلته عن زيارته لمدينة طهطا في أثناء رحلة الرجوع من السودان إلى مصر ، لتوصيل خطاب رفاعة الذي كان قد سلمه إياه في الخرطوم إلى أهل بيته :

« . . . . وأخيراً اهتديت إلى منزل البك (يقصد رفاعة بك) بمعاونة رجلين من القبط . وسلمت الخطاب إلى أحد العبيد . وذهب أحد الخدم إلى المكتب لاستدعاء ابن البك ، وبينما ذلك كانت القهوة والشبُّكات (أعواد التدخين) تقدم إلى . وسمعت القبطيين بفناء المنزل وهما يتسامران بالحديث عن رحلتي من السودان إلى مصر ، وكانا يظنان أنني لا أعرف لسانهما : قال جرجس لزميله : لا شك أن الأجنبي يحوز مالا كثيراً ، فرد عليه زميله : إنك على حق ، فإن الرحلة إلى السودان لا بد أن تكون قد كلفته ثلاثمائة كيس على الأقل (هكذا) .

« وبعد وقت قصير وصل ابن البك في صحبة أستاذه ، وكان ابن ثمان أو تسع سنوات ضعيفاً واهناً . ولما كان حديثنا لا جاذبية فيه ولا فائدة فقد أرسلت تابعي لإحضار الركائب ، وقفلنا راجعين إلى المركب ،<sup>(١)</sup> .

( ١ ) Taylor , B. : A Journey to Central Africa , P. 516.

و قد جاء نص النسخة الأخيرة في كتاب الرحلة هكذا :

« In a short time the Bey's son came accompanied by the schoolmaster. He was a weak, languid boy of eight or nine years old , and our interview was not very interesting. I therefore sent the slave to bring donkeys , and we rode back to the boat » .

وقد قام الأستاذ فتحى رفاعه بذكر قصة زيارة هذا الرحالة لمنزل آل رفاعه بطهطا على نحو آخر ، وكان ذلك عند حديثه عن « تربية رفاعه لأولاده » كما جاء فى كتاب مهرجان رفاعه رافع الطهطاوى (١) .  
وقبلا بلى دله القصّة :

« وبعد تحريات قليلة وصلت إلى منزل رفاعه باشا ولكن لم يؤذن لى بالدخول ، لأن السيدات المصريات لا يُسمح لهن باستقبال الأجانب ، وكان بالمنزل قاعة واسعة مفتوح بابها على الطريق فأجلست فيها ريثما تذهب جارية سوداء لتأتى بابن الباشا من المكتب ، وجلس معى فى تلك القاعة خادى الأمين ، وقد تسامع أهل البلد فى أثناء وجودى فى الانتظار أنى أت من الخرطوم وأننى أعرف الباشا ، فأثروا من كل حذب ليسألونى عنه ، وكانوا جميعاً فى نهاية الأدب والود واغبطوا لما طمأنتهم عليه كما لو كانوا جميعاً من أفراد أسرته .

« وبعد ربع ساعة عادت الجارية يتبعها ابن الباشا ومعلمه من المكتب ، وكان هذا المعلم قد صرف جميع الطلبة وأغلق المكتب وجاء لىسمع أخبار الباشا :

« كان عمر هذا الصبى أحد عشر عاماً ، ولكنه كان أطول قامة ممن هم مثل عمره ، وقد ابتسم حين رآنى ابتسامة عذبة ، ولولا إلماى بعض الإلام بعدات هذا الشعب لمدت يدي إليه وأجلسته على ركبتى وطوقت خصره بذراعى ، وتحدثت إليه بغير تكلف ، ولكنى رأيت أن أصبر حتى أرى كيف يكون مسأكه نحوى .

« حينئذى فى وقار وجلال كما لو كان رجلاً له سميت وأمة ، ثم تناول يدي فأدناها من قلبه ثم من شفتيه ثم من جبينه ، ثم اتخذ مجلسه فوق ديوان عال بجانبى . وأعاد تحيتى وهو فى مجلسه وصفق ثلاثاً ، فجاءت

جارية أمرها أن تعدّ لي بعض القهوة ، ثم قال : كيف صحتك يا صاحب السعادة ؟ ، فأجبت : بخير والحمد لله . قال : هل عندكم أوامر لي ؟ ، مروا تطاعوا .

« فقلت أشكر لطفك ، وليس لديّ إلا تحيات أهلها إليك من أبيك الباشا وخطاب منه وعدته بأن أسلمه إليك بدأ بيد ،

ثم دفعت إليه بالكتاب ، فوضعه على قلبه ثم قبله وفض غلافه ، وأمر الصبي بكلمات إلى معلمه وبدأ على وجهيهما الاغتباط ، وجيء بشراب لا شيء فيه سوى عصير الليمون المحلى وماء الورد ، ثم جيء بالارمان ، وسألني الصبي أن أشرفه بالبقاء لديه سائر اليوم ، ولولا أني كنت أرى وجهه وهو يحادثني لظننت أني لأحدث رجلا ، فقد كان هذا الصغير من الجلال وقوة الأسر كعظماء الرجال ، وكان الناس حولنا كأنهم معتادون مشاهدة هذا النضوح السابق لأوانه ، وكنت مضطراً إلى أن أتخذ حياله من الاحتشام والكلفة كما لو كان هو حاكم المدينة ، على أن ذلك لم ينقص من محبتي إياه ، وودت لو عرفت موضوع حديثه مع معلمه ولست أشك في أنهما كانا يحاولان تدبيراً لإعادة الباشا من منفاه .

« وبعد ساعتين أو ثلاث عدت إلى السفينة . ونهض الصبي عند نهوضي ومشى بجانبى إلى آخر حدود المدينة والناس على أثرنا في نظام ، وعند وصولي إلى السفينة حياني مودعاً مثل تحيته إياي مسلماً وقال : أسأل الله أن يجعل رحلتكم سعيدة يا صاحب السعادة .

« وقد بدا لي أن منظر استقباله ووداعه والوقت الذي أمضيته وإياه ، بدا لي كل ذلك — كأنه قطعة من ألف ليلة ، فإني إن أنسى شيئاً فلن أنسى تلك الذكرى الجميلة البارزة . »

## الملحق الرابع

وصف لمدينة الخرطوم سنة ١٨٥٢ في أثناء وجود رفاعة بها .  
كما جاء في رسالة للأب ج . بلترام ( O. Beltrame )  
أحمد المبعوثين الكاثوليك بالخرطوم ، إلى رئيسه بإيطاليا .

تشرف سراي الحكمدار على ضفة النيل الأزرق ، وبنائها من الآجر ،  
وتطل على النيل من ناحية الشمال وعلى ميدان كبير من الناحية المقابلة ، وهي  
تبدو فخمة وسط مباني المدينة التي من اللبن والتي يرتفع بعضها إلى طابقين .  
وقد بدأ الأوروبيون في المدينة في بناء مساكن لهم مستعينين بالحجارة  
المنقولة من تلال أم درمان ، وهي قرية على الضفة اليسرى للنيل تبعد عن الخرطوم  
بحوالي كيلو مترين . وكانت البعثة الكاثوليكية هي السبّاقة في هذا السبيل ،  
ومؤسسها هو الأب رباو ( Fr. Rylo ) البولندي الجنسية ، ومن رجالها أيضاً  
الدكتور اجنازيو بوباخز ( Ignazio Knoblicher ) الذي خلفه في رئاسة  
البعثة بعد وفاته ، وكذلك زميلي وصديقي الأب انجاو فنكو ( Fr. Angelo Vinco )  
الإيطالي الجنسية وأول من ساح في النيل حتى جنوبي غمّندكرو حيث  
كانت وفاته .

وقد وُضع حجر الأساس لدار البعثة الكبيرة ذات التخطيط البديع في شهر  
يناير من سنة ١٨٥٠ عندما كنت في الخرطوم . وكان البناءون في أول الأمر من  
رجال البعثة الإيطاليين الذين يرجع أصلهم إلى إقليم تسكانيا ، ثم خلفهم زملاء  
من إقليم التيرول ، ورئيسهم هو الأب جويسب جشتر ( Guiseppe Goschtner )  
الذي تعلم في إيطاليا وأشرف بنجاح على عمليات البناء التي تمت في يوليو سنة  
١٨٥٢ ، وقد روعى في هندسة البناء زيادة الاهتمام بالعناية بصحة المبعوثين  
وخاصة في أثناء الفصل المطير . وكان بعض الأهالي يأتون يومياً ليشاهدوا  
كيف يرتفع البناء يوماً بعد يوم ، فتعلم أكثر من خمسين منهم فن البناء .

ومدينة الخرطوم تشبه لدرجة كبيرة المدن الأخرى في مصر والسودان ،  
وهي في ذلك مثل أسبوط وقنا ودُنْقَلَه وبَرْبَر . وبها مسجد كبير ، وسوق ،  
ليس بالكبير ولا بالصغير يتوسط المدينة ويفترش ثلاثة أو أربعة شوارع مربعة  
ذات سقوف من القش وفروع الشجر ، تمتد على جانبيها محلات صغيرة  
متجاورة وبلا نهاية ، وأمام هذه المحلات تقوم مصاطب من الطين الجاف .  
بارتفاع قديمين . ويأخذ أصحاب هذه المحلات مجالسهم في داخلها على الطريقة  
الشرقية ، والبضائع من حولهم من أمام ومن خلف في أكوام وصفوف . وفي  
المحل الواحد من تلك المحلات نجد كل شيء : الملابس والطرابيش  
والجوارب والأدوية والدهانات والدخان والشبُّكات ( أعواد التدخين ) ،  
وغير ذلك كثير . وبين الحين والحين يقطع الطريق من ينادى على بضاعته  
من طعام أو شراب . وجو السوق كله يعبق بالروائح العطرة .

وعندما تُقبل على أحد هذه المحلات لا يعيرك صاحب المحل أدنى التفات  
فهو ساج في ملكوت ، يمرر حبات مسبخته بين أصابعه بينما يتشاءب بين الحين  
والآخر ، وفقط عندما تمدّ يدك إلى سلعة تراه يتحزح قليلا من مكانه  
ويشير إليك بالجلوس إلى جواره ، ثم يقدم إليك الشبُّك ( عود التدخين ) ،  
يتلوه بفنجان من القهوة ، ويطول جلوسك ربع ساعة أو نصفها وهو صامت  
تماماً ؛ إذ يجب أن تكون أنت البادئ بالحديث ، السائل عن قيمة هذه السلعة  
أو تلك ، فإذا ما تم ذلك حدد للسلعة ثمناً مرتفعاً ، فإذا عرضت عليه  
ثمناً أقل فإنه لا يزيد عن أن يهز رأسه برفضه ، فإذا رفعت الثمن قليلا  
سلمك السلعة وأخذ ثمنها دون أدنى كلمة مقرئاً إياك السلام ، وهكذا يتم  
شراء سلعة من أحد محلات السوق . هذا ويستمر العمل في السوق طول  
النهار ، فإذا حلت المساء أغلقت محلاته ، إذ العمل على ضوء الشموع غير  
معروف فيه .

ولن أطيل الحديث عن سكان الخرطوم الذين ينقسمون على الأقل إلى

سبع جماعات متميزة ومختلفة العادات لدرجة كبيرة : ومع أن المدينة صغيرة إلا أن الوقت لم يكن بعد لانصهار تلك العادات جميعاً في بوتقة واحدة ؛ ولذلك فإن كل جماعة لم تزل تحتفظ بطابع جنسها الأصلي :

والجماعة الأولى من السكان من الأوربيين ، وعددهم لا يتجاوز الأربعين أو الخمسين نفساً ، ومعظمهم تجار ينتقلون بين النيل الأبيض والخرطوم من جهة وبين القاهرة من الجهة الأخرى . وهذا العدد ثابت على الدوام تقريباً ؛ حيث أنه عند وفاة أحد الأوربيين صريع جو المدينة غدير الصحى يحل محله قادم جديد من القاهرة أو الاسكندرية .

والجماعة الثانية من الترك ، وعددهم صغير أيضاً ، وهم هنا من موظفي الحكومة أو ممن أبعدهم الوالى عن مصر

والجماعة الثالثة من التجار المسلمين ، وعددهم أكبر من عدد الأوربيين والترك ، وقد جاءوا كلهم من صعيد مصر ، ويمتد نشاطهم التجارى على وجه العموم إلى القاهرة وسواكن وفازوغلى وكردفان ودارفور .

والجماعة الرابعة من القبط ، وعددهم محدود للغاية ، وهم كشأنهم في كل جهات الشرق كتبة :

والجماعة الخامسة من الفقهاء مؤدبي الأطفال ، وهم يشتهرون علاوة على ذلك بقدرتهم الفائقة على عمل النائم كما يعملون تجاراً أحياناً : وتقوم الدراسة في الخلاوى التى يشرف عليها هؤلاء الفقهاء على أربع فترات في اليوم : من الساعة الرابعة صباحاً حتى شروق الشمس ، ومن الساعة الثامنة صباحاً حتى التاسعة والنصف ، ومن الواحدة بعد الظهر حتى الثالثة ، وأخيراً من غروب الشمس حتى الثامنة مساء . ويعطى التلميذ أمثاله عشر يارات أسبوعياً ، كما يقدم إليه في كل سنة هديتين في العيدين . ومعظم الفقهاء يبدعون القدرة على علاج الأمراض المستعصية ، ووسيلتهم في ذلك تسجيل

عدة سطور من القرآن على قصاصة من الورق تُربط إلى ذراع المريض  
أور في شعره .

والجماعة السادسة من العمال المصريين أصحاب المقاهي والحبازين وصانعي  
الأحذية والتفاسين وتجار الأسلحة .

والجماعة السابعة هي أكبر الجماعات عدداً ، وهي خليط كبير من الدناقلة  
والخلافة (١) ، والمتسببين (٢) ، والجنود المرافيت من الزنوج (٣) . وثلاثا هؤلاء  
الجنود يعملون عند تجار الرقيق والعاج في حراسة وقيادة الرحلات في النيل  
الأيض ، وأجرهم في الوقت الحالي أربعون قرشاً في الشهر .

( A letter from Fr. Beltrame, G. in 1853 )

ء راجع هاميش ص ١٨٤ ، ١٨٥ .

---

( ١ ) الجلالة هم الوسطاء التجاريون وتجار الجملة .

( ٢ ) المتسببين هم تجار التجزئة .

( ٣ ) الجنود المرافيت هم الذين توكوا خدمة الجيش .



## الملحق الخامس

### قصة الإرسالية الكاثوليكية ومدرستها بالسودان :

#### قصة الإرسالية الكاثوليكية في السودان

تبدأ قصة الإرسالية الكاثوليكية في السودان في صبتمبر سنة ١٧٤٣ حين انتقل الإيطالي لويجي منتوري ( Fr.Luigi Montouri ) - عضو الإرسالية بالحبيشة - إلى السودان لتأسيس فرع للإرسالية بمدينة الخرطوم وإلحاق مدرسة صغيرة بها ، ولكن ظروف العمل اضطرته إلى الرجوع إلى مقر بعثته بالحبيشة سنة ١٨٤٥ ، وكان ذلك بعد أن تمكن من إقامة بناء للإرسالية متواضع يضم خمس حجرات صغيرة غير الكنيسة .

وفي أبريل سنة ١٨٤٦ أصدر البابا جريجوري السادس عشر قراراً بتأسيس ( النيابة الرسولية لإفريقية الوسطى ) . وكانت أهدافها التبشير الديني ، ورفع مستوى الأهالي صحياً وعلمياً ، ومساعدة المسيحيين الذين يعملون بالتجارة في السودان ، والقضاء على تجارة الرقيق . أما الحدود التي وضعت لنشاطها فكانت واسعة ، تمتد بين مصر والجزائر شمالاً ، والحبيشة والبحر الأحمر شرقاً ، وجبال القمر جنوباً ، والصحراء الكبرى وغينيا غرباً .

وفي فبراير سنة ١٨٤٨ وصل رجال الإرسالية إلى الخرطوم التي وقع عليها الاختيار لتكون قاعدة لنشاطهم ؛ حيث أنها أصلح مكان لتأمين مواصلاتهم إلى إفريقية الوسطى ، وتعلم لغات القبائل القاطنة بها والتعرف على عاداتها . ولقد كان للثورات التي شبت في أوروبا سنة ١٨٤٨ أثرها على الإرسالية ،

إذ كانت نذيراً بتأخير المساعدات المالية التي تأتي إليها من أوروبا ، مما حمل رجالها على اتخاذ الخطة للمستقبل فحولوا الأرض الواقعة شمال البقعة المزمع إقامة مباني الإرسالية الضخمة عليها إلى بستان يمدهم بحاجتهم إلى الخضر والفاكهة .

وبدأ البناء سنة ١٨٥٠ وانتهى — حسب ما كان مقرراً له في ذلك الوقت — في يوليو سنة ١٨٥٢ . وكان هذا البناء حينئذ هو البناء الحجري الوحيد في الخرطوم ، وكان يضم مدرسة من غرفة واحدة وكنيسة صغيرة . وفي سنة ١٨٥٣ بدأ في إقامة البناء على أساس ضخم جديد ، وقد برز في هذا العمل البناء الإيطالي بترو أجاتي ( Petro Agati ) الذي جمع مواد البناء في كميات ضخمة أربت على حولة ألف مركب من أم درمان وبقايا مدينة سوها وضفاف النيل الأزرق . وفي سنة ١٨٥٨ كانت تكاليف البناء قد زادت على نصف مليون فرنك ، وكان البناء يضم في ذلك الوقت — غير المطبخ وحجرة الطعام — سبع حجرات مفرطة الاتساع للإقامة والنوم والتدريس والتخزين ، كما كان يضم كنيسة . ومعظم المساعدات التي هيأت لرجال البعثة إقامة هذه العمارة كانت تقدمها إليهم ( الجمعية النمسية لترقية الإرساليات الكاثوليكية في وسط إفريقية ) ومركزها في فيينا .

وكان رجال الإرسالية من النمسيين والإيطاليين والألمان البافاريين ، وكان من بينهم رجال الدين والعلمانيون والعمال — وبخاصة عمال البناء الإيطاليون . وكان يأتي إلى السودان معين مستمر منهم لتعويض خسائرهم في الأرواح ، ولذلك بقي عددهم ثابتاً تقريباً منذ نزولوا بالبلاد وطوال إقامتهم بها . وقد بلغت هذه الخسائر بين سنتي ١٨٤٨ ، ١٨٦١ ثلاثة وعشرين رجلاً ، ومات في محطة عند كرو وحدها على بحر الجبل في سنة واحدة ثمانية من الرجال من مجموع رجالها البالغ عشرة .

ولا كان التبشير الدينى هو أهم هدف من أهداف الإرسالية فإن هذا يفسر ما حققته الإرسالية بعد وصولها إلى الخرطوم بسنوات قليلة ، ألا وهو إقامة محطتين لها على بحر الجبل فى سنى ١٨٥١ ، ١٨٥٥ . وفى سنة ١٨٦٢ رجعت الإرسالية إلى بلادها تحت ضغط الخسائر فى الأرواح ، ولكنها عادت إلى الخرطوم فى سنة ١٨٧٢ . وفى السنة التالية افتتحت محطة لها فى بربر ، تلها بمحطتين فى جبال النوبا ( فى جنوب شرق كردفان ) بعد ذلك بسنتين : واستمر ازدهار الإرسالية حتى سنة ١٨٧٨ حين خسرت سبعة عشر فرداً من رجالها دفعة واحدة بسبب انتشار حمى الملاريا فى الخرطوم ، فأغلقت محطة بربر مسطرة . وحتى سنة ١٨٨٠ لم يكن بناء دار الإرسالية بالخرطوم . قد تمّ طبقاً للتجديدات التى لا تفتأ تدخل عليه ، بل كان أساس الكنيسة ولها تصميم جديد - لم يزل يوضع فى تلك السنة ، وإن كان قد استجداً على البناء مدخل فخم يستطيل بممر متوسطه بهو من الأعمدة ،

### الإرسالية الكاثوليكية والكشوف الجغرافية فى السودان :

وقد استعانت الإرسالية لتحقيق أهدافها بوسائل كثيرة ، منها العمل على كشف النقاب عن طبيعة الجهات التى تعمل فيها ، وكان الكشوفها - وبخاصة فى منطقة أعالي النيل الأبيض - دوى كبير فى الأوساط العلمية فى أوروبا ، وددته كثير من المجلات العلمية الألمانية والنمساوية والإيطالية المهمة بالكشوف الجغرافية ، وتزخر مكتبات الهيئات الدينية فى إيطاليا والنمسا بكثير من تقارير رجال البعثة المخطوطة والمنشورة فى هذا الميدان .

وعلى رأس رجال الإرسالية الكاثوليكية الذين أدلوا بدلوهم فى ميدان الكشوف الجغرافية الدكتور نوبلخر ( Dr. Knobler ) ، ويرجع إليه الفضل فى تأسيس محطتى البعثة على النيل الأبيض . وقد سجل فى تقريره

الذى دونه عن رحلته في أعالي النيل الأبيض ( سنة ١٨٤٩ - ١٨٥٠ )  
الكثير عن النيل . ومن أعماله أيضاً دراسة لغة قبيلة البارى ونقل كثير من  
الصلوات والتراثيل إلى لهجتهم .

ومن رجال الإرسالية الذين زاروا أعالي النيل الأبيض ، وسجّـلوا  
إحساساتهم العلمية بها الآباء : فنكو وبلترام وكوفان ومورلانج ولانز (١) :  
وقد اهتموا أكثر ما اهتموا بدراسة لهجتي البارى والدينكا ووضع قواعد  
لها ، وعمل قاموس اللغة الإيطالية واللهجتين .

وقد امتدت جهود رجال الإرسالية في مجال الكشف إلى غير منطقة أعالي  
النيل الأبيض ، وكان ذلك في أثناء قيامهم بالبحث عن أماكن تصاح لإقامة  
محطات جديدة للتبشير . فقد صعد كل من مسابا ( Cardinal G. massaia )  
وبلترام ( Fr. G. Beltrame ) النيل الأزرق في سنتي ١٨٥١ -  
١٨٥٢ ، وسنتي ١٨٥٤ - ١٨٥٥ على الترتيب حتى منطقة فازوغلي ، ومنها  
جداً السير حتى الحدود السودانية الحبشية ، ومذكرة كل منهما عن رحلته  
غرة مشرقة في جبين الكشف الجغرافي . ويزيد من قيمة هاتين المذكرتين  
أن الانتقال بين الخرطوم وهذه الحدود كان في حيز المستحيل في ذلك الوقت ،  
وقد تمكن الأب كرشر ( kircher ) من دراسة لهجة البشاريين  
وحاول وضع قواعد لها . وقام الأب كمبوني ( Comboni, D. ) بين  
سنتي ١٨٧٣ ، ١٨٧٥ بدراسة المنطقة الواقعة بين مدينة الأبيض ومدينة  
الدلتج في جبال النوبا ووضع خريطة لها . وفي سنة ١٨٧٦ صعد الأب  
مارتيني ( Fr. martini, G. ) النيل الأزرق حتى فازوغلي ، ووقع اختياره  
على مكان بجوار القضايف لتأسيس محطة جديدة للإرسالية ، وله عن  
رحلته تقرير مفيد للغاية .

وقد استعانت الحكمدارية في الخرطوم برجال الإرسالية في التعرف على طبيعة بعض المناطق التي لم تكن قد مدّت إليها سلطاتها حتى السنوات الأخيرة من الحكم المصري . ومن ذلك أن الحكمدار رءوف باشا ( يناير ١٨٨٠ - فبراير ١٨٨٢ ) كتب في مايو سنة ١٨٨١ إلى الأب كمبونى رئيس البعثة الكاثوليكية بالخرطوم يطلب منه دراسة منطقة جبال النوبا دراسة شاملة حتى يمكن اتخاذ التدابير اللازمة لنفع سكانها وتأسيس نظام إدارى ناجح والقضاء على تجارة الرقيق فيها .

### مجالات أخرى للنشاط الإرسالية :

ولقد حاولت الإرسالية الكاثوليكية إقامة محطة زراعية لها في منطقة الخرطوم بعد أن لمست الفوائد الكثيرة لمحطة زراعية سبق أن أقامتها في الأبيّض ، ولكن حكومة القاهرة رفضت أن تمنحهم الأرض اللازمة لذلك بعد أن كشفت ما تبغيه الإرسالية من وراء هذا الأمر - وهو التمكين لنفسها وما يرتبط به من زيادة نشاطها التبشيري .

وقد لعب رجال الإرسالية دوراً في محاربة تجارة الرقيق . ومن وسائلهم في هذه الناحية قيامهم بشراء الأرقاء من الأهالي وتربيتهم تربية دينية إرسالية للاستعانة بهم في التبشير الديني بين القبائل التي ينتمى إليها هؤلاء الأرقاء . كما كانوا يشجعون الأرقاء على الهرب من بيوت أسيادهم ، وأنشأت الإرسالية من أجل ذلك ملجأ بدارها لاستقبال الهاربين منهم ، هذا ويدعى الكونت بنازى ( Penazzi ) الإيطالى الذى زار الخرطوم قبيل قيام الثورة المهدية أن الإرسالية الكاثوليكية نجحت في تحويل الرأى العام في المدينة ضد تجارة الرقيق .

وللإرسالية الكاثوليكية أثرها في ميدان التعليم وتعليم تلاميذها وعدد من الأهالي بعض الصناعات الهامة ، فقد كانت تضم دائماً بين رجالها صناعات مهرة

في سائر الفنون . وقد كان من آثار بناء دار الإرسالية بالخرطوم بين سنتي ١٨٥٠ ، ١٨٥٢ أن تعلم أكثر من خمسين من الأهالي صناعة البناء . ويدعى الأب إلياس تونيولو ( Elias Toniolo ) أن معرفة الأهالي بصناعة إقامة قنن الأجر بالشكل الذي كانت عليه في القرى المحيطة بمنطقة الخرطوم إنما يرجع الفضل فيه إلى البناء الإيطالي الأب بتروأجاتي ( Petro Agati ) .

وكانت حديقة دار الإرسالية الأولى بين حدائق المدينة بما فيها حديقة سراي الحكمدار . ففيها تخطط المزروعات المدارية بالمزروعات الأوربية ؛ إذ كان الرهبان يأتون بالبذور من خارج البلاد في كل الفرص الممكنة وينبتونها في الحديقة ، مما جعلها أقرب ما تكون إلى حقل للتجارب الزراعية . كما كانت الحديقة مسرحاً لدراسة طبيعة الحيوان والطيور وعاداتهما ؛ فقد كان يجمع فيها حيوانات وطيور البيئة المحيطة بالخرطوم والبيئات الأخرى البعيدة التي يمكن أن تصل إليها إمكانيات رجال البعثة .

### الإرسالية الكاثوليكية ومدرستها بالخرطوم :

وفي مجال التعليم كان للإرسالية الكاثوليكية دورها . ويرجع تاريخ مدرسة الإرسالية في الخرطوم إلى سنة ١٨٤٣ عندما وصل إلى المدينة من الحبيشة الأب لويجي منتوري ( Fr. Luiji Monoturi ) وافتتح بها مدرسة داخلية صغيرة تلاميذها من الأطفال الزوج الفاطنين حول النيل الأبيض والمشتريين من سوق الرقيق ، وقد انضم إلى هذه المدرسة بعض البيض والمولدين ، ولكن أمرها انتهى بمجرد رجوع الأب منتوري إلى الحبيشة سنة ١٨٤٥ . وعند وصول الإرسالية الكاثوليكية إلى مدينة الخرطوم سنة ١٨٤٨ كان من خططها افتتاح مدرسة داخلية توازيهم في نشر المسيحية . وفي سنة ١٨٥٠ كان بالمدرسة عشرون تلميذاً ، من بينهم أربعة عشر طفلاً من الزوج كانت تُرعى عاداتهم إلى حد كبير في تربيتهم ، وزاد العدد إلى أربعين

طفلاً سنة ١٨٥٣ : وكانت مواد الدراسة هي : القراءة والكتابة والحساب واللغات العربية والفرنسية والإيطالية والموسيقى والأشغال اليدوية .

وفي سنة ١٨٥٥ افتتح بالمدرسة قسم خارجي لأبناء الأهالي . وفي هذه السنة كتب هنزل ( Hansal ) نائب قنصل النمسا بالخرطوم بعد أن حضر الامتحان الذي عُقد للتلاميذ : « إن الأطفال الزوج يجيبون باللغة العربية عن أسئلة كثيرة كانت موضوعاتها مجهولة لديهم تماماً ، وهم قادرون على الكتابة باللغتين العربية والإيطالية وعلى حل بعض تمرينات الحساب على السبورة » . أما رئيس الإرسالية فقد أوصى بإرسال التلاميذ المتفوقين في هذا الامتحان إلى أوروبا ليستزيدوا من التعليم .

وقد سجلت المدرسة بعد سنة ١٨٥٥ تقدماً وازدهاراً ، فقد أضيفت إلى مواد الدراسة مواد جديدة — منها التربية البدنية والرسم والغناء ، كما أُلحق بها سنة ١٨٥٩ قسم لتدريس المواد التجارية لتزويد الحكومة في الخرطوم بالموظفين . وبعد هذه السنة الأخيرة اهتمت المدرسة بالتعليم المهني ، فافتتحت بها أقساماً للنجارة والحدادة والحياكة وصناعة الأحذية يشرف عليها خبراء إيطاليون ، وكان مدير دار الصناعة بالخرطوم ( الترسانة ) ، الإيطالي الجلبيسي ، يدرس علم الميكانيكا للتلاميذ الذين يظهرون مهارة وكفاءة ، وكان هؤلاء التلاميذ يعملون في هذه الدار بعد تخرجهم : كما تمتاز سنوات ما بعد ١٨٥٩ بتوسيع المدرسة في قبول التلاميذ — بنين وبنات — في القسم الخارجي ، فلما كانت سنة ١٨٧٨ كان عدد البنين ثلاثمائة وعدد البنات مائتين .

وقد ظلت المدرسة تعمل — شأنها في ذلك شأن مؤسسات البعثة — حتى رحل رجال الإرسالية إلى القاهرة عند قيام الثورة المهدية ، فتوقفت المدرسة عن العمل كسائر مؤسسات البعثة (١) .

---

( ١ ) اعتمدت في كتابة هذا الموضوع على مؤلفات كثيرة من أهمها مخطوطان للأب =

= إلياس تونيو ( Elias Toniolo ) المدرس بمدرسة الإرسالية الكاثوليكية بالخرطوم بحرى ( كلية كيوني ) ، وقد تسمى له مقابلة سيادته بالخرطوم بحرى فى سنة ١٩٥٨ ، وهذا المخطوطان هما :

- ١ - الرسالة الكاثوليكية لإفريقية الوسطى ( ١٨٤٦ - ١٨٩٨ ) .
  - ٢ - الأعمال الجغرافية وغيرها الخاصة بالبحث عن الأجناس البشرية التى قام بها مرسلو الرسالة الكاثوليكية لإفريقية الوسطى ( ١٨٤٦ - ١٨٩٨ ) .
- كما أطلعنى الأب إلياس على كثير من مراسلات المبعوثين الكاثوليك بالخرطوم إلى رؤسائهم فى إيطاليا فى القرن التاسع عشر بعد أن ترجمها إلى اللغة الإنجليزية . وأصول هذه المراسلات محفوظة فى دار الإرساليات الكاثوليكية بغيرونا بإيطاليا ، وهى تتناول تاريخ الإرسالية باندودان ، كما تغطى فواشى عديدة من نواحي الحياة فى البلاد فى العهد المصرى . ومن المراسلات التى اعتمدت عليها فى كتابة هذا الموضوع ما يأتى :

- 1 — A letter from Fr. Luigi Montouri , in 1843.
- 2 — « « « Beltrame, G. , in 1853.
- 3 — « « « Dal Bosco , in 1858.
- 4 — « « « Rollet B. , in 1881.
- 5 — Massala, Cardinal G. ; " Through the Sudan, 1851 " ,  
in : My 35 Years as a Missionary in Upper Ethiopia.
- 6 — Fr. Beltrame. G. ; From Sennar to Beni Shangul, 1854-55.
- 7 — Fr. Martini, G. ; To Oedaref, Gallabat and Fazughli,  
1876.

هذا ، وقد تضمنت كل من المراسلات الأربع الأولى وضماً قيمة مدينة الخرطوم .



## مصادر البحث

### ١ - الروايات الشفهية

- ١ - الشيخ عبد الله عبد الرحمن ، مؤلف ( العربية في السودان - الخرطوم ١٩٢٢ ) وهو من بيت علم وقد زرت سيادته في أم درمان في أبريل ١٩٥٧ ، وعلمت منه مكان مدرسة الخرطوم أيام رفاة .
- ٢ - الشيخ إبراهيم صديق القاضي السابق وناشر ( طبقات ودضيف الله : القاهرة ١٩٣٠ ) ، والشيخان أحمد على الأحيمر شيخ حلة توتى الأسبق وعبد الرحمن جميل الله ، وقد عرفت منهم الكثير عن دور المجلس التعليمي والتعميري في منطقة اتقاء النيلين الأبيض والأزرق ، وخواوات العلم في الخرطوم على العهد المصري . وتوضح أهمية رواياتهم في أنهم استقوا معلوماتهم من الشيخ أحمد إبراهيم عمدة توتى الأسبق الذي عاصر عهود : الحكم المصري والمهدية والحكومة الإنجليزية في السودان ، وأكبر وأدق راوية في عهده . وقد قمت بزيارتهم مراراً في حلة نخوجلي في أبريل ومايو سنة ١٩٥٨ .

### ٢ - الوثائق

#### ١ - الوثائق المنشورة :

- |                                  |              |              |
|----------------------------------|--------------|--------------|
| ساحى ( أمين باشا ) : تقويم النيل | الجزء الثانى | القاهرة ١٩٢٨ |
| المجلد الأول من الجزء الثالث     |              | القاهرة ١٩٣٦ |

٢ — الوثائق غير المنشورة :

في دار المحفوظات التاريخية القومية بعابدين بالقاهرة  
« محافظ السودان » .

٣ — المخطوطات

١ — في دار الإرساليات الكاثوليكية بفيرونا بإيطاليا :

وتتضمن مخطوطات هذه الدار كثيراً من مراسلات المبشرين  
الكاثوليك بالخرطوم إلى وياستهم في إيطاليا ، وتتناول تاريخ الإرسالية  
بالسودان ، كما تغطي نواحي عديدة من نواحي الحياة في البلاد على العهد  
المصرى . وقد تمكنت من الاطلاع على بعض هذه المراسلات بعد أن قام  
الأب إلياس تونيولو ( Elias Toniolo ) ، المدرس بمدرسة الإرسالية  
الكاثوليكية بالخرطوم بحري ( كلية كبروني ) بترجمتها إلى اللغة الإنجليزية .  
كما أن للأب بختين عن الإرسالية الكاثوليكية بالخرطوم .

راجع هامش ص : ١٨٤ - ١٨٥ .

٢ — في دار الكتب بالقاهرة :

السيد صالح مجدى : حلية الزمن بمناقب خدام الوطن سعادت المرحوم  
دفاعه بك . ( تحت رقم ١٠٢٦ تاريخ )

## ٤ — المراجع العربية

- ١ — إبراهيم فوزى باشا :  
السودان بين يدى غردون وكنتشر الجزء الأول القاهرة ١٣١٩ هـ
- ٢ — أحمد أحمد بدوى ( الدكتور ) :  
رفاعة الطهطاوى بك القاهرة ١٩٥٠ م
- ٣ — أحمد أمين :  
زعماء الإصلاح فى العصر الحديث القاهرة ١٩٤٨ م
- ٤ — أحمد حافظ عوض :  
فتح مصر الحديث أونابليون بوناپرت فى مصر القاهرة ١٩٢٥ م
- ٥ — أحمد عرابى :  
مذكرات عرابى الجزء الأول كتاب الهلال — العدد ٢٣
- ٦ — أحمد عزت عبد الكريم ( الدكتور ) :  
( أ ) التعليم فى عصر محمد على القاهرة ١٩٣٨ م  
( ب ) تاريخ التعليم فى مصر الجزء الأول القاهرة ١٩٤٥ م
- ٧ — أحمد كاتب الشونة وآخرون :  
تاريخ ملوك سنار لشر الدكتور مكى شبيكة الخرطوم ١٩٤٧ م
- ٨ — إسماعيل باشا سرهنك :  
حقائق الأخبار عن دول البحار الجزء الثانى القاهرة ١٣١٤ هـ
- ٩ — التونسى ( محمد بن السيد عمر ) :  
تشجيل الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان باريس ١٨٥٠ م
- ١٠ — الجبرقى ( الشيخ عبد الرحمن ) :  
عجائب الآثار فى التراجم والأخبار طبعة بولاق ٤ أجزاء القاهرة ١٢٩٧ هـ

- ١١ - جرجى زيدان :  
( ا ) مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر الجزء الثاني مصر ١٩٠٣ م  
( ب ) تاريخ آداب اللغة العربية الجزء الرابع القاهرة ١٩٢٧ م
- ١٢ - حسين فوزى النجار ( الدكتور ) :  
رفاعة الطهطاوى أعلام العرب العدد ٥٣
- ١٣ - حكومة السودان :  
مذكرة عن الخفاض في السودان الإنجليزى المصرى الخرطوم ١٩٤٥ م
- ١٤ - رشيد رضا ( السيد محمد ) :  
تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وما جرى بمصر  
في عهده الجزء الأول
- ١٥ - زاهر رباح ( الدكتور ) :  
السودان المعاصر منذ الفتح المصرى حتى الاستقلال  
( ١٨٢١ - ١٩٥٣ ) القاهرة ١٩٦٦ م
- ١٦ - زيادة ( الدكتور محمد مصطفى ) :  
المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادى  
( للقرن التاسع الهجرى ) القاهرة ١٩٤٩ م
- ١٧ - الطيب ( الدكتور عبد الله ) :  
محاضرات في الاتجاهات الحديثة في الفكر العربى في السودان  
القاهرة ١٩٥٩ م
- ( من مطبوعات : جامعة الدول العربية - معهد  
للدراستات العربية العالية )
- ١٨ - سعد ميخائيل :  
السودان بين عهد - عهد : اتفاقية ١٨٩٩ ومعاهدة  
١٩٣٦ المنيا

- ١٩ - السندوني ( حسن ) :  
أعيان البيان من صبح القرن الثالث عشر الهجري  
إلى اليوم  
القاهرة ١٩١٤ ع
- ٢٠ - شقير ( نعوم ) :  
تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته  
الجزء الأول  
مصر ١٩٠٤ م
- ٢١ - شكرى ( الدكتور محمد فؤاد ) :  
الحكم المصرى فى السودان ( ١٨٢٠ - ١٨٨٥ )  
القاهرة ١٩٤٧ م
- ٢٢ - شكرى ( الدكتور محمد فؤاد ) ، عبد المقصود العنانى ،  
سيد محمد خليل :  
بناء دولة مصر محمد على ( السياسة الداخلية )  
القاهرة ١٩٤٨ م
- ٢٣ - الشيبان ( الدكتور جمال الدين ) :  
( أ ) تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على القاهرة ١٩٥١ م  
( ب ) التاريخ والمؤرخون فى مصر فى القرن التاسع عشر  
( رقم ٣ من « المكتبة التاريخية » بإشراف الدكتور  
أحمد عزت عبد الكريم )  
القاهرة ١٩٥٨ م
- ٢٤ - الطهطاوى ( رفاعة بك رافع ) :  
( أ ) مواقع الأفلاك فى وقائع تلهاك بيروت ١٨٦٧ م  
( ب ) أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق  
بنى إسماعيل  
القاهرة ١٢٨٥ هـ
- ( ج ) المرشد الأمين للبنات والبنين  
القاهرة ١٨٧٢ م
- ( د ) تخلص الإبريز فى تلخيص باريز أو الديوان  
النفيس بإيوان باريس  
القاهرة ١٩٠٥ م
- ( هـ ) مناهج الألباب المصرية فى مباحج الآداب العصرية القاهرة ١٩١٢ م

- ٢٥ — عابدين (الدكتور عبد الحيد) :  
تاريخ الثقافة العربية في السودان من نشأتها إلى  
العصر الحديث  
القاهرة ١٩٥٣ م
- ٢٦ — عبد الرحمن الراجحي ( بك ) :  
تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر  
الجزء الثالث القاهرة ١٩٣٠ م
- ٢٧ — عبد العزيز محمد الشناوي (الدكتور) :  
عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية  
أعلام العرب العدد ٦٧
- ٢٨ — عبد المجيد (الدكتور عبد العزيز أمين) :  
التربية في السودان ، والأسس الاجتماعية والنفسية  
التي قامت عليها ثلاثة أجزاء القاهرة ١٩٤٩ م
- ٢٩ — علي باشا مبارك :  
الخطط الجديدة التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها وقراها  
الجزء ١٣ القاهرة ١٣٠٥ هـ
- ٣٠ — عمر طوسون ( الأمير ) :  
البعثات العلمية في عصر محمد علي ثم في عهد  
عباس الأول وسعيد  
الإسكندرية ١٩٣٤ م
- ٣١ — عوض (الدكتور محمد عوض محمد) :  
السودان الشمالي — سكانه وقبائله  
القاهرة ١٩٥١ م
- ٣٢ — فولتير :  
الروض الأزهر في تاريخ بطرس الأكبر  
ترجمة : أحمد عبيد الطهطاوي بولاق ١٢٦١ هـ ( ١٨٤٥ م )

٣٣- القبانى ( الشيخ محمود ) :

( ا ) السودان المصرى والإنكليز الإسكندرية ١٨٩٦ م

( ب ) « مذكراته عن الحكم المصرى فى السودان »

فى كتاب : السودان من التاريخ القديم إلى رحلة البعثة

المصرية لعبد الله حسين الجزء الأول

( ص ١٣٩ - ١٥٤ ) القاهرة

( ح ) « ذكريات الطفولة فى السودان »

فى كتاب : التربية فى السودان للدكتور عبد العزيز

أمين عبد المجيد الجزء الثالث ( ص ٢٦ - ٣٢ ) القاهرة ١٩٤٩ م :

٣٤- محمد الصادق حسين :

السياسة الأسبوعية السنة الثانية العدد ٦٤

٣٥- محمد ضيف الله :

كتاب الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان

نشر الشيخ إبراهيم صديق للقاهرة ١٩٣٠ م

٣٦- محمد فريد أبو حديد :

سيرة السيد عمر مكرم القاهرة ١٩٣٧ م

٣٧- محمد محمود الدش ( الدكتور ) :

رفاعة للطهطاوى مجلة العربى العدد ٩٣ أغسطس ١٩٦٦ م :

٣٨- مطبوعات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب

والعلوم الاجتماعية رقم ١٩ :

هرجان رفاعة رافع الطهطاوى القاهرة ١٩٦٠ م

٣٤ - الوقائع المصرية :

( أ ) العدد رقم ٨٢٣ ، بتاريخ ٢٣ شعبان ١٢٩٦

• ( ١١ أغسطس ١٨٧٩ )

( ب ) العدد رقم ٩٣١ ، بتاريخ ٢٤ شوال ١٢٩٧

• ( ٢٩ سبتمبر ١٨٨٠ )

( ج ) العدد رقم ١١٩٤ ، بتاريخ ٢٣ رمضان ١٢٩٨

• ( ١٨ أغسطس ١٨٨١ )

---



## المراجع الأجنبية

- 1 — Abbate, Le Dr. O. ; De l' Afrique Centrale, ou Voyage de  
S. A. Mohamed Said Pacha dans ses  
Provinces du Soudan. Paris, 1858.
- 2 — Bonola Bey, Dr. F. ; L' Egypte et la Geographie. Le Caire, 1889
- 3 — Cailliaud, F. ; Voyage à Meroé, au Fleuve Blanc, au dela  
de Fazogl dans le midi du Royaume de Sennar  
à Syouah et dans Cing autres Oasis, Vol. II.  
Paris, 1826.
- 4 — Casati, Major G. ; Ten Year in Equatoria, Vol. I. London  
& New York. 1891.
- 5 — Chaillé, Long, Col. C. ; Central Africe : Naked Truths of  
Naked People. London, 1876.
- 6 — Didier, Charles ; " Khartoum ",  
Nouvelles Annales des Voyages, de la  
Geographie, de l' Histoire et de l' Archeologie,  
Année 1858, tome Deuxieme, p.p. 56-90.
- 7 — Hamilton, J. ; Sinai, the Hedjaz, and Soudan.  
London, 1857.
- 8 — Hake. A. E. ; The Journals of Maj. - Gen. C. G. Gordon,  
C.B. , at Khartoum. London, 1898.
- 9 — Harwood. F. L. ; " The Story of Tajoj " ,  
Sudan Notes and Records, Vol. XXIV, 1941.  
p.p. 197-99.
- 10 — Hill, G. B. ; Colonel Gordon in Central Africa, 1874-1879.  
London, 1881.
- 11 — Hill, R. ; A Biographical Dictionary of the Anglo-Egyptian  
Sudan. Oxford, 1951.

- 12— Lepsius, Dr. R. ; Letters from Egypt, Ethiopia and Sinai,  
tr. by J. B. Horner. London, 1853.
- 13— Macmichael, H. A. ; A History of the Arabs in the Sudan,  
Vol. I. Cambridge, 1922.
- 14— Melly, André ; Lettres d'Egypte et de Nubie.  
Londres, 1852.
- 15— Melly, G. ; Khartoum and the Blue and white Niles,  
Vol. II. London, 1851.
- 16— Pallme, I. ; Travels in Kordofan. London, 1844.
- 17— Sudan Government ; Female Circumcision in the Anglo-  
Egyptian Sudan. Khartoum. 1945.
- 18— Taylor, B. ; A Journey to Central Africa. New York, 1854.
- 19— Tremaux, P. ; Le Soudan. Paris, 1862.

# فهرست

صفحة

|                                   |    |
|-----------------------------------|----|
| مقدمة                             | ٣  |
| رفاعة رافع الطهطاوى فى مصر وفرنسا | ١٤ |

## رفاعة رافع الطهطاوى فى السودان

|  |     |
|--|-----|
| عصر رفاعة فى السودان                                 | ٤٥  |
| بعثة رفاعة إلى السودان                               | ٦٦  |
| افتتاح مدرسة الخرطوم                                 | ٨٨  |
| بعثة رفاعة الطهطاوى إلى السودان فى الميزان           | ١١٩ |
| خاتمة : التعاميم فى السودان ومدرسة الخرطوم بعد رفاعة | ١٣٣ |

## منتخبات من آثار رفاعة عن السودان

|   |     |
|---|-----|
| ١ - سفر رفاعة إلى السودان ، ونظمه قصيدة تشير إلى أحوال تلك البلاد وعوائدها      | ١٤١ |
| ٢ - استعداد أهالى السودان للمعارف والكمالات ، ووجود التعاون عندهم على طلب العلم | ١٥٠ |
| ٣ - تصميم المرحوم محمد على* على السفر إلى بلاد السودان                          | ١٥٣ |
| ٤ - إرسالية المرحوم محمد على* لاستكشاف منبع النيل                               | ١٥٦ |
| ٥ - ورود قوافل إفريقية إلى مصر للتجارة  | ١٥٨ |

## الملاحق

- ١ - قرار إنشاء مدرسة الخرطوم ... .. ١٦٣
- ٢ - مدينة الخرطوم كما وصفها أحد كبار الموظفين المصريين  
في السودان من تلاميذ رفاة ... .. ١٦٧
- ٣ - وصف لزيارة الرحالة الأمريكي بايارد تيلور لمنزل آل  
رفاة بطهطا ... .. ١٧١
- ٤ - وصف لمدينة الخرطوم سنة ١٨٥٣ في أثناء وجود رفاة بها،  
كما جاء في إحدى مكاتبات أحد المبعوثين الكاثوليك إلى  
رئاسته بإيطاليا .. ... ١٧٤
- ٥ - قصة الإرسالية الكاثوليكية ومدرستها بالسودان .. ... ١٧٨
- مصادر البحث ... .. ١٨٦

